قضية التصوف
(٤ - ١)

عوارف المعارف

للإمام العارف شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي
٥٣٩ - ٦٣٢م

تحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود و الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الأول

قضية التصوف
(٤ — ١)

عوارف المعارف

للإمام العارف شهاب الدين أبي حفص عمر السهروردي
٥٣٩ هـ — ٦٣٢ هـ

بتحقيق

الدكتور عبد الحليم محمود و الدكتور محمود بن الشريف

الجزء الأول

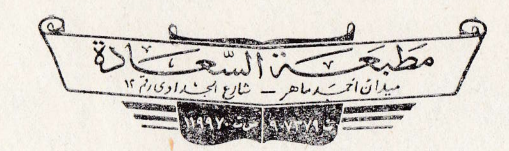
مُقدِّمـات

للدكتور عبد الحليم محمود

1- مقدمة أولى : عن المؤلف.

2- مقدمة ثانية : عن التصوف.

3- مقدمة ثالثة : عن نماذج صوفية تأييدا وتمثيلا وتطبيقا للمقدمة الثانية عن التصوف.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا ، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما ، تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجراً كريماً) .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة الأولى

الإمام : شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى

(٥٣٩ هـ — ٦٣٢ هـ)

كتبت كتب الطبقات عن السهروردى :

من ذلك : ما كتبه صاحب « وفيات الأعيان » يقول :

كان فقيهاً شافعى المذهب شيخاً صالحاً ورعاً كثير الاجتهاد فى العبادة والرياضة ، وتخرّج عليه خلق كثير من الصوفية فى المجاهدة والخلوة .

ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله .

وصحب عمه أبا النجيب ، وعنه أخذ التصوف والوعظ ، والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبى صالح الجيلى ، وانحدر إلى البصرة إلى الشيخ أبى محمد بن عبد الله ، ورأى غيرهم من الشيوخ .

وحصّل طرفاً صالحاً من الفقه والخلاف ، وقرأ الأدب ، وعقد مجالس الوعظ سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وكان له مجلس وعظ ، وعلى وعظه قبول كثير ، وله نفس مبارك .

حكى لى من حضر مجالسه أنه أنشد يوماً فى المجلس على الكرسى [من الكامل] :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى أنى أشح بها على جلاّسى

أنت الكريم ولا يليق تكرماً   أن يعبر الندماء دور الكاس

فتواجد الناس لذلك . . . وتاب جمع كثير . .

وله تواليف حسنة : منها كتاب « عوارف المعارف » وهو أشهرها ،

وله شعر ، فمنه [من مخلع البسيط] :

تصرمت وحشة الليالى   وأقبلت دولة الوصال
وصار بالوصل لى حسوداً   من كان فى هجركم رثى لى

ورأيت جماعة ممن حضر مجالسه ، وقعد فى خلوته وتسليكه كجارى عادة الصوفية ، فكانوا يحكون غرائب مما يطرأ عليهم فيها مما يجدونه من الأحوال الخارقة . .

وكان كثير الحج ، وربما جاور فى بعض حججه .

وكان أرباب الطريق من مشايخ عصره يكتبون إليه من البلاد صورة فتاوى يسألونه عن شىء من أحوالهم . .

سمعت أن بعضهم كتب إليه :

« يا سيدى : إن تركت العمل أخلدت إلى البطالة ، وإن عملت داخلنى العجب ، فأيهما أولى ؟ » .

فكتب جوابه :

« اعمل واستغفر الله من العجب » .

وله فى هذا شىء كثير . .

وذكر فى كتابه « عوارف المعارف » أبياتاً لطيفة منها [من البسيط] :

أشم منك نسيما لست أعرفه   أظن لمياء جرت فيك أذيالا

وفيه أيضاً [من الخفيف] :

إن تأملتكم فكلى عيون   أو تذكرتكم فكلى قلوب

صحب عمه أبا النجيب زماناً ، وعليه تخرج . .

ومولده بسهرورد فى أواخر رجب ، أو أوائل شعبان ، فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

وتوفى فى مستهل المحرم سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ببغداد ، ودفن من الغد بالوردية ، رحمه الله تعالى[1] . .

ومما ذكره صاحب « شذرات الذهب » عن الشيخ ما يأتى :

« الشيخ شهاب الدين السهروردى قدوة أهل التوحيد ، وشيخ العارفين أبو حفص وأبو عبد الله : عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد التيمى البكرى الصوفى الشافعى ، ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسهرورد ، وقدم بغداد فلحق بها هبة الله بن الشبلى فسمع منه ، وصحب عمه أبا النجيب ، وتفقه وتفنن وصنّف التصانيف ، منها : عوارف المعارف : فى بيان طريقة القوم . .

وانتهت إليه تربية المريدين ، وتسليك العباد ، ومشيخة العراق .

قال الذهبى : لم يخلف بعده مثله . .

وقال ابن شيبة فى طبقاته :

« أخذ عن أبى القاسم بن فضلان ، وصحب الشيخ عبد القادر ، وسمع الحديث

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ١١٩ – ١٢٠ .

من جماعة ، روى عنه ابن الدبيثى ، وابن نقطة ، والضياء ، والزكى البرزلى ، وابن النجار ، وطائفة » .

وقال ابن النجار :

« كان شيخ وقته فى علم الحقيقة ، وانتهت إليه الرياسة فى تربية المريدين ، ودعاء الخلق إلى الله تعالى »[١] اهـ .

وقال صاحب « النجوم الزاهرة » :

« ومولده فى شهر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسهرورد ، وقدم بغداد فصحب عمه الشيخ أبا النجيب عبد القاهر وأخذ عنه التصوف والوعظ . .

وصحب أيضاً الشيخ عبد القادر الجيلى ، وسمع الحديث من عمه المذكور وغيره وروى عنه البرزالى وجماعة كثيرة . .

وكان له فى الطريقة قدم ثابتة ، ولسان ناطق . .

وولى عدة رُبُط للصوفية . .

وأرسله الخليفة إلى عدة جهات رسولا .

وكان فقيهاً عالماً واعظاً مفتناً مصنفاً ، وهو صاحب التصانيف المشهورة ، واشتهر اسمه ، وقصد من الأقطار ، وظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا ، ووصل به خلق إلى الله تعالى ، وكف بصره قبل موته »[٢] اهـ .

وقد نال كتاب « عوارف المعارف » الكثير من العناية :

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٦ ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

من ذلك : ما يذكره صاحب « كشف الظنون » قال :

« وعليه تعليق للسيد الشريف : على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ ست عشرة وثمانمائة ، وترجمه « العارفى » بالتركى ، وظهير الدين عبد الرحمن بن على الشيرازى بالفارسى ، والشيخ عز الدين محمود بن على الكاشى النظيرى أيضاً بالفارسى ، واختصره محب الدين أحمد بن عبد الله الطبرى المالكى الشافعى المتوفى سنة ٦٩٤ أربع وتسعين وستمائة ، وخرج أحاديثه الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى المتوفى سنة ٨٧٩ تسع وسبعين وثمانمائة »[١] اهـ .

ورغم هذه العناية من أسلافنا بهذا الكتاب النفيس فإنه فى العصر الحاضر لم ينل من التحقيق ما يتناسب مع مكانته النفيسة . .

وجميع طبعاته فيها الأخطاء التى لا تحصى :

مطبعة لبنان مثلا : بدأت منذ الصفحة الأولى مباشرة بتحريف هائل وخطأ جسيم هو اسم المؤلف نفسه . .

لقد نسبت الكتاب إلى غير مؤلفه دون تحقيق ولا علم ، ومع أن مؤلف الكتاب مشهور شهرة تجعله بعيداً عن التحريف ، فإن طبعة لبنان – ككثير مما طبع فى لبنان – حرّفت حتى فى اسم المؤلف . .

والطبعات المصرية فيها أخطاء مطبعية كثيرة ، ونضرب مثلا لهذه الأخطاء التى تدعو إلى الابتسام . .

فكلمتى الآجر والتراب حرفتا إلى : كلمتى الأجر والثواب . .

وعلى هذا المثال كثير فى الطبعات المصرية . .

من أجل ذلك : قمنا بتحقيق هذا الكتاب وتخريج أحاديثه وشرح بعض

---

(١) كشف الظنون ص ٤٢ – ٤٣ .

الكلمات الغامضة ، والتعريف الموجز بكثير من الشخصيات التى ذكرت فيه ، ومراجعة النص على المخطوطات الموجودة بدار الكتب وبمكتبة الأزهر .. ومنها :

١ — النسخة التى كتبها حاج يوسف بن حسين بن خليل الرومى والتى أتمها يوم الأربعاء « العشر الأوسط » من جمادى الأولى من سنة ٨٣٢ ، اثنين وثلاثين وثمانمائة .

٢ — النسخة التى كتبها إبراهيم عوض أفندى وأتمها سنة مائة وألف ..

٣ — النسخة التى نظر فيها وحررها السيد سليمان العزيزى الشافعى ، وأتمها سنة ١١١٢ هـ اثنا عشر ومائة وألف من الهجرة .

جعله الله عملا خالصاً لوجهه الكريم ..

والله نسأل أن يهدى له ، وأن يهدى به ..

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة الثانية

التصوف فى الجو الإسلامى

إن كتاب « عوارف المعارف » كتاب فى التصوف ، وهو كتاب مبارك ، يهتدى به كثير ممن يدرسون التصوف نظريا وعمليا .

ونحب — بتوفيق الله — بمناسبة نشره أن نلقى بعض الأضواء على موضوع التصوف من زاوية صلته بالقرآن على وجه الخصوص .

وقبل الشروع فى هذا ، نتحدث عن بعض ما يثار حول التصوف من زائفات ، يقول بعضهم : إن التصوف غير موجود فى القرآن ، إن القرآن كتاب دين ودنيا ، إنه يقول :

« ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ من الدنيا » .

والتصوف مذهب يَزْهد فى الدنيا ويُزَهِّد فيها . وهو مذهب المتجردين الذين لا شأن لهم بدنيا الناس ، ولا بمال الناس .

وهو كتاب يحث على الكفاح والجلاد ، والتصوف عزلة وانفراد لا شأن له بكفاح أو جلاد أو سعى فى الأرض ، أو مشى فى مناكبها .

ونحب أن نسارع — قبل الحديث عن التصوف فى الجو الإسلامى — إلى بيان الوضع الصحيح ، فيما يتعلق بصلة الصوفية بالجهاد الحربى .

لقد ساهموا فى الجهاد الحربى بمواقف معروفة :

لقد كان الصوفى الشهير : عبد القادر الجزائرى . . من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة فى الحرب ، وقد حارب الاستعمار فى الجزائر ، وفعل بإيمانه القوى ، وصوفيته العميقة ، الأعاجيب فى الشجاعة والإقدام .

وحينما أسر كرّمه الأعداء أنفسهم لشجاعته وشهامته ومروءته . .

ولما حالت الظروف — القاهرة — بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية — وذلك بعد الأسر — مكث فى دمشق يدرّس التصوف متخذاً « الفتوحات المكية » كتابه المفضل فى الشرح والتفسير .

ولقد طبع هذه الفتوحات ، وفى أثناء إقامته بدمشق ألف كتاب « المواقف » — وهو كتاب فى التصوف عريق ، بين فيه وجهة النظر الصوفية فى مختلف الموضوعات .

وإذا عدنا إلى الوراء قروناً ، فوصلنا إلى معركة « المنصورة » فإننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية فى قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا مندفعين إلى المنصورة ، ليساهموا فى النصر والاستشهاد فى سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم .

ولقد كان — وهذا له أهميته الخاصة — أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه — وهو من صفوة الصفوة الصوفية — قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك : فإنه ترك بيته ، وذهب إلى المنصورة مساهما فى المعركة بقدر استطاعته .

وإذا رجعنا من قبل ذلك قرونا أيضاً ، فإننا نجد « شقيقاً البلخى » يسارع إلى خوض المعارك ، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

أنظر إليه خائضاً المعارك ، محاربا العدو ، مسلحا بإيمانه وعدته الحربية ،

شاهراً سيفه ، فارساً بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئاً مطمئناً واثقاً بالله . . .

ولقد وصلت ثقته بالله إلى حد أنه — وهو لا يرى إلا سيوفاً مصلتة ، ورقاباً تقطع ، ورءوساً تسقط — يقول لمن بجواره فى هذه الحالة : كيف ترى نفسك ؟ ترى نفسك فى حالة تشبه حالتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك إليك ؟ . . .

فقال هذا الذى بجواره : لا والله . . !

فقال شقيق : « لكنى والله أرى نفسى فى هذا اليوم مثلى فى الليلة التى زفت فيها امرأتى إلى » . . .

لقد كان سعيداً بجهاده ، ومات شهيداً فى معركة الشرف والبطولة ، . . فى ساحة الحرب والجهاد . . .

وحاتماً الأصم يدخل أيضاً المعارك ويخوضها فى غير خوف ولا جزع ، وما كانت نفسه تطير شعاعا من الأبطال . . .

وما كان يقول لها : ويحك لن تراعى . . .

لقد كان كيانه — كله — فى ثقة مطلقة بالله ، وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيراً ، وطرحوه أرضاً ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

إنه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة — فيقول :

« لم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فىّ ، فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها ، أصابه سهم فقتله ، وقمت سليما معافى » .

قام سليما معافى ليعاود المعركة من جديد . . .

هذه أمثلة من مواقف الصوفية فى الجهاد —

فإذا ما هرّج أعداء الصوفية ، وكذبوا ، وزيفوا ، فإن التاريخ ، وإن الواقع يكفينا فى الرد عليهم . . .

أما ـ عن العمل والضرب فى الأرض والكفاح فى سبيل الله ـ فيكفينا أن أبا الحسن الشاذلى ـ وهو كما قلنا : من صفوة الصفوة الصوفية ـ كانت له مزارع . .

ونقول : « مزارع » ولا نقول مزرعة ، لنتابع ـ فى هذا التعبير ـ حديث المؤرخين عنه . . ، . . وكانت له ثيران . . ، . . وكان يتاجر . .

ومما له مغزاه الواضح ـ فى هذا المقام ـ الألقاب التى أطلقت على كثير من أئمة الصوفية :

لقد كان منهم : « القصّار » ، « الوراق » ، « الخراز » ، « الخواص » ، « الجمال » ، « البزاز » ، « النساج » ، « الكتانى » ، « الزجاج » ، « الحمرى » ، « الصيرفى » ، « الفراء » . . .

والفرق بين الصوفية وغيرهم ـ فى هذا ـ هو أن الدنيا لا تستعبدهم ، وإنما تستعبد غيرهم . . .

إنهم لا يلقون بقيادهم إلا لله سبحانه وتعالى ، فلا يلقون بقيادهم إلى مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم ، وأهواءهم ، آلهة يعبدونها من دون الله . .

ونعود إلى فكرة « الفصل بين القرآن والتصوف » !

إن فكرة التفرقة بين القرآن والتصوف ، فكرة شائعة فى كثير من الأوساط ، خصوصاً فى طائفتين من الناس :

(ا) الطائفة التى تسير على نهج المعتزلة : أى التى تسلم قيادها للعقل الفردى ، تلك الطائفة التى يدين كل شخص فيها لعقله هو ، والتى ينطبق عليها قول الله تعالى :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) ؟ .

(ب) والطائفة التى تسير على النهج الشكلى : أى الطائفة الظاهرية التى تدين بالظاهر .

والتصوف إيمان : والإيمان يدين أول ما يدين لله ورسوله ، فلا يتخذ إلٰهه هواه ، ولا يتبع الأشكال والرسوم .

والواقع التاريخى يثبت : أن المعتزلة على مدى وجودهم الطويل لم يوجد فيهم صوفى واحد ، فالصوفى لا يحكّم عقله فى النصوص ليجعلها خاضعة له ، وليجعل نفسه حكما متحكما فيها ، وما دام الدين نزل هادياً للعقل ، فإن الصوفى يهدى عقله بالدين ، ويهتدى بالنصوص ، ويبدأ طريقه بالاتباع سائراً على نسق علَم من أعلام الاتباعيين هو الصحابى الجليل سيدنا عبد الله بن عمر ، الذى كان يتّبع ، والذى كان عقله يسير راضياً مغتبطاً سعيداً بالاتباع ، وذلك أنه اتباع للأسوة الحسنة ، لخير الخلق .

أما المذهب الظاهرى — تاريخيا -- فقد حرم من روحانية التصوف .

والتصوف : قد جعله الله من خصائص أهل السنة ، ليس لغيرهم فيه من نصيب .

إن صاحب كتاب « التبصير فى الدين » يتحدث عما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة « هو :

(« علم التصوف ، والإشارات » وما لهم فيهـا من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه :

من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السُّلمى من مشايخهم قريباً من ألف ، وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد فى جملتهم قط ، من ينسب إلى شىء من بدع « القدرية » و « الروافض » و « الخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ؟ وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة ، وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة والخلق والتقدير إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد)[1] .

وإذا كان أصحاب الاتجاه الاعتزالى يعارضون التصوف ، كما يعارضه أصحاب النزعة الظاهرية ، فإن فريقاً ثالثاً من المثقفين يقف فى صفهم : وهو الفريق الذى يتخذ من الثقافة الغربية النظرية هادياً ومرشداً ، وهذا الفريق الأخير يستحق الإشفاق ، بل والرثاء .

وذلك : أن الثقافة الغربية النظرية ـ سواء أ كانت أخلاقية أم ميتافيزيقية ـ لا تثبت على قدميها عاماً واحداً ، فكل فكرة فى هذا المجال فى الغرب تولد منتقِدة منتقَدة .

(١) التبصير فى الدين « لأبى المظفر الاسفرايينى » ، المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، ط « السيد عزت العطار » ص ١١٨ .

إنها تولد حاملة فى طياتها عوامل الهدم للنظريات الأخرى ، وحاملة فى نفسها أسس التهافت لها نفسها .

ومن أجل ذلك : أخذت هذه الثقافة النظرية الغربية — فى مجال الأخلاق والميتافيزيقا — تتغير وتتبدل ، وكانت وما تزال ولن تزال فى صيرورة لا تنقطع .

وإن هؤلاء الذين يسجدون للثقافة الغربية النظرية ، إنما يسجدون لصنم صائر إلى الزوال ، ليخلفه صنم آخر صائر إلى مصير سابقه ، وهكذا دواليك .

يضاف إلى هؤلاء ـ فى معارضة التصوف ـ جميع المنحرفين أينما كانوا .

وَتَضَافُر هـذه القوى : هو الذى يجعلنا نحاول باستمرار الكتابة فى هذا الموضوع .

* * *

ونريد أن نجابه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتحديد معنى التصوف .

« إن التصوف ليس خلقا ، وكل تعريف له يتجه به نحو الخلق ، فهو تعريف لا ينطبق عليه ، فإذا قال قائل :

« التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء » .

فإننا نقول له : ليس هذا تعريفاً للتصوف .

ومع ذلك : فالتصوف يتضمن الخلق ، الخلق الكريم ، فى صورة التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان خلقه القرآن والذى يقول الله سبحانه له :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وليس التصوف زهداً ، وإن كان يتضمن الزهد ، تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى يقول :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب » .

وليس التصوف عبادة ، مع أنه يتضمن العبادة على الوجه الكامل ،خصوصاً فى صورة الذكر ، يتأسى الصوفى فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يذكر الله سبحانه على جميع أحيانه .

وليس التصوف — خوارق عادات ، أو كرامات ـ إنها فى عرف الصوفية لعب تلقى للصغار ، فإذا فرحوا بما أوتوا استمروا صغار لا يرتقون ، ووقفوا عن السير فى معراجهم إلى الله لا يتقدمون .

وإذا أردنا تعريفا للتصوف : يمكننا أن نتجه فى ذلك إلى أحد أعلامه ـ وهو الشبلى رضى الله عنه ـ « وهو من أئمة الصوفية ـ أصله من فارس ، ونشأ فى بغداد ، وعاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وفى أوائل القرن الرابع ، لقد سئل :

ما بدء التصوف ، وما نهايته ؟

فقال : بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيد الله .

والواقع : أن تعريفات التصوف الصادقة تدور حول هذا المعنى .

وهذا المعنى نفسه هو « المركز » الذى توجِّه إليه التعاليم الإسلامية .

لقد جاء أعرابى مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

يارسول الله : إنى لا أحسن دندنتك ، ولا دندنة أبى بكر ، ولكنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

« وكان هذا الأعرابى يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتهل إلى الله ، ويضرع إليه ، ويتحدث بدعاء رائع متنوع ، ويسمع أبا بكر كذلك ، والأعرابى لايحسن شيئاً من هذا » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« حول ذلك ندندن ، يا أخا العرب » .

والواقع : أن جميع الصوفية حول التوحيد يدندنون ، ومهما اختلفت عباراتهم ولهجاتهم ، فإنهم حول التوحيد يدندنون . . .

يقول شاعرهم :

عباراتهم شتى ، وحسنك واحد   وكل إلى ذاك الجمال يشير

ولقد أراد « البيرونى » فى كلمة فطنة : أن يبين الطابع الذى يسود بعض الأديان الكبرى فقال :

« إن طابع النصرانية الراهنة » : التثليث فمن لم يؤمن بالتثليث فليس مسيحيا .

وطابع اليهودية « الإسبات » فمن لم يؤمن بالسبت فليس يهوديا .

وطابع العقائد الهندية « التناسخ » فمن لم يعتقد بالتناسخ فليس مؤمناً بالعقيدة الهندية .

أما طابع الدين الإسلامى فهو التوحيد .

وإذا كان التوحيد هو : « عقيدة المسلمين » فليسوا فيه سواسية ، إنهم فيه متفاوتون تفاوتا كبيراً .

فبعضهم لم يصل توحيده إلى أن يكون حالا .

وبعضهم انغمس فى التوحيد حتى أصبح التوحيد له حالا وشعاراً ، لا يصدر عنه عمل إلا كان متسما بتوحيده ، ولا يدع عملا إلا وكان تركه صادراً عن توحيده .

ودرجات الناس فى التوحيد لا تكاد تحصى .

* * *

ويرسم لنا القرآن الكريم صوراً من تفاوت الناس فى منازلهم من رضاء الله سبحانه .

وسورة الواقعة « مثلا » تبين لنا درجات التفاوت ، فى عمومها الأعم ، فتقسم الناس إلى ثلاث طبقات :

(وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً :
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) .

وإذا كان السابقون الأولون : ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين :
فإن أصحاب الميمنة : ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين .

أما الفريق الثالث : فهم أصحاب المشأمة ، إنهم أتباع إبليس ، إنهم أصحاب أبى جهل ، إن أبا جهل كان اسمه أبا الحكم ، ثم سمى فى العهد الإسلامى «أبو جهل»

ولم تكن هذه التسمية اعتباطا ، ولم تكن مصادفة ، ولم تكن من قبيل الأضداد : إذ لو كانت من قبيل الأضداد لكان أبا السفه .

لقد سمى أبا جهل ، والجهل ضد العلم ، بيد أنه من المعروف أن أبا جهل ما كان يقل عن أى فرد من أفراد بيئته ثقافة ، بل لقد كان ممتازا فيما يتعلق بهذه الثقافة العادية التى كانت شائعة فى مكة إذ ذاك ، ومع ذلك فقد أطلق عليه هذا الإسم « أبو جهل » وأصبح علما عليه .

لم ؟ إذا أردت أن تعرف السر فى هذه التسمية ، فهو أن أبا جهل لم يكن عنده « الشعور الدينى » ، وكل من لم يكن عنده الشعور الدينى فهو «أبو الجهل» ولو كان حاملا « لليسانس » أو « الدكتوراه » .

إن أبا جهل لم يكن يستشعر الشعور الدينى ، فكانت هذه التسمية العنوان الصادق عليه ، وهى بالتالى تتعداه إلى غيره ممن هم على نمطه من الناس : إنهم جميعاً « آباء الجهل » أو هم « جماعة أبى جهل » .

وجود الشعور الدينى إذن : هو الفرق الواضح بين أصحاب اليمين والمقربين من جانب ، وبين جماعة أبى جهل ، أو جماعة إبليس ، من جانب آخر .

* * *

وإذا كنا قد ألقينا بعض الضوء على التسمية بأبى جهل ، فلعل من المفيد أن نتحدث قليلا عن إبليس .

لقد تحدث القرآن غير مرة عن إبليس ، وكشف أمره فى وضوح ، لكى يستبين الناس الفرق واضحاً بين أسس الإيمان ، وأسس الكفر .

لقد كان إبليس من العابدين ليلا ونهارا ، لا يكاد يفتر ، ولقد أطلق عليه

طاوس الملائكة – وسواء أكانت كلمة « طاوس » أطلقت عليه مصادفة ، أم أطلقت مدحا – فإنها ستبين فى شىء كثير من الصدق طبيعة إبليس ، أو الطبيعة الإبليسية على وجه العموم .

ومجمل أمر إبليس : هو أن الله سبحانه وتعالى خاطب الملائكة – وكان معهم إبليس – آمراً :

« اسْجُدُوا لآدَمَ »

فسجد الملائكة فور سماع الأمر الإلهى ، ولم يسجد إبليس :

وتفسر الآيات القرآنية السبب فى عدم سجود إبليس :

إنه لم يسجد استكبارا ، إنه لم يسجد أنفة واستعلاء ، ورفض أمر الله قائلا :

« أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

لقد أبى عليه كبرياؤه واستعلاؤه – أو أبت عليه طاووسيته[1] – إلا أن ينكر فيما يجب التسليم له فورا ، وأداه كبرياؤه واستعلاؤه إلى رفض ما يجب التسليم له فور صدوره ، وهذا الكبرياء هو فى مواجهة الأمر الإلهى معارضاً له .

واستخدم إبليس عقله فى إرضاء كبريائه – وقد أعماه الكبرياء – فنسى أن الله تعالى يأمر بالسجود لمن خلقه وسواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأنه سبحانه لم يأمر بالسجود للطين ، وما كانت المادة قط موضع تقدير واعتبار فى هذه المجالات .

وأضله فكره فعقد موازنة بين مظهرين من مظاهر المادة : هما الطين والنار

(١) نعنى بطاووسيته : خيلاؤه وغروره وافتخاره بنفسه .

واعتقد أن النار خير من الطين ، وهما – كلاهما – مادة لا شأن لها فى مجال التفضيل لم يسجد إبليس .

أما المؤمنون الصادقون — الملائكة — فقد سجدوا . .

من هذا نتبين : أن مجرد المعرفة لا يكفى فى إيجاد الإيمان ، أو فى تحقيقه . فقد يعرف الإنسان ، ولكنه لا يكون بهذه المعرفة مؤمناً .

لقد كان إبليس يعلم أن الله سبحانه وتعالى موجود ، وأنه واحد ، وأن أمره يجب أن يطاع ، لأنه الحق ، ولكن إبليس — الذى يعلم ذلك — لم تعصمه معرفته عن أن يكون رجيما ، وعن أن يكون ملعونا ، وعن أن يكون مطرودا من رحمة الله .

وإبليس قد علم — فيما بعد — علما لا شك فيه صحة رسالة الرسل على التوالى .

لقد علم أن سيدنا نوحا نبى ورسول ، وأن سيدنا إبراهيم نبى ورسول ، وأن سيدنا محمدا رسول وخاتم الرسل ، ونبى وخاتم النبيين ، ومع ذلك كله : فإنه ليس بمؤمن .

فالمعرفة إذن ليست هى الإيمان .

***

نقول ذلك حينما نتكلم عن أصحاب اليمين ، إنهم :

١ — لا يستكبرون بالنسبة لأمر الله .

٢ — ولا يستخدمون عقولهم — أو بتعبير أدق — أهواءهم التى تبدو لهم فى مظهر العقول فيما يتعلق بمعارضة الأمر الإلهى .

٣ — ولا تكفيهم المعرفة المجردة ليكونوا مؤمنين .

إن الإيمان عهد بين المؤمن وربه . ولقد اشترى الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بثمن هو الجنة ، وهو رضاء الله .

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

ما هى صفات المؤمنين ؟

إن الله سبحانه وتعالى حـدد صفاتهم بقوله عقب الآية السابقة بأنهم « التائبون » . . وهذا الوصف هو أول وصف وصفهم به ، وهو وصف يسقط بعض الذين يدعون الإيمان ثم هم يسيرون فى الحياة لا يبالون بالتوبة مما يرتكبون من معاص وآثام ، وإذا تذكَّروا التـوبة يقولون : « فى الزمن متسع ، وفى العمر بقية » .

والوصف الثانى للمؤمنين هو : « العابدون » .

وهذا الوصف يُسقط « أيضاً » طائفة من زمرة المؤمنين أهل اليمين ، ونعنى: هؤلاء الذين لا يقومون بأداء حق الله فى العبادة حسبما أمر سبحانه .

أما الوصف الثالث للمؤمنين فهو : « الحامدون » .

وكثير من الناس لا تصادفه إلا ضيق الصدر ، متألما من الحياة فى كل نواحيها ، إذا أنعم الله عليه لم يشكر ، وإذا غمسه الله فى محيط من نعمه لم تتحرك شفتاه بالحمد ، وإذا ضيق الله عليه ضج بالشكوى .

فحياته — كلها — تتنافى مع الحمد والحمد من صفات المؤمنين السامية . .

إنهم يحمدون الله فى السراء والضراء ، إنهم يحمدونه على كل حال ، والحمد هو آخر دعاء أهل الجنة ، إذ آخر دعواهم :

(أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وهذا الوصف يسقط طائفة ثالثة من زمرة المؤمنين أهل اليمين .

والوصف الرابع للمؤمنين هو « السائحون » .

أى المسافرون إلى الله فى كل لحظة ، وفى كل آن ، المسافرون إليه بأنفسهم ، وبخطواتهم ، وفى يقظتهم ، وفى نومهم ، إنهم مسافرون إليه بحركتهم وبسكونهم ، إنهم مسافرون إليه بصلاتهم وبصومهم وبنسكهم ، بحياتهم كلها بل وبمماتهم أيضاً .

وهذه الصفة تسقط طائفة أخرى .

والوصف الخامس للمؤمنين : « الراكعون الساجدون » .

الراكعون الساجدون لله فى أوامره يأتونها حسبما أحب ، على قدر استطاعتهم والراكعون الساجدون لله فى نواهيه يجتنبونها نافرين منها .

وهذا الوصف يسقط طائفة .

والوصف السادس للمؤمنين أهل اليمين هو : « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر » وهو وصف يسقط طائفة سادسة .

والوصف السابع هو : الحافظون لحدود الله .

وهو وصف عام شامل ، يحيط بكل ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن من أوصاف ، ويتضمن الزوايا اليسيرة التى لم تدخل فى نطاق الأوصاف السابقة .

وحينما نزن المؤمنين بميزان الإيمان فى هذه الآية فسنجد فى النهاية أن هذا الميزان استبقى ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، عملوا فى دوائر هذه الأوصاف ، واستقر أمرهم فى ربوعها .

من بين هؤلاء : طائفة استجابت مع كل ذلك لستجابة تامة إلى هذه الأوصاف وحققتها ووصلت فيها إلى درجة :

(فَفِرُّوا إِلَى اللهِ) :

وهذه الكلمة القرآنية الكريمة تبين لنا المدى المطلوب منا . .

ففروا إلى الله : من الكفر إلى الإيمان - إنها المرحلة الأساسية .

ففروا إلى الله : من المعاصى إلى الطاعات بعد أن آمنتم .

ففروا إلى الله : من الطاعات - مع الطاعات - إلى القربات .

ففروا إلى الله : من القربات - مع القربات - إلى الله سبحانه وتعالى .

وجملة ففروا إلى الله : تسير مع الإنسان فى كل لحظة ، أى : ففروا إلى الله من حالة إلى حالة أخرى تكونون فيها أقرب إلى الله سبحانه وتعالى : فإذا ما اتجه الإنسان هذا الاتجاه كان من المقربين .

* * *

ما هى إذن خصائص المقربين ؟ إن الأوصاف السابقة بأ كلها من خصائص المقربين أيضا يؤدونها على الوجه الأكمل بقدر الاستطاعة وخصوصا فيما يتعلق بصفة السياحة إلى الله أو السفر الذى لا ينقطع وهدفه : الله . إن المقربين من أصحاب اليمين ، وهؤلاء وأولئك يشتركون فى صفات المؤمنين التى ذكرها القرآن والفرق إنما هو فى زيادة الحرص وكمال الاستغراق . وسنزيد الأمر وضوحا :

إن الآية الأولى التى ابتدأ بها الوحى الكريم هى :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) :

إن القراءة مرادة فى هذه الآية من غير ما شك

ولكن : ليس المراد بها القراءة فحسب . . والقراءة فيها مجرد رمز لما يجب أن يكون عليه المسلم فى مختلف أعماله فى الحياة .

إن جميع الأعمال يجب أن تكون « باسم ربك » .

فالقراءة مثلا : لا تكون باسم المنفعة الشخصية ، أو المتعة الفكرية ، أو لذة الخيال ، وإنما يتجه بها إلى الله سبحانه وتعالى .

إنها حددت الاتجاه .

باسم من ؟

باسم ربك : باسم المربى ، فى إطار تربية المربى .

باسم ربك : باسم الدستور الذى ستربى به من ربك ، ربك الذى سيربيك بدستوره ، ودستوره هو آياته ، هو مبادؤه الموحاة المنزلة من السماء .

إنها قفزة ضخمة من الشرك إلى . . اقرأ باسم ربك ، إنها ليست تدرجا : من الشرك إلى إثبات وجود الله ، وإنما هى وثبة هائلة من الشرك إلى . . . . اقرأ باسم ربك الذى خلق .

وبدأت التربية الإلهية بالغاية مباشرة ولم تبدأ بالوسائل ، لقد أوقفتنا مباشرة مع الهدف .

والهدف : هو أن يكون المسلم - فى جميع أموره - لله سبحانه وتعالى - وقد فُصّل هذا - بعض التفصيل - فيما بعد - حينما قال الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

« قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ، وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

فى الصلاة والنسك ، والحياة والموت ، يجب أن نكون لله بكليتنا والإسلام إذن : أن تسلم القيادة لله ، وأن تسلم نفسك له سبحانه . فإذا ما أسلمت نفسك له إسلاما كليا ، فقد وضعت نفسك فى « المركز » مع المقربين .

هؤلاء المقربون : هم أولوا العلم .

وأولوا العلم فى القرآن لها معنى خاص .

فليس المراد بأولى العلم من درسوا الكتاب « الفلانى » . أو أخذوا الشهادة « الفلانية » ، وإنما هم الذين شهدوا التوحيد .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ ، وَأُولُوا الْعِلْمِ » .

إن الله سبحانه وتعالى لم يَقْرِنْ به وبملائكته فى شهادة التوحيد إلا أولى العلم .

وشهادة التوحيد : هى أسمى منزلة وصل إليها المقربون ، وهى المنزلة التى تهدف إليها جميع تكاليف الدين الإسلامى ، وجميع مبادئه وقواعده .

إن جميع مبادىء الإسلام وقواعده تريد أن تنتهى بالمسلم إلى : « شهادة أن لا إله إلا الله » .

وشهادة « أن لا إله إلا الله » ليس معناها القول ، أو الإقرار ، أو الاعتراف أو الاعتقاد — ولكن — معناها هو المعنى الصادق للشهادة .

وللشهادة معنى محدد ، ولا يشهد الإنسانُ إلا إذا كان قد شاهد .

فإذا ما وصل الإنسان إلى الشهادة كان : من أولى العلم ، وكان : من المقربين .

إن : من يؤمن بأن لا إله إلا الله ، ليس كمن يشهد أن لا إله إلا الله ، إن من يؤمن بأن لا إله إلا الله من أصحاب اليمين حينما تتوافر فيه صفات أصحاب اليمين .

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ، مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ، فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ، وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ، إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ، عُرُبًا أَتْرَابًا ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) .

وأما من « يشهد » أن « لا إله إلا الله » فإنه من المقربين :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، وَحُورٌ عِينٌ ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا) .

إن جميع التكاليف الدينية — سواء أكانت أوامر أو نواهى — تتجه بالمسلم إلى شهادة التوحيد .

ولنأخذ مثلا الأذان :

فقد روى زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأخرجه ابن مردويه وأبو نعيم من طريق محمد بن الحنفيه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شاهد — فيما شاهد — ليلة الإسراء والمعراج ملكا يخرج من وراء حجاب ويقول :

الله أكبر ، الله أكبر ، فنودى من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا أكبر ، فقال الملك : أشهد أن لا إله إلا الله ، فنودى من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا الله لا إله إلا أنا ، فقال الملك : أشهد أن محمداً رسول الله ، فنودى من وراء الحجاب : صدق عبدى أنا أرسلت محمداً رسولا ، فقال الملك : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، فنودى من وراء الحجاب : صدق عبدى ، ودعا إلى عبادى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيومئذ أكمل الله لى الشرف على النبيين والمرسلين ، والأولين والآخرين » .

وما من شك فى أن كتب السنة ، وكتب السيرة ، استفاضت فى كيفية ابتداء المسلمين فى التفكير فى الإعلام بالصلاة ، وأنهم تداولوا الأمر فيما بينهم ، واستقر الرأى على الأذان فى صورته الراهنة ، وذلك عن طريق رؤيا رآها صحابى جليل ، وأيده فيها برؤيا أخرى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعن بقية الصحابة أجمعين ، ويكون الأذان إذن قد بشر ببعضه ـ لا على أنه أذان ـ فى الملأ الأعلى قبل إلهامه عن طريق الرؤى ـ فى عالم الملك ـ .

ونحب أن نتحدث عن الأذان من زاوية أخرى .

إنه النداء الذى يتكرر كل يوم خمس مرات من فوق المآذن ويتكرر خمس مرات أيضا فى الإقامة .

ويبدأ الأذان بـ « الله أكبر » .

إنه سبحانه لا يقارن بشىء حتى يقال « إنه أكبر منه » .

إنه سبحانه « كبير » وإنه « أكبر » من غير مقارنة .

ولقد سئل أبو يزيد : هل معنى الله أكبر أنه أكبر من كل ما سواه ؟ فقال : ليس معه شىء فيكون أكبر منه .

فقيل له : فما معناه ؟

قال : أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس . .

وتتكرر صيغة « الله أكبر » فى مبدإ الأذان أربع مرات .

وهذا العدد المعين لم يَرِد اعتباطاً ، ولكنه عند التأمل يتبين الإنسان حكمة العدد وحكمة التكرار .

إن الله سبحانه وتعالى يقول :

« وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ » .

فإذا تشبع الكيان الإنسانى بـ « الله أكبر » ترك ظاهر الإثم متناسقا مع « الله أكبر » الأولى ، وترك باطن الإثم متناسقا مع « الله أكبر » الثانية .

والله سبحانه وتعالى يقول :

« أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » .

إن الإنسان يَسْبَح فى نعم الله ، إنها تغمره مسرعة إليه من خارج ، وهى تغمره متحدة به من باطن ، إن وجوده كله وكيانه بأكمله نعمة من الله سبحانه .

والله أكبر فى المرة الثالثة كأنها توجيه إلى الشكر على النعم الظاهرة ، ولكنها من قبل ذلك ومن بعده توجيه إلى عدم الوقوف عند النعم كفاية ، بل عند المنعم : إن الله أكبر .

والله أكبر فى المرة الرابعة توجيه للشكر على النعم الباطنة ، ولكنها من قبل ذلك ومن بعده توجيه إلى أنها ليست غاية ، بل الغاية الله « وأن إلى ربك المنتهى » : إن الله أكبر .

فإذا ما ترك الإنسان ظاهر الإثم وباطنه ، فإنه يكون قد تطهرَ تطهراً كاملا ، وإذا انغمس الإنسان فى الشكر لله على النعم الظاهرة والباطنة ، وهى من الكثرة بحيث لا تعد :

« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا » .

إذا تطهر الإنسان ، وأدى حق الله فى الشكر ، والله يقول :

« وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ » .

إذا ما فعل ذلك ، وكان من هذه القلة الشاكرة ، فإنه يكون قد خلص لله ، فإذا ما استمر على ذلك ، واتجه إلى الله بكلِّ كيانه ، وطرق الباب باستمرار ، والتجأ إلى الله لا يفتر ، وناجاه فى سره وعلنه ، فإنه « يشهد أن لا إله إلا الله » .

وإذا ما شهد « أن لا إله إلا الله » وكانت وسيلته إلى ذلك الكتاب والسنة ، فإنه يشهد أن محمداً رسول الله . .

فإذا شهد فقد أصبح من أولى العلم :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ ، وَأُولُوا الْعِلْمِ » .

وإذا أصبح من أولى العلم ، فإن القرآن يكون آياتٍ بينات فى صدره ، يقول سبحانه :

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » .

والذين أوتوا العلم هنا ليسوا هم اليهود والنصارى ، كلا . .

فاليهود والنصارى ضلوا وانحرفوا ، وبدلوا دينهم ، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا .

فأولوا العلم هم الذين شهدوا أن لا إله إلا الله ، إنهم الذين شهدوا التوحيد ، ومن شهد التوحيد فقد شهد مع التوحيد صفات أخرى :

إن من يشهد التوحيد يشهد — مُتَضَمَّناً فى التوحيد — العلمَ الشامل ، العدالةَ المطلقة ، الرحمة العامة ، الكرمَ الإلهى . . ومن شهد ذلك وعرفه فهو فى قمة أولى العلم .

فإذا ما شهدت التوحيد وشهدت أن محمداً رسول الله ، وإذا ما تلوت القرآن فكان آيات بينات فى صدرك ، فاستدم ذلك :

بماذا ؟ بالصلاة .

« حى على الصلاة » .

فالصلاة إنما هى عقد الصلة المستمرة بين العبد وربه .

فإذا ما عقدت هذه الصلة المستمرة فقد أفلحت :

« حى على الفلاح » .

الله أكبر : انتفت الدنيا . .

الله أكبر : انتفت الآخرة . .

وبقى رب الآخرة .

« وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

ما هى نهاية الأذان :

لا إله إلا الله . . . وصلنا إلى محيط الإطلاق .

لا إله إلا الله : شهدت أم لم تشهد .

فى السماء : لا إله إلا الله .

فى الأرض : لا إله إلا الله .

فى البر : لا إله إلا الله .

فى البحر : لا إله إلا الله .

وجد العالم أو انتفى : لا إله إلا الله ، إننا فى محيط الإطلاق .

لا إله إلا الله : دُون قيود أو حدود أو سدود .

لا إله إلا الله : من قبل الأزمنة والأمكنة ، وفى أثنائها ، ومن بعدها .

لا إله إلا الله : بإطلاق مطلق . . . تلك هى نهاية الأذان .

وبعد الأذان : الصلاة .

توجيه لعزل الإنسان عن العالم المـادى بما فيه ، وبمن فيه .

إنها توجيه لمحاولة متسامية لعزل الإنسان دقائق تعد على الأصابع فى عدة فترات من اليوم – من كل يوم – عن الدنيا ومشاغلها ، عن السيئات ، عن التصرفات والأفعال الباطلة ، عن كل نزعة وهوى . . . ليتجه الإنسان فيها إلى الله بكليته .

إنها توجيه إلى أن يتجرد الإنسان إلى ربه . .

ومن هنا – كانت الصلاة فى أعراف العارفين معراج المؤمن إلى الله –

يقول الإمام القشيرى :

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق – رضى الله عنه – يقول :

إن نبينا – صلى الله عليه وسلم – أتى للأمة بالمعراج على التحقيق ، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج .

وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاث منازل .

من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى ، فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل :

القيام ، ثم الركوع ، ثم السجود ، وهو نهاية القربة ، قال تعالى :

« واسجد واقترب » اهـ[1] .

أى اقترب من الله بسجودك .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن السجود :

« أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد » ،

وللسجود فى الجو الإسلامى أهمية كبرى :

إنه يدخل الإنسان الجنة . . . يروى الإمام مسلم – رضى الله عنه – فى صحيحه : عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى – خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم – ومن أهل الصفة – رضى الله عنه – قال :

كنت أبيت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال سلنى . . . فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أوغير ذلك ؟ قلت : هو ذاك . . .

قال : أعنى على نفسك بكثرة السجود .

فالسجود – إذن – مما يعين على ترويض النفس ، لتتزكى ، وهو بذلك من الوسائل التى توصل إلى الجنة . .

---

(١) العلق آية : ١٩ .

وفى هذا المعنى ، يروى الإمام مسلم أيضاً ، عن أبى عبد الرحمن : ثوبان — مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقول :

« عليك بكثرة السجود ، فإنك لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » .

والسجود الذى يريده رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو — مع هذه الحركة — : المعنى العميق فى النفس الذى يتمثل فيه جلال الله وعظمته ، ورحمته ووده ، ويتمثل فيه الخضوع لهذا الجلال وهذه العظمة والانقياد المطلق لرحمة الله التى تتمثل فى الرسالة الإسلامية . أوامرها ونواهيها :

أما الحديث عن الزكاة والصدقة والإنفاق فى سبيل الله فإنه — فى القرآن — كثير كثرة تدعو إلى تدبر المؤمنين وتثير فى أنفسهم ما أحبه الله منهم ، وهو أن يتقوا الشح :

« ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

والزكاة توجيه لأن ينفصل الإنسان عن المادة ، وأن يؤثر الله على المال . .

إن المادة محببة إلى النفس ، يتنازع الناس عليها طيلة حياتهم ، ويكدحون من أجل جمعها وتكديسها سنوات وسنوات ، وذلك أنها وسيلة إلى المتعة واللذة والترف والتعالى والفخر . .

ولمكانتها المتأصلة فى النفس الإنسانية تحدث القرآن كثيراً وبأساليب شتى عن الزكاة والصدقة ، موجهاً الإنسان إلى التخلى عن المادة فى سبيل الله ، إلى التخلى عنها وهو يملكها ، إلى التخلى عنها وهى من نفسه بالمكان المحبب ، يتخلى عنها من أجل القرب من الله . .

وتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن الصدقة تطيل فى العمر[١] ، وعن أنها تشفى من المرض[٢] ، وعن أنها تسد سبعين باباً من أبواب الشر[٣] ، وعن أنها تطفىء غضب الرب[٤] ، وعن أنها . . . .

كل ذلك لأن فطرة الإنسان مجبولة على الشح ، ومن يوق شح نفسه فهو فى الدرجات العليا التى أعدها الله لعباده المخلصين — ولقد سماها الله زكاة : إنها تزكية المال ، وهى ليست تزكية للمال فحسب ، وإنما هى تزكية للروح أيضاً .

أما الحديث عن الصيام :

فإن الله سبحانه وتعالى جمعه فى موضع واحد من سورة البقرة ، ولم يكثر فى القرآن الحديث عن الصيام .

بيد أن مما له مغزاه العميق أن آيات الصيام تخللتها آية لا تتحدث عن الصيام وهذه الآية هى :

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » .

إن هذه الآية فصلت بين آيات الصيام . .

والإشارة فى ذلك هى أنه إذا تجرد الصيام لله ، وإذا اتجه الإنسان إلى الله حقيقة بصيامه ، فصام إيماناً واحتساباً فإنه يكون قريباً من الله ، إذا دعاه أجابه ، وإذا سأله أعطاه .

---

(١) رواه الطبرانى بلفظ « تزيد فى العمر » .
(٢) أبو الشيخ فى الثواب عن أبى أمامة والديلمى فى مسند الفردوس .
(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بلفظ « الصدقة تسد سبعين باباً من السوء » .
(٤) رواه الترمذى وحسنه عن أنس .

وبعد ذلك يأتى التجريد الكلى الفعلى : أعنى الحج ..

إن الحاج يتجرد من الملابس المخيطة ليلبس الملابس التى لم تلابس إثماً ، إنها ملابس من النوع « الخام » علامة البراءة ، ويغتسل غسل الإحرام ، ويتوب توبة خالصة نصوحا ، ويلبى : أى يستجيب لله سبحانه استجابة كاملة :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

إنه الإحرام ، أى الدخول فى الرحاب الإلهى والاقتصار – منذ الإحرام – على أن يكون لله ..

وفى أثناء الحج تكون الصلاة والصدقة مهيِّئة لأن تصبح التلبية حالا ثابتاً ، ويقيناً واضحاً ..

وشعائر الحج نفسها إنما وجدت لتتجه بالإنسان إلى تحقيق التلبية ، بحيث تكون حالا لا مجرد قول ..

إن الطواف حول البيت سبع مرات كلما استطاع ذلك إنما هو من أجل أن يحظى بنظرة من رب البيت .

إنه يطوف بالبيت وليس البيت مقصده ، وإنما مقصده رب البيت .

إنه يطوف : لعل الحجب تتكشف .. لعل الأستار ترتفع .. لعل القلب يصفو .. لعل الأقنعة تتساقط .. لعل رب البيت يتجلى .. لعل فيوضاته تنال الطائف .. لعل الله يرضى .. لعله يأذن بالدخول .

صلاة وصدقة ومناسك .. كل هذا من أجل أن ينتهى إلى غاية واحدة هى : لا إله إلا الله ... فى محيط الإطلاق .

هى التوحيد ...

ما بدء هذا الأمر ؟ إنه : معرفته .

ما نهايته ؟ إنها : توحيده .

وتتكاتف الشعائر فى الحج – الطواف ، والسعى ، والوقوف ، والرمى ، ثم الطواف من جديد – لتؤدى إلى :

« أشهد أن لا إله إلا الله ..

فإذا أدت إلى « أشهد .. » فقد أسلم الحاج إسلاما حقيقياً أى أسلم وجهه لله ، أو استسلم لله ، أو استرسل مع الله على ما يحب الله ..

وإذا وصل إلى ذلك فإننا نحتفل به احتفالا عالميا هو « العيد » ..

والعيد : إنما هو احتفال إسلامى عالمى بمن وصل بهم الحج إلى « التوحيد » أو إلى : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

وكما أن عيد الفطر هو احتفال بالمقربين الذين وصلوا إلى ليلة القدر والشرف والرفعة عن طريق الصوم ، فإن عيد الأضحى هو احتفال بالسابقين الذين وصلوا إلى التوحيد عن طريق الحج .

وكما أن من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً دخل الجنة ، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً فرح بلقاء ربه ؛ فإن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

والمعنى فى كل ذلك : أن من انفعل حقيقة بالصوم ، فكان صومه إيماناً واحتساباً ؛ ومن انفعل صادقاً بالحج ، فكان حجه مبروراً ، فإنه يسير فى طريق

« الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » أو هو يسير فى طريق التوحيد بخطى موفقة .

وإذا كنا قد تحدثنا عن شىء يسير جداً فى تفسير بعض الشعائر ، فإنه يحسن بنا الآن أن نتحدث عن كلمات هى حقائق واقعية ، وهى مع ذلك تشير إلى معان فى غاية السمو – ونبدأ بـ :

١ – تحطيم الأصنام :

لقد حطمها سيدنا إبراهيم عليه السلام

وحطمها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وتحطيم الأصنام حادثة واقعية مادية ، توجهنا إلى تحطيم الأصنام فى النفس :

إنه لا بد للسالك إلى الله أن يحطم كل صنم يقف عقبة بينه وبين ربه : صنم الشهوة ، وصنم النزغات ، وصنم الأهواء ، وصنم الغضب لغير الله ، وصنم المداهنة والتملق والرياء والعبودية لغير الله .

٢ – نسف العجل :

لقد جمع بنو إسرائيل الذهب ، وصنعوا منه عجلا عبدوه ، ولم تجد فيهم نصائح هارون عليه السلام :

يا قوم « إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ، فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى ، قَالُوا : لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ »[1] .

وجاء موسى ، فأعلن .

(١) طه آية ٩٠ و ٩١ .

« لَنُحَرِّقَنَّهُ ، ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا ، إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ »[1] .

لقد نسف موسى عليه السلام العجل الذهبى ، الذى عبده اليهود من دون الله . .

لقد نسفه نسفاً دون تردد ، ودون تفكير فى قيمته أو فى مادته . . نسفه لأنه حال دون عبادة الله الذى لا إله غيره . .

إنه نسف ما حال بين قومه وبين التوحيد ، وبين بهذا أن كل ما يحول بين الإنسان وبين التوحيد يجب نسفه حتى تبقى الحقيقة متألقة وضاءة :

« إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ » .

٣ – خلع النعلين :

إن الإنسان حينما يرغب فى دخول الوادى المقدس ، حينما يحب أن يكون فى الرحاب الإلهى فعليه بخلع النعلين :

« اخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ »[2] .

وكما أن خلع النعلين حقيقة واقعية فيما يتعلق بالنعلين الماديين ، فإنه حقيقة معنوية :

اخلع الأدنى ، وكلما خلع الأدنى فإنه يكون هناك « أدنى » آخر لا بد من خلعه ، وهكذا ، فهو فى ترق مستمر . . اخلع النفس والشيطان . . اخلع الهوى والنزغات . . . اخلع الدنيا والآخرة ، وكن مع رب الآخرة . . .

(١) طه : آية ٩٧ ، ٩٨ . (٢) طه : آية ١٢ .

اخلع كل ما يحول بينك وبين دخول الوادى المقدس ، اخلع كل ما يحول بينك وبين مرضاة ربك ، وبينك وبين فيوضاته ، وبينك وبين تجلياته ، لا تجعل بينك وبين الله حجاب من مال ، أو جاه ، أو هوى ، أو شهوة ، تجرد دائماً من الأدنى وكن فى معراج إلى الله دائم . . .

٤ — الهجرة :

لقد سأل الصحابى الجليل عمرو بن عنبسة – رضى الله عنه – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلا : أى الإيمان أفضل ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الهجرة .

فقال الصحابى : وما الهجرة ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن تهجر السوء[1] .

وعن أم أنس[2] – رضى الله عنها – فيما رواه الطبرانى بإسناد جيد – أنها قالت : يا رسول الله أوصنى !

فكان مما أوصاها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال لها :

« اهجرى المعاصى ، فإنها أفضل الهجرة » . . .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

وتبدأ الهجرة إلى الله بالنية . . .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، ورواته ثقات .

(٢) قال الطبرانى : ليست هذه أم أنس بن مالك .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول فيما رواه المحدثون بسندهم عن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والمطلوب : هو أن نهاجر إلى الله فى كل لحظة ، نهاجر إليه بالنية ، ونهاجر إليه بالأعمال :

« إنى ذاهب إلى ربى »[1] .

« ففروا إلى الله »[2] .

« إنى مهاجر إلى ربى »[3] .

والشعار الإسلامى : « من لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان ، ومن استوى يوماه فهو مغبون . . .

٥ — الباقيات الصالحات :

أما الباقيات الصالحات فإنها :

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . . .

---

(١) الصافات : آية ٩٩ (٢) الذاريات : آية ٥٠

(٣) العنكبوت : آية ٢٦

هذه الباقيات الصالحات إذا تحقق الإنسان بها حالا عن طريق تدبرها وتكرارها واتخاذها شعاراً . . فإنها تنتهى به إلى التوحيد الصادق . .

والتوحيد الصادق هو :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . .

ونعود فنقول عن تعريف التصوف :

بدؤه معرفته ، ونهايته توحيده . .

أو نقول مع الكتانى – أحد أعلام التصوف – إنه :

صفاء ، ومشاهدة . .

والصوفية إذن يحاولون ما استطاعوا أن يحققوا :

« أشهد أن لا إله إلا الله » .

يحققوها قولا ، ويحققوها عقيدة ، ويحققوها حالا .

* * *

وللصوفية أوصاف :

إن قول الله سبحانه وتعالى :

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا »[1] .

تملأ عليهم أجواءهم . .

لقد تمت كلمة ربك صدقاً فى العقيدة . .

---

(١) الأنعام : آية ١١٥ .

وتمت كلمة ربك عدلا فى التشريع . .

ولا مبدل لكلمة ربك عقيدة لأنها صادقة . .

ولا مبدل لكلمة ربك تشريعاً لأنها عادلة . .

وهم إذن يصدرون عن « كلمة رَبِّك » فى عقيدتهم . .

ويصدرون عن « كلمة ربك » فى معاملاتهم . .

فالعقيدة صدق ، والشريعة عدل ، ولا تغيير فيهما .

ولا يدخل – إذن – فى عرفهم ما يسمى بالتطور فى الدين أو التطور فى الشريعة . .

والتطور فى الدين أو فى الشريعة فى عرفهم إلحاد فى كلمة الله التى تمت صدقاً وعدلا ، وذلك لأن التطور تغيير ، والتغيير لا يتأتى فى كلمة الله التى تمت صدقاً وعدلا . .

إنهم لا يتبعون مذهباً اقتصاديا من صنع البشر ، ولا يتبعون مذهباً عقديا من صنع البشر ، ولا يتبعون مذهباً أخلاقيا من صنع البشر . .

وهم لا يخترعون مذهباً ، ولا يحاولون ابتداع فكرة ، وذلك أنهم يعلمون أن كل ما هو بشرى من الآراء فى العقيدة والأخلاق والتشريع إنما مآله التغيير والتبديل والتطور ، وهو باستمرار عرضة للإنهيار فى أية لحظة . .

ولقد انهارت المذاهب البشرية منذ أن وجدت هذه المذاهب . . انهارت الواحد تلو الآخر . . انهارت فى غير هوادة ورفق ، وستستمر تنهار ، وكلما جاءت أمة بدلت ما كانت عليه سابقتها . .

إن طريقتهم الاتباع :

« لقدْ كانَ لَكُمْ فى رسولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُو اللهَ وَاليوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وتأمل معى قول أبى يزيد البسطامى :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » . . .

وهذا الذى قاله أبو يزيد هو شعار الصوفية . .

وللإمام الجنيد — فى هذا — كلمات تعبر عن رأى الصوفية . . منها :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة . .

« مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » . .

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] اهـ .

. . وهذا النهج : من اتخاذ الشريعة أساساً ورائداً هو نهج التصوف الصادق . . .

---

(١) انظر الرسالة القشيرية .

إن التكاليف الدينية تتكاتف للوصول بالمسلم إلى درجة المقربين ، إلى التوحيد ، إلى أشهد أن لا إله إلا الله . .

والصوفى ناظراً ببصره وببصيرته إلى هذه الغاية ، وإلى الأسس الإسلامية التى تؤدى إليها ، يعمل جاهداً للوصول إلى الغاية السامية التى أحبها الله للمسلم . .

وإن من رعاية الله لمن دخل فى الإسلام أن الله سبحانه يساعده فى الوصول إلى هذه الغاية . .

وانظر إلى رحمة الله ، ورأفته بالمسلمين ، التى بلغت حداً يخجل الإنسان معه من ربه أن يسير فى طريق معصيته . .

إنه سبحانه وتعالى يقول :

« هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

إن الله سبحانه وتعالى يصلى علينا ليخرجنا من الظلمات إلى النور . .

وقد أمر الملائكة أن تصلى علينا لنخرج من الظلمات إلى النور . .

وانظر إلى هذا الدعاء الكريم من الملائكة الأطهار البررة :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ

إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم »[1] .

التكاليف الشرعية من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ، ونوافل .

وصلاةُ الله سبحانه ، وصلاةُ الملائكة ، ودعاؤهم للمؤمنين .

كل ذلك رعاية من الله بالمسلم لإخراجه من الظلمات إلى النور ، من المعصية إلى الطاعه ، إلى القربات ، إلى . . . « أشهد » . .

ومن المعروف أن من الناس المؤمن الذى لا يعدو إيمانه التصديق ، مجرد التصديق . .

ومنهم المؤمن المطيع . .

ومنهم المؤمن المطيع الذى يتجه إلى الله قائما بالله فيحقق :

« إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ » .

إن من الناس المقتصد ، ومن الناس صاحب اليمين ، ومن الناس المقرّب . .

إن منهم من يخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ومنهم السابق بالخيرات . .

وهؤلاء جميعا يتفاوتون فى درجاتهم التى هم فيها ، والقرب من الله سبحانه لا نهاية له . .

والهدف الأخير للمسلم أن يصل إلى الشهادة ، فيكون من أولى العلم ، ومن المقربين ، ومن السابقين . . .

---

(١) غافر : آية ٧ – ٩ .

ونختم هذا بكلمات تعبر عن سلوك الصوفية :

يقول الإمام الغزالى :

« والقدر الذى أذكره – لِيُنْتَفَع به – أنى علمت يقينا أن الصوفية : هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . . وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق . . بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم : مقتبسة من نور مشكاة النبوة . . وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . .

وبالجملة : فماذا يقول القائلون فى طريقة : طهارتها – وهى أول شروطها – تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . .

ومفتاحها – الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة – استغراق القلب بالكلية بذكر الله . .

وآخرها : الفناء بالكلية فى الله ؟ . .

وهذا آخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . . وهى على التحقيق : أول الطريقة ، وما قبل ذلك ، كالدهليز للسالك إليه . .

ومن أول الطريقة تبتدىء المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم

يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد ..

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » .

ويقول ذو النون المصرى :

« رأيت امرأة ببعض سواحل الشام ، فقلت :
من أين أقبلت رحمك الله ؟ قالت :
من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .. قلت :
وأين تريدين ؟ قالت :
إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. قلت :
صفيهم لى ... فأنشأت تقول :

قوم همومهم بالله قد علقت ... فما لهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم ... يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما أن تنازعهم دنيا ولا نشب ... من المطاعم واللذات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ... ولا لرَوْح سرور حل فى بلد
إلا مسارعة فى إثر منزلة ... قد قارب الخطو فيها باعد الأمد
فهم رهائن غدران وأودية ... وفى الشوامخ تلقاهم مع العدد

وبعد :

فيقول صاحب كتاب « عوارف المعارف » :

« والصوفى : هو المقرب » .. ويقول :

« ولا مشاحة فى الألفاظ ، فليعلم أنا نعنى بالصوفية « المقربين » ..

فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى « الطبقات » وغير ذلك من الكتب ، كلهم كانوا فى طريق « المقربين » ، وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلع إلى مقام المقربين ، من جملة الأبرار ، فهو متصوف مالم يتحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفيا .

ومن عداهما ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو « متشبه » . .

« وفوق كل ذى علم عليم » .

المقدمة الثالثة

فى

نماذج من أعلام الصوفية

إبراهيم بن أدهم

١٦١ هـ

من سرير الملك إلى حراسة البساتين

إن حياة إبراهيم بن أدهم تجربة من أعمق التجارب النفسية ، يجب أن تلتفت إليها الأنظار ، وأن تتدبرها الأفهام فى عصرنا الراهن ففيها المرشد الهادى لهؤلاء الذين يجرون وراء السعادة فلا يجنون من سعيهم إلا السراب .

إن إبراهيم بن أدهم وجد السعادة وشعر بها ، وهو يصف تجربته لمن يعنيهم أن يسيروا فى حياتهم دون قلق ودون حيرة .

إنه يصفها لمن يعنيهم أن يعيشوا سعداء

لقد ولد إبراهيم بن أدهم فى مدينة بلخ ، وبلخ مدينة كبيرة مشهورة من مدن خراسان ، وهى من أجمل مدن خراسان ومن أكثرها خيراً .

وقد ولد على أسِرّة الترف ، وفى جو الثراء العريض .

ولد ، وفى فمه — كما يقولون — ملعقة من الذهب ، ونشأ فى جو من الأبهة وفى نعيم من نعيم الدنيا لايحده حصر .

ولقد كانت كل رغباته مقضية ، وكانت تلبى رغباته وإن لم يطلبها ووصل إلى سن الشباب فوجد المال والثراء والجاه . . . ، . . . وقد منحته المقادير صحة قوية سليمة .

وكان لا مناص من أن يتمخض الشباب والفراغ والجدة عما يتمخض عنه عادة ، فانغمس إبراهيم فى الملذات يعب منها وينهل .

ولكن إبراهيم طموح ، وطموحه لا يمكن أن يقف عند اللذة المادية الجسمانية . وقد أخذ يتساءل : وماذا بعد ذلك ؟

فلا يجد إلا حيرة وقلقا .

وينغمس فى اللذة من جديد ، ثم يتساءل من جديد حتى أدركته عناية الله ـ

ولنسمر معه الآن فى حديث له عن نفسه ، تحدث به بعد أن مر من طريق الغواية إلى طريق الهداية ،

كان إبراهيم بن بشار خادما لإبراهيم بن أدهم ، فسأله يوما : كيف كان أوائل أمرك حتى صرت إلى ما صرت إليه ؟

ولم يرد إبراهيم بن أدهم — على عادة الصوفية — أن يتحدث عن نفسه ، فإن الصوفية يرون أن ذلك نوع من الفخر والخُيلاء لا يليق بهم ، فقال له :

غير ذلك أولى بك .

ولكن إبراهيم بن بشار كان طلعة ، وكان مشوقا إلى سماع ابتداء أمر سيده فى الطريق ، فألح فى أدب قائلا :

هو كما تقول رحمك الله : ولكن أخبرنى لعل الله أن ينفعنا به يوماً .

فقال له إبراهيم بن أدهم : ويحك ، اشتغل بالله .

فألح الخادم — فى أدب بالغ — مرة ثالثة قائلا :

يا أبا إسحاق إن رأيت ...

وتأمل إبراهيم بن أدهم قوله : « لعل الله أن ينفعنا به يوماً » .

وأثر فيه أدب الرجل وحرصه على الاستهداء بالتجربة . . . فأخذ يحدثه قائلا :

كان أبى من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسير ، وحبب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسى وكلبى معى .

فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسى ، فسمعت نداء من ورائى :

ألهذا خلقت ؟ أم . . بهذا أمرت ؟ . .

فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً ، فقلت :

لعن الله إبليس . . . ، ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك : يا إبراهيم : ليس لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . . . ، . . . فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلا أرى أحداً ، فقلت :

لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسى ، فسمعت نداء مرة ثالثة ، وكأنه خارج من مقدم السرج الذى أركب عليه :

يا إبراهيم . . ، . . ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ، فوقفت وقلت : أنبهت ، أنبهت ، جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى . .

وتخلى إبراهيم بن أدهم عما كان فيه ، واتجه إلى الله تائباً متضرعاً ، مناجياً ربه قائلا :

« اللهم إنى لم آت الذنوب جرأة عليك ، ولا استخفافاً بحقك ، ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، والمعذرة إليك » . .

وصدقت توبة ابن أدهم صدقاً تخلل كل خلية من خلايا جسمه ، وأخلص وجهه لله إخلاصاً ملك عليه جميع أقطار نفسه . .

ومنذ هذه اللحظة : زال عنه القلق والضيق والحيرة والاضطراب ، وشعر بالراحة والسكينة وطمأنينة النفس والرضا ، وأعلن ذلك قائلا :

« لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ولذة العيش وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف ، طلبوا الراحة والنعيم فأخطأوا الصراط المستقيم » . .

وقال مرة أخرى :

« طلب الملوك شيئاً ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه » .

يقصد بذلك السعادة وهدوء النفس والطمأنينة .

ومنذ أن أشرق نور الهداية فى قلب إبراهيم : كان أول همه أن يطلب الحلال من المكسب ، فاشتغل بعمل يعينه على العبادة ، وعلى سهر الليل فى الذكر والمناجاة ، وهو حراسة البساتين ، وأخذ إبراهيم ينتقل سائحاً من مكان إلى مكان ومن قطر إلى قطر ، متعبداً متأملا إبداع الله للكون ، وإتقانه لكل شىء صنعه ، لا يغفل عن التسبيح والذكر ، ولا يسأل الناس شيئاً ، لأنه لا يحتاج منهم إلى شىء ، ولكنه فى جميع جولاته كان هادياً ، ومرشداً ، وموجهاً إلى الله سبحانه .

وقد حدثت له فى سياحاته هذه — المتأملة المرشدة — بعض الحوادث نذكر منها :

أنه سافر مرة فى سفينة فهبت الرياح شديدة عاتية فأشرفت السفينة على الغرق وأيقن ركابها بالهلاك ، فرفع رأسه وقال :

« يا حى حين لا حى ، ويا حى قبل كل شىء ، ويا حى بعد كل شىء ، يا حى يا قيوم يا محسن ، يا مجمل ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك » .

فهدأت الريح ، وسارت السفينة رخاء . .

ومن كلامه ناصحاً المؤمنين :

(على أحدكم إذا أصبح وأمسى أن يقول :

« اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام ، واحفظنا بركنك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت رجاؤنا ») .

وقال :

« إنما حجبت القلوب عن الله لكونها أحبت ما أبغضه ، فمالت للدنيا وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد » .

ومات ـ رحمه الله ـ سنة إحدى وستين ومائة .

مات وقد نعم فى رضا الله بما لم ينعم به فى حياة اللذة والمتعة الحسية . . . مات وقد نعم بالسعادة ، وقال :

ما أغفل أهل الدنيا عنا . . ، . . ما فى الدنيا أنعم عيشا منا .

رحمه الله رحمة واسعة .

تجربة إبراهيم بن أدهم النفسية:

لقد بدأ إبراهيم بن أدهم حياته فى ترف من العيش ، وفى نعيم من الدنيا : فقد كان والده من المياسير ، بل كان من بيت الملك .

ونشأ إبراهيم لذلك محاطاً بكل أنواع الرعاية والعناية ، وانغمس إبراهيم فى كل ما تتيحه بيئته المترفة من ملاذ ، لقد عب منها ونهل .

وفى لحظات ، لا تعد بالشهور ولا بالأيام بل ولا بالساعات .

فى لحظات ـ تعد بالدقائق ـ انقلب إبراهيم ـ فجأة ـ من شاب مفتون بالدنيا قد تهيأ له الشباب والفراغ والثراء فركض فى ميادين المتعة ، إلى شاب يتجه بكل كيانه إلى الله سبحانه ، ويصبح ما بين طرفة عين وانتباهتها من أولياء الله ـ يقول صاحب « طبقات الصوفية » عن ذلك :

« كان من أبناء الملوك والمياسير ، خرج متصيدا ، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته ، فترك طريقته فى التزين بالدنيا ، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع ـ

كيف حدث هذا الانقلاب ؟

لقد حدّث عنه إبراهيم بن بشار خادمه كما سبق أن ذكرنا .

ومسألة تحول إبراهيم بن أدهم من حال إلى حال مسألة لها نظائرها فى التاريخ.

فها هو ذا ـ مثلا ـ سيدنا عمر رضى الله عنه ، ذاهب لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى على الإسلام ويزيله من الوجود — فيما توهم — فإذا بهداية الله تغمره فى لحظات ، فيتحول من جاهلية إلى إسلام .

وقد يظن بعض الناس : أنه تحول مفاجىء فى الظاهر والباطن ، ولكن إذا تأملنا الظروف والملابسات ، رأينا أنه تحول مفاجىء واقعياً ، ولكنه تحول سبقته عوامل لاشعورية ، وبواعث عدة ، تتفق كلها فى توجيه الإنسان وجهة الخير التى أحبها الله له .

إن المادة والملاذ والشهوات لا تنتهى بالإنسان إلى الرضا والطمأنينة والهدوء النفسى والسكينة .. كلا . وكثير من هؤلاء الذين ينغمسون فيها : كثيرا ما يكونون من أتعس خلق الله ، أرأيت إلى هاتيك الممثلات الجميلات الثريات اللواتى ينغمسن فى الشهوات والملاذ من مفرق رءوسهن إلى أخمص أقدامهن ؟

ألم تسمع أن هذه أو تلك قد انتحرت يائسة من أن تجد سكينة النفس إنهن الشقيات :

إنهن اللواتى لم يرد الله لهن حسن الخاتمة . .

ولكن من بين المنغمسات فى الملاذ ، من أراد الله بهن حسن الخاتمة ، فانتفضن انتفاضة وضعتهن فى لحظات فى مرتبة القديسات .

ولعل القارىء قد سمع عن : « مريم المجدلية » التى انتفضت هذه الانتفاضة وذهبت إلى المسيح ـ عليه السلام ـ فغسلت رجليه بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها ولم تكف عن تقبيلهما ودهنهما بالطيب .. ، .. وغفر الله خطاياها على لسان السيد المسيح عليه السلام الذى وازن بينها وبين « سمعان » فرجحت كفتها ..

وهل قرأت قصة « تاييس » التى كتبها « أناتول فرانس » فى أسلوب ساحر ، وفى تعبير عن الجوانب النفسية أدق ما يكون التعبير .

إنها اتجهت إلى الله بكل كيانها ، فتقبلها فى رحابه ، وغفر لها ماضيها الآثم ، وماتت قديسة .

إن الانتفاضات الدينية الروحية التى تنتشل الإنسان فجأة من حياة اللهو والإثم كثيرة فى مجرى التاريخ .

وما انتفاضة إبراهيم بن أدهم إلا واحدة من عشرات أو مئات ، إن الرضا الحقيقى لا يكون ثمرة الملاذ ، والسعادة ليست نتيجة اللهو والعبث ، وإن كل من منحه الله عنصر الخيرية فى طبيعته لا بد له من انتفاضة تنتشله من جو البعد عن الله إلى جو القرب منه .

هذه الانتفاضة لها مقدماتها وبواعثها وأسبابها وعواملها الكثيرة التى تكون انتباهة عابرة ، أو عدم ارتياح إلى ما هو فيه ، أو عدم اقتناع بأن حياته تمثل الحياة المثلى ، أو عدم الرضا عن آلية حياته .

ولقد كان إبراهيم بن أدهم ـ قبل توبته ـ يتجه إلى الله من حين إلى حين ـ يتجه إليه وهو فى غمرة من ملذاته ، يتجه إليه فى رجاء ويقول :

« اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك » .

هذه هى انتفاضة ابراهيم بن أدهم ، وهى انتفاضة كل من أحب الله لهم الخير والهداية .

أما الذين نضب معين النور من قلوبهم — بسبب آثامهم ومعاصيهم ، وأما الذين أحاطت بهم الخطيئة لكثرة ما اجترحوا من السيئات ، فإنهم ينتحرون فى غمرة من مقت الله ، أو يستمرون فى شرهم إلى أن تنتهى بهم الحياة .

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

الفضيل بن عياض

(م ١٨٧ هـ)

نشأ الإمام الكبير « الفضيل بن عياض » بخراسان من ناحية « مرو » فى القرن الثانى من الهجرة . . ولم تكن حياته الأولى توحى بأنه سيكون الولى الكبير الهادى المهدى . . ولكن عناية الله أدركته ، ورعاية الرحمن تجلت عليه فأنقذه الله بسرعة ، وهداه إلى صراطه المستقيم .

لقد كان الفضيل أولا يقطع الطريق ، فعشق جارية ـ على حد تعبير أصحاب الطبقات ـ فبينما هو يرتقى الجدار إليها ، إذا به يسمع هاتفاً يملأ الجو صوته ، يسمعه عن يمين ، ويسمعه عن يسار ، ويسمعه من أمام ، ويسمعه من خلف ، ويسمعه فى أجواء الجو أينما اتجه . . .

وهذا النداء كأنه فى الوقت ذاته يخرج من أعماق كيانه ، بل من كل خلية فى جسمه ، يقول :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ » .

ويتسمّر الفضيل فوق الجدار فى لحظة استغراق عميق ، ثم يفيق والدموع تملأ عينيه ، ويقول :

« لقد آن يارب » .

فى لحظات : تم الصلح بين الفضيل وبين ربه . . . ، . . وذلك مصداقاً لما يقوله السادة الصوفية :

« فى لحظة تقع المصالحة » .

والواقع : أن هذه اللحظة أو هذه اللمحة ، هى من الاستغراق بحيث تشمل الكيان الإنسانى كله : شعوراً وإحساساً ، وفكراً وروحا . .

إنها الانتفاضة الكاملة التى تهز الإنسان من أعماقه ، وينتهى منها الإنسان ، فإذا به يقف بين عهدين :

عهد مضى يرجو الله فيه المغفرة ، وعهد آت يرجو فيه التوفيق .

إنها انتفاضة الطهر ، انتفاضة التزكية ، أو هى : انتفاضة التوبة الخالصة النصوح ، التى تنتهى بأن تضع الإنسان فى مرحلة البراءة الكاملة .. والتوبة تجب ما قبلها . لقد آن يارب : قالها الفضيل فى إخلاص وعزم . . . ونزل من على الجدار تائباً منيباً مستغفراً متبتلا ضارعا . . . ثم أخذت نفسه تهدأ شيئاً فشيئاً ، وأخذ فى الدراسة المنظمة ، واتجه تلقائياً نحو الحديث ، وذلك أن الجو الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة ـ هذا القرن الذى مات الفضيل فى ربعه الأخير ـ كان كله مشبعاً بدراسة الحديث ..

تقول « كتب الطبقات » عن الفضيل :

« كان من أعاظم أئمة المحدثين ، خرّج له الجماعة إلا ابن ماجه ، وعنه أخذ الشافعى وابن المبارك رضى الله عنهما » .

وانظر إلى التعبير « من أعاظم أئمة المحدثين » .

إن كتب الطبقات لم تكتف بأن تقول عنه « من أئمة المحدثين » :

ولمنزلته العظمى هذه ، يقول عنه الذهبى :

(كان سيداً عابداً ورعاً زاهداً إماماً ربانياً عالماً فقيهاً ، وناهيك بقول ابن المبارك رضى الله عنه :

« ما بقى على ظهر الأرض أفضل منه ») اهـ .

لقد ألقى الفضيل بكل قوته فى عالم العلم ، وفى عالم العبادة . فكان عالماً عابداً يقول عنه صاحب الكواكب :

« كان إماماً ربانياً صمدانياً قانتاً زاهداً عابداً عظيم الشأن شديد الخوف دائم الفكر » .

وكلها صفات مأخوذة من سيرته « رضى الله عنه » .

ولقد تبصر الفضيل فى أمور الحياة ، وأخذ نفسه بمبادىء وشرع فى الدعوة إليها : أما أول هذه المبادىء : فإنه يتعلق بصلة الإنسان بالدنيا . .

والدنيا ـ فى العرف الصوفى ـ إنما هى الأهواء والشهوات ، وهى النزعات والنزغات وهى الانغماس فى الملذات ، وهى أن يكون الإنسان عبد نزواته . .

وكان الفضيل فى حياته الأولى منغمساً فى كل ذلك ، فلما زال الباطل عنه ، وتكشفت له الحقيقة ، رأى أن الدنيا ـ بالمعنى الذى فسرناها به ـ شر كلها ، إنه يقول :

« جعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الرغبة فى الدنيا ، وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا » .

وبدت له حياته الماضية فى سرابها الخادع ، فإذا به يقول :

« لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على ـ على أن لا أحاسب عليها ـ لتقذّرتها كما يتقذر أحدكم الجيفة » . .

وقال له رجل : كيف أصبحت ؟ وكان يثقل عليه مثل هذا السؤال ، لأن الناس عادة يسألون فيه عن الصحة البدنية ، لا عن الصحة الروحية .. فقال :

فى عافية . . فقال الرجل :

كيف حالك ؟ فقال الفضيل :

عن أي حال تسأل ؟ عن حال الدنيا أو الآخرة ؟

أما الدنيا فقد مالت بنا وذهبت كل مذهب . .

وأما الأخرى : فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفنى عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ؟ . .

وينبه الفضيل إلى أن الدنيا « ليست دار إقامة ، وإنما أهبط آدم إليها عقوبة ، ألا ترى كيف يزويها عن أحبابه ، ويُمَرِّرها عليهم ، بالجوع مرة ، ومرة بالعرى ، ومرة بالحاجة ؟ . .

ورأى الفضيل مرة رجلا مغموماً ، فقال له :

« أتخشى أن يكون لك غير ما شاء الله ؟

قال : لا . .

فقال له : فلأى شيء غمك ؟ » . .

إذا لم يستعبد حُبّ الدنيا الإنسان ، إذا ما تحرر الإنسان من عبودية الدنيا . .

أصبح الطريق سهلا . .

ما هو الطريق ـ فيما يرى الفضيل ـ وما هي آراؤه ؟

إن الطريق ـ فيما يرى ـ يبدأ بالعلم . .

لقد بلغ الفضيل ـ فيما يتعلق بالعلم ـ من المنزلة في أعين الجيل الذي عاش فيه الغاية لقد كان ينصح كبار العلماء فيطأطئون رءوسهم إجلالا وخجلا . .

جلس سفيان بن عيينة ـ وهو قمة من قمم العلم الإسلامي ـ إلى الفضيل ، فقال له الفضيل :

« كنتم معشر العلماء سُرُجاً للبلاد يستضاء بكم ، فصرتم ظلمة . .

وكنتم نجوماً يهتدى بكم ، فصرتم حَيْرة . . » . . أما يستحي أحدكم من

الله ، إذا أتى إلى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو لا يعلم من أين أخذوه ؟ . .

ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول : حدثني فلان عن فلان » . .

فطأطأ سفيان رأسه وقال :

« نستغفر الله ، ونتوب إليه »

أما عن حملة القرآن الكريم فإن الفضيل يقول :

« لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له إلى خلق حاجة ، لا إلى الخلفاء ، ولا من دونهم . . ، . . ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه » . .

وكان ـ رضي الله عنه ـ يقول :

« من قرأ القرآن سئل يوم القيامة كما تسأل الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عن تبليغ الرسالة ، فإنه وارثهم » . .

وكان الفضيل يتجه في حديثه عن العلم والعلماء تارة إلى الشعب وتارة إلى العلماء ، فإذا اتجه إلى الشعب قال :

« عالم الآخرة علمه مستور ، وعالم الدنيا علمه منشور ، فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه ، فإنه يفتنكم بغروره وزخرفه ، ودعواه العمل من غير عمل ، أو العمل من غير صدق » . .

وإذا اتجه إلى العلماء ، قال :

. . « لو أن أهل العلم زهدوا في الدنيا ، لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقادت الناس لهم . . ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما في أيديهم فذلوا وهانوا على الناس . . » . . ومن علامة الزهاد أن يفرحوا إذا وصفوا بالجهل عند الأمراء ومن داناهم » .

وكان الفضيل ـ رضى الله عنه ـ يمقت أصحاب البدع ويقول :

« من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة » ويقول :

« النظر إلى صاحب بدعة يورث العمى »

***

ونقف مع الفضيل فى موضوع : « المعاصى » . .

ويرى الفضيل : أن المعصية هى سبب الآلام وسبب المصائب . . ويقول فى ذلك :

أوحى الله إلى بعض أنبيائه :

« إذا عصانى من عرفنى ، سلطت عليه من لا يعرفنى »

ويقول :

« إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى سوء خلق خادمى وحمارى » . .

وهذا الاتجاه من الفضيل : إنما يتابع فيه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . . فقد روى الطبرى وابن عساكر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« والذى نفسى بيده ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق ، إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر . . وروى الطبرانى عن أبى موسى بإسناد حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من عبد ابتلى ببلية فى الدنيا إلا بذنب ، والله أكرم وأعظم عفوا من أن يسأله عن ذلك الذنب يوم القيامة » وروى الترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تصيب عبدا نكبةٌ ـ فما فوقها أو دونها ـ إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم قرأ :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »

***

والطريق الصادق إلى الله يتمثل فى الانسجام بين أمرين :

حب الله ، والخوف منه . . . وذلك أن :

« من عرف الله ، عن طريق المحبة من غير خوف ، هلك بالبسط والإدلال ،

ومن عرفه عن طريق الخوف ، انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ،

ومن عرفه عن طريقهما معا أحبه وقربه ، ومكنه وعلمه ،

ومن عرف الله حق المعرفة فهو بعيد من الضلال ،

ومن أنزل الموت حق منزلته لم يغفل عنه » .

هذه نصيحة الفضيل للسالكين :

وهى نصيحة فى غاية النفاسة . ويتفرع عنها ـ إذا صدق التزامها ـ أمور ، منها :

صدق النية ، ويقول الفضيل :

« لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسبة له »

والحسبة التى يعنيها الفضيل هى : أن يحتسب الإنسان عمله لوجه الله سبحانه وتعالى ، أو : هىَ . تحقيق قوله تعالى :

« ألا لله الدينُ الخالصُ » . .

وإذا كان الصدق فى النية مطلوبا ، فإن الصدق على وجه العموم شعار السالكين . . والفضيل ينصح السالكين قائلا :

عامل الله بالصدق فى السر ، فإن الرفيع من رفعه الله . . » . . وإذا أحب الله عبدا أسكن محبته فى قلوب خلقه » . .

ويقول :

« لم يتزين الناس بشىء أفضل من الصدق ، وطلب الحلال » .

وعن الصدق فى النية والعمل يقول :

« ما تزين العباد بشىء أفضل من الصدق : إن الله يسأل الصادقين عن صدقهم ، فكيف بالكاذبين »

وإذا كان الحب والخوف وذكر الموت : أورث ذلك ـ لا محالة ـ التواضع . .

والتواضع فى أسمى مظاهره ـ كما يرى الفضيل هو :

« أن تخضع للحق ، وتنقاد له . وتقبل الحق من كل من تسمعه منه » . .

وهذا تفسير جميل من الفضيل لهذا الخلق الكريم الذى يتناسق فى انسجام مع خلق الصدق . .

ومن صدق الفضيل ما عبر عنه بقوله :

« لو قيل لى : أمير المؤمنين داخل عليك ـ فسويت لحيتى ـ خفت أن أكتب فى جريدة المنافقين » . .

ومن تواضع الفضيل أنه اجتمع رضى الله عنه هو وشعيب بن حرب فى الطواف ، فقال :

« يا شعيب : إن كنت تظن أنه شهد الموقف والموسم من هو شر منى ومنك فبئس ما ظننت » . .

ودخل عليه الحسن بن زياد ، فقال :

« يا حسن : عساك ترى أن بالمسجد الحرام رجلا شرا منى ومنك ، إن كان ذلك فقد ابتليت بعظيم » . .

ومات الفضيل ـ رضى الله عنه ـ بالحرم الشريف ، سنة سبع وثمانين ومائة ، رحمه الله رحمة واسعة . .

ومن كلماته :

« لم يدرك عندنا من أدرك ، بكثرة صيام ، ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء الأنفس ، وسلامة الصدور ، والنصح للأمة » .

وقال :

« أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة به »

وقال :

أبى الله إلا أن يجعل أرزاق المتقين ، من حيث لا يحتسبون »

وقال :

« ثلاث خصال تقسى القلب :

« كثرة الأكل ، وكثرة النوم ، وكثرة الكلام »

وكان يعاتب نفسه ويقول :

« أى شىء تخاف ؟ . . . أتخاف أن تجوع ؟ لا تخف فأنت أهون على الله من ذلك ، - إنما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه » . . .

وقال :

« من ادعى العبودية ، وله مراد باق ، فقد كذب »

وكان يقول :

« إنى لأنصرف من صلاتى وأنا مستح من الله أكثر من استحيائى إذا شربت خمرا »

وقال :

« يهابك الخلق على قدر هيبتك لله » .

وقال :

« من خاف الله لم يضره شىء ، ومن خاف غيره لم ينفعه شىء »

وكان يقول :

« من أحب أن يسمع كلامه - إذا تكلم - فليس بزاهد »

وقال :

« أهل الفضل هم أهل الفضل مالم يرَوْا فضلهم »

وقال :

« أصل الزهد الرضا عن الله تعالى »

وقال :

« حقيقة المحبة إيثار المحبوب على الكونين فى القرب والبعد »

وقال :

« فى آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة »

وقال :

« أوحى الله إلى الجبال : إنى مكلم على واحد منكم نبيا ، فتطاولت ، وخضع طور سيناء »

وقال :

« طوبىَ : لمن استوحش من الناس ، وأنس بربه ، وبكى على خطيئته »

وقال — فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾

« الذين يحافظون على الصلوات الخمس »

وقال :

« أحق الناس بالرضا عن الله ، أهل المعرفة بالله عز وجل » .

وكان رضى الله عنه يقول :

« من طلب أخا — بلا عيب — صار بلا أخ » .

وكان يقول :

« لا تؤاخ من إذا غضب منك كذب عليك » .

وكان يقول :

« قد بطلت الأخوة اليوم : كان الرجل يحفظ أولاد أخيه من بعده ويمولهم حتى يبلغوا رشدهم كأنهم أولاده » .

وكان يقول :

« ليس بأخيك من إذا منعته شيئاً — طلبه — غضب منك » .

شقيق البلخى

(١٩٤ هـ)

هو أبو على : شقيق بن إبراهيم البلخى ، كان من أجل مشايخ خراسان ، كما يقول صاحب « نتائج الأفكار القدسية » .

ويقول عنه « السلمى » :

« هو من مشاهير مشايخ خراسان » .

نشأ شقيق نشأة مترفة ، فقد كان أبوه وكان جده من كبار الأثرياء ، ومع هذا الغنى : فإن شقيقا حينما وصل إلى مرحلة النضج من عمره لم يشأ أن يعيش عيشة البطالة المنغمسة فى الملذات ، وإنما أخذ فى العمل الجاد الدائب — وعلى الخصوص فى مجال التجارة — ولم يكن شقيق فى أثناء سياحاته الكثيرة فى التجارة منصرفاً إلى التجارة فحسب ، وإنما كان يفتح عينيه على كل ما يصادفه ، ويحاول ما استطاع أن يلاحظ وأن يستفيد . .

وقد كان هذا شأنه فى جميع حياته . . . كان يلاحظ ويتدبر ، ويفكر ويستنتج . . وكان الخلق الغالب عليه فى حياته ، هو خلق السخاء بأوسع ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معنى كريم . .

لقد كان سخياً بما له فى سبيل الله وفى سبيل الأصدقاء ، وكان سخياً بنفسه فى سبيل الله ، وفى سبيل أصدقائه . .

وتوضيحاً لطبيعة الملاحظة فيه ، وبياناً لخلق الإيثار عنده نروى القصص التالية :

لقد رأى مرة مملوكاً يلعب ويمرح فى زمن قحط وشدة ، كان الناس فيه مهتمين بتحصيل قوتهم ، قلقين على حياتهم ، فقال له شقيق :

ما هذا النشاط الذى فيك ؟ أما ترى ما فيه الناس من القحط والحزن ؟

فقال ذلك المملوك :

« وما علىّ من ذلك ، ولمولاى قرية خالصة يدخل له منها مانحتاج نحن إليه ؟ »

وأخذ شقيق يتدبر قول المملوك .. وقال :

« إن كان لمولاه قرية — ومولاه مخلوق فقير — ثم إنه ليس يهتم لرزقه ، فكيف يهتم المسلم لرزقه ، ومولاه غنى » ؟

وما أراد شقيق بذلك أن ينفى الأسباب ، فإنه يقول باتخاذها .. وإنما أراد أن يدل أهل الجشع والتكالب على ما يهدىء من جشعهم وتكالبهم ، وأخذهم فى الحصول على المال من أى وجه كان » ..

وخرج شقيق فى تجارة إلى بلاد الترك ، ومر بقوم يقال لهم « الخصوصية » وهم يعبدون الأصنام ، فدخل بيت أصنامهم فوجد فيه الكاهن ، قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثياباً حمراء أرجوانية ، فقال له شقيق :

« إن هذا الذى أنت فيه باطل ، وإن لهؤلاء ، وإن لك ، وإن لهذا الخلق خالق وصانع ليس كمثله شىء ، له الدنيا والآخرة ، قادر على كل شىء ، رازق كل شىء ، فقال له الكاهن :

ليس يوافق قولك فعلك .. فقال شقيق :

كيف ذلك ؟ قال :

« زعمت أن لك خالقاً رازقاً ، قادراً على كل شىء ، وقد تعنيت فى المجىء إلى هاهنا لطلب الرزق ، ولو كان كما تقول ، فإن الذى يرزقك هاهنا هو الذى يرزقك هناك ، فترتاح من تعبك » ..

وأراد شقيق — بهذه القصة — أن يقول للناس : إن الرزق مقسوم ، وإن الله قدّر الأرزاق ، فكل تكالب وكل جشع وكل طريق غير مشروع لا يزيد فى الرزق ، وأن عليهم أن يطلبوه من وجوهه المشروعة » ..

وقصة ثالثة نرويها بياناً لخلق شقيق فى السخاء بالنفس والإيثار :

« كان على بن عيسى بن ماهان « أمير بلخ » يحب كلاب الصيد ويقتنيها تحقيقاً لهوايته فى الصيد ، وافتقد يوماً كلباً من كلابه ، وبحث عنه ، فلم يجده ، وسعى الناس برجل يتهمونه بسرقة الكلب ..

وكان هذا الرجل بريئاً ، ولكنه يعلم أن الأمير سيعذبه ، فهرب ودخل دار شقيق مستجيراً ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال : خلوا سبيله فإن الكلب عندى أرده إليكم وأمهلونى فى رده إلى ثلاثة أيام ، فخلوا سبيله ، وانصرف شقيق مهتماً لما صنع ، فلما كان اليوم الثالث : كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ رجع إليها ، فوجد فى الطريق كلباً عليه قلادة تدل على أنه معلّم ، فأخذه وقال : أهديه إلى شقيق يتفتى[1] به ، فإنه يشتغل بالتفتى ، فحمله إليه ، فنظر إليه شقيق ، فإذا هو كلب الأمير ، فسرّ به وحمله إلى الأمير ، وتخلص من الضمان ، فرزقه الله الانتباه بذلك ، وقال فى نفسه :

« إذا كان لطف الله تعالى بى ، وأنا فى حال الغفلة والجفاء ، فكيف إذا

(١) يلعب به لعب الشباب .

رجعت إليه بصدق العبادة والوفاء ؟ » . فرجع إليه وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق الزهد . .

لقد كان شقيق البلخى صاحب تجربة وملاحظة وتدبر وتفكير ، انتهت به التجربة إلى اليقين العملى بالحديث الذى رواه بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« اللهم إن الخير خير الآخرة » .

وهذا الحديث الذى رواه بسنده ينسجم مع حديث آخر رواه أيضاً بسنده عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به ، أفّ للدنيا وما فيها من البليات : حلالها حساب ، وحرامها عذاب » .

هذان الحديثان اللذان رواهما شقيق وغيرهما مما رواه من الأحاديث فى معناها هى التى انتهت إليها تجربة شقيق ، إنه يقول :

« عملت فى القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته فى حرفين ، وهو قوله تعالى :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » [1] .

فلما وقر ذلك فى نفسه ، وامتلأ به وجدانه ، اتجه إلى العمل للآخرة فى جد ونشاط ، وذلك بأن صحح التوبة وصدق فيها وقال :

« تفسير التوبة : أن ترى جرأتك على الله ، وترى حلم الله عنك » .

---

(١) القصص : آية ٦٠

ووصل صدق التوبة بشقيق إلى أن يقول :

العاقل لا يخرج عن هذه الأحرف الثلاثة :

الأول : أن يكون خائفاً مما سلف من الذنوب .

والثانى : لا يدرى ما ينزل به ساعة بعد ساعة .

والثالث : يخاف من إبهام العاقبة فإنه لا يدرى ما يختم له » .

وإذا صدقت التوبة ، صدق التوكل على الله ، ويفسر شقيق التوكل على الله قائلا :

« التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله » .

ومما يفسر التوكل ، عند شقيق ، قوله :

« من لم يعرف الله بالقدرة ، فإنه لا يعرفه ، فقيل له : وكيف يعرفه بالقدرة ؟ فقال : يعرف أن الله قادر ـ إذا كان معه شىء ـ أن يأخذه منه ويعطيه غيره . . وإذا لم يكن معه شىء أن يعطيه » . .

وإذا صدقت التوبة ، وصدق التوكل ، أثمر ذلك الزهد . .

ويتحدث شقيق عن الزهاد ، فيرى مايراه إبراهيم بن أدهم ، وينقل عنه قوله :

« أقرب الزهاد من الله عز وجل أشدهم خوفاً ، وأحب الزهاد إلى الله أحسنهم له عملا ، وأفضل الزهاد عند الله أعظمهم فيما عنده رغبة ، وأكرم الزهاد عليه أتقاهم له ، وأتم الزهاد زهداً أسخاهم نفساً وأسلمهم صدراً ، وأكمل الزهاد زهداً أكثرهم يقيناً » . .

وإذا صدقت التوبة وصدق التوكل والزهد ، فإن ذلك يثمر ـ فى صورة جمية ـ الثقة بالله تعالى ، ومن وثق استراح فى حياته .

ولقد سئل شقيق : بأى شىء يعرف بأن العبد واثق بربه ؟ فقال :
« يعرف بأنه إذا فاته شىء من الدنيا يحسبه غنيمة ، وإذا أبطأ عليه شىء من الدنيا يكون أحب إليه من أن يأتيه » ..

وكانت ثقة شقيق فى الله مطلقة ، وبلغت إلى الحد الذى اندفع فيه شقيق فى الجهاد فى سبيل الله ، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ...
وها هو بين الصفين فى محاربة العدو ، مسلحا بالإيمان والعدة الحربية ، وقد التحم الجيشان فليس هناك إلا سيوف مصلتة ، ورقاب تقطع ، ورءوس تسقط ، وإذا بشقيق يقول لمن بجواره :

كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك فى حالة تشبه حالتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك إليك ؟

فقال صاحبه : لا ، والله .

فقال شقيق :

لكنى ـ والله ـ أرى نفسى فى هذا اليوم مثل ما كنت فى الليلة التى زفت فيها امرأتى إلى ..

ومات شقيق شهيداً فى ساحة الحرب والجهاد سنة أربع وتسعين ، وقيل : ثلاث وخمسين ومائة ، رحمه الله رحمة واسعة ..

بشر بن الحارث الحافى

٢٢٧ هـ

أصل بشر من « مرو » من رؤساء قرية « بَكِرد » ، ثم سكن بغداد وأخذ العلم من الفضيل وأمثاله .

أما السبب فى سلوكه طريق الصوفية فهو ـ كما يروى صاحب الكواكب الدرية ـ أنه قد وجد ورقة فيها البسملة ملقاة بالطريق ، فرفعها وطيبها ووضع عليها عطرا ، فسمع النداء : طيبتها : لأطيبن اسمك فى الدنيا والآخرة .

وسلك بشر طريقه ، ووصل به الأمر إلى درجة أن يقول عنه الإمام المناوى :

« كان كبير الشأن ، عظيم المقدار ، على المنزلة ، رفيع المنار ، لطيف الإشارة عذب الكلام ، طلق العبارة ، عديم النظير زهداً وورعا وصلاحا » .

ولقد تحدث عنه الإمام الغزالى ، فقال :

« وكان بشر من الورعين : فقيل له :

من أين تأكل ؟

فقال :

من حيث تأكلون ... ـ لكن ليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك ، ويد أقصر من يد ، ولقمة أقل من لقمة .

وأخذت منزلة بشر تعلو وترتفع ، حتى لقد قال فيه محمد بن الصلت « كان اسمه بين الناس كأنه اسم نبى » .

وبلغ من رفيع قدره أن الخليفة المأمون تشفع بأحمد بن حنبل فى أن يأذن له فى زيارته .

ويحدث يحيى بن أكثم فيقول :

قال لى المأمون :

لم يبق فى هذه الكورة (المدينة)[1] أحد يستحى منه غير هذا الشيخ ، « بشر بن الحارث » ، وكان بشر لا يأخذ من أحد شيئاً ، ولا يقبل هدايا الأمراء أو الأثرياء » .

ومن طريف ما يروى فى هذا الموضوع ما حدث به عثمان بن دهقان قال : كنت عند بشر وهو يتكلم فى الرضا والتسليم ، فإذا هو برجل من المتصوفة فقال له الرجل :

« يا أبا نصر ... أ ـ انقبضت عن أخذ البر من يد الخلق ، وما ذلك إلا لإقامة الجاه لنفسك ، فإن كنت متحققاً بالزهد ، منصرفا عن الدنيا فخذ من أيديهم لأجل أن ينمحى جاهك عندهم ، وأخرج ما يعطونك إلى الفقراء ، وكن بعقد التوكل تأخذ قوتك من الغيب » .

فلما قال له ذلك : اشتد هذا القول على أصحاب بشر وتولاهم القلق على شيخهم .. فقال بشر :

« اسمع أيها الرجل الجواب :

« الفقراء ـ « الصوفية » ثلاثة :

---

(١) أى بغداد

فقير لا يسأل ، وإن أعطى لا يأخذ ، فذاك من الروحانيين ... إذا سأل الله أعطاه ، وإن أقسم على الله أبر قسمه ..

وفقير لا يسأل ، وإن أعطى قبل .. فذاك من أوسط القوم ، عقده التوكل والسكون إلى الله تعالى ، وهو ممن توضع له الموائد فى حظيرة القدس .

وفقير اعتقد الصبر وموافقة الوقت ، فإذا اضطرته الحاجة خرج إلى عبيد الله، وقلبه إلى الله بالسؤال ، فكفارة مسألته صدقه فى السؤال » .

فقال الرجل :

« رضيت رضى الله عنك » ...

وقد رأى بشر بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ـ ويتحدث بشر عن رؤياه فيقول :

قال لى : يا بشر ... تدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟

قلت : لا يا رسول الله .

قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، هذا هو الذى بلغك منازل الأبرار » .

وإتباع سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حقيقة الأمر . هو الأساس للاتجاه إلى الله فى صدق :

يقول سبحانه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

وهذا الاتباع لا يتأتى إلا بدراسة سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دراسة مستفيضة » .

ودراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتأتى فى دقة إلا عن طريق كتب الأحاديث الصحيحة : كصحيح البخارى وصحيح مسلم رضى الله عنهما . .

ومن أجل الاتباع الصادق درس بشر الحديث النبوى الشريف ، درسه فى سعة ، وفى دقة ، لقد وصل إلى مرتبة المحدثين . .

ويقول عنه الدارقطنى :

« وهو ثقة : لا يروى إلا حديثاً صحيحاً » .

ويقول عنه السلمى :

« كان عالماً ورعاً » . .

وما كان طلبه للعلم من أجل الشهرة ، ولا من أجل الرياسة ، وإنما كان من أجل الاتباع الصادق والسلوك السليم . .

إنه يقول:

« من طلب الرياسة بالعلم تقرب إلى الله بما يبغضه ، فإن طلب الرياسة بالعلم مقت فى السماء والأرض » .

وهذا الاتباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ - إذن - عن علم ودراسة ، وانطلاقا عن هـذا الأساس ... أخذ بشر يدعو إلى الله ، وينصح إخوانه . .

واتجه بشر فى هذه النصيحة إلى إعلان الحرب على المعاصى والآثام . .

إنه يقول لإخوانه فى ذلك :

« من أراد أن يلقن الحكمة فلا يعصى الله » . .

ويقول :

« إذا قصر العبد فى الطاعة ، سلبه الله ما يؤنسه ومن يؤنسه » .

وكان بشر يجد حلاوة العبادة ، وإن للعبادة لحلاوة يجدها الصادقون . .

ويبين بشر الطريق إلى هذه الحلاوة للعبادة فيقول :

« لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد » .

وينادى إخوانه قائلا :

« هب أنك ما تخاف ، أما تشتاق ؟ » . .

وحينما يراهم يرفعون أكفهم يدعون الله سبحانه وتعالى ، يبين لهم وسيلة استجابة الدعاء فيقول :

« الدعاء ترك الذنوب » . .

ولم ينس بشر أن الكثير من الناس لا يتمسك بالورع فى طلب الرزق ، وخصوصا من يحترفون التجارة ، فكان بشر يحدثهم بما يجد من ذلك فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحث على طيب المطعم ، وهو كثير ، وبما يجد من ذلك فى القرآن الكريم . .

ولقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

« تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا » .

فقام سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - فقال :

« يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده

« إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ،
وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » (١) .

ويقول بشر :

« انظر خبزك من أين هو ؟ .. ولا تعرض لحمك للنار » ..

وبعــد :

فلقد اختار الله لجواره « بشرا » فتوفاه يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة سبع وعشرين ومائتين ، رحمه الله رحمة واسعة ..

(١) رواه الطبرانى فى الصغير

أبو بكر الشبلى

م ٢٣٤ هـ

لأبى بكر الشبلى فى عالم التصوف مذاق جميل ، وكل من قرأ فى كتب الصوفية يعلم أن أبا بكر الشبلى يمتاز بسهولة ويمتاز بروحانية كبيرة ، يقول عنه صاحب حلية الأولياء :

« ومنهم المجتذَب الولهان ، المستَلَب السكران ، الوارد العطشان ، اجتُذب من الكدور والأغيار ، واستلب إلى الحضور والأنوار ، وسقى بالدنان وارتُهن ممتلأ ريان : أبو بكر الشهير بالشبلى . »

هو خراسانى الأصل ، أصله من أسروشنة ، ولكنه بغدادى المنشأ ، أما مولده فقد كان سامَرَّا ، وقد نزحت أسرته من بلاد خراسان إلى بلاد العراق واحتلت الأسرة مكانة مرموقة بل مكانة فى الصدارة ، فقد كان والده صاحب الحجاب للموفق .

ونشأ الشبلى فى جو من الترف والنعيم ، وفى جو من المعرفة والعلم ، وتزود الشبلى بقسط من المعرفة عميق متنوع ، لقد حفظ من الشعر ما لا يكاد يحصى وكان كثيراً ما يجيب سائليه ببيت أو بأبيات مما حفظ أو مما ألف ، تناسب المقام ، ولقد كان الاستشهاد بالشعر على ما يحس به من وجد أطوع إليه من بنانه .

أما الفقه فإنه قد درسه فى صورة مستفيضة على مذهب الإمام مالك .

واستفاض كعادة أهل عصره — فى حفظ الحديث وتفقه فيه رواية ودراية .

يقول عنه صاحب الطبقات « كتب الحديث الكثير ورواه » ثم أخذ يشغل كأبيه الوظائف فى الدولة فكان واليا بنهاوند بالبصرة ، ثم ... أدركته

العناية فتاب مما هو فيه من أهواء ومناصب وترف ولجأ إلى الله .

يقول صاحب طبقات الصوفية :

تاب فى مجلس « خير النساج » وصحب « الجنيد » ومن فى عصره من المشايخ وسلك الشبلى الطريق : الطريق إلى الله ؛ فصير حياته عبادة ، لقد صير أعماله عبادة وحركاته عبادة وأقواله عبادة ، وصار بذلك عالما صوفيا .

يقول الإمام أبو عبد الرحمن السلمى :

« وصار أوحد وقته حالا وعلما ، وكان عالما فقيها على مذهب مالك »

ويقول عنه صاحب « الكواكب الدرية » واصفا له عالما وواصفا له صوفيًا :

« وصار أوحد وقته علما وحالا تفقه على مذهب الإمام مالك ، وكتب حديثاً كثيراً ، ثم شغلته العناية عن الرواية . وكان يأخذه الوله ويُرَدُّ فى أوقات الصلوات إلى حسه حتى لا يفوته شىء مما يتوجه عليه من التكليف كما يتوجه على العاقل الذاكر ، فإذا فرغ من صلاته أخذه الوله . . . »

والوله الذى كان يأخذ الشبلى هو فرط محبته لله وشوقه إليه ومن أجل ذلك كان الشبلى لا يفتر عن ذكر الله . .

ويصف صاحب « الكواكب » مرة أخرى الشبلى فيقول :

إمام اشتهر شرفه ، وسمت فى جنان المعرفة غرفة ، وأضاء كوكب زهده وديانته ، ونما فرع ورعه وصيانته .

ومنذ أن تاب الشبلى فى مجلس « خير النساج » لم يفتر عن الدعوة إلى الله : بسلوكه ، وبحاله ، وبأقواله لقد كان يعظ ويرشد ويهدى على مستوى الشعب والجماهير ، وكان يعظ ويرشد ويهدى على مستوى العلماء والمثقفين ، وكان يهتم

على الخصوص بالعلماء لأنهم أقدر على هداية غيرهم ، على هداية عشرات بل مئات غيرهم وكان يرى أن هداية عالم فى سنين عدة خير من هداية عشرات من الجهال فى سنة واحدة ويقول : ليس الكامل من يوصل كل يوم ألفا من العوام ، بل من يوصل فقيها واحدا فى مائة عام ، وفى قصة موسى والخضر كفاية لكل معتبر ، وعاش الشبلى سبعا وثمانين سنة ومات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، ودفن فى مقبرة الخيزران ، وقبره اليوم ظاهر .

آراؤه :

وحينما نتحدث عن آراء الشبلى فإننا نقسمها إلى قسمين : آراؤه ذات المذاق الصوفى الخاصة ببعض مسائل الدين ، وآراؤه فى التصوف وما ينبع التصوف من زهد أو توكل أو غيرها .

ونبدأ الآن بالقسم الأول :

لقد شاعت بدعة البحث عن الله سبحانه وتعالى وشاعت فكرة إثبات وجود الله . وكان موقف الصوفية فى هذا هو موقف الفطرة السليمة الصادقة ، والفطرة السليمة الصادقة ترى الله فى الأنفس وفى الآفاق ، إنها ترى الله فى آياته ، فى نعمه التى لا تحصى فى كل شىء فى الوجود . ولقد سأل بُكَيْر ـ تلميذ الشبلى ـ الشبلىّ قائلا :

يا أستاذ ، أين أبغيه ؟

فقال له : ثكلتك أمك ، وهل يُبْغَى من يأخذ السماوات على أصبع والأرضين على أصبع فيهزهما ويقول : أنا الملك ، أين الملوك ؟ ثم يقول الشبلى معبرا عن رأيه الصادق : « إن الله لم يحتجب عن خلقه ، إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا »

والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر على حد تعبير ابن عبد البر ؟

ولقد سئل الشبلى فى ذلك ، قال رجل له :

هل شاهده أحد على الحقيقة ؟

فقال : الحقيقة بعيدة ولكن ظنون وأمانى ، وحسبان ، ثم أنشد :

وكذبت طرفى فيك والطرف صادق ... وأسمعت أذنى منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الأرض التى تسكنونها ... لكيلا يقولوا إننى بك مولع
فلا كبدى تهدا ، ولا لك رحمة ... ولا عنك إقصاء ولا فيك مطمع

فاذا تراءى له تحقيق حال ، شوشه بالتلبيس والإشكال »

ولقد أثار كثير من الناس الفتن والجدل والمراء بمناسبة قوله تعالى :

« الرحمن على العرش استوى » .

وسئل الشبلى عن هذه الآية الكريمة ، فقال هذه الإجابة السديدة العميقة :

الرحمن لم يزل ، والعرش محدث ، والعرش بالرحمن استوى

ويقول الشبلى فى صورة من الحسم الحاسم :

أيقنت أن الحدث لا يدرك القديم.

أى لا يدركه إدراك ذات ، ولا إدراك إحاطة ، ولكنه يدركه إدراك وجود وإدراك صفات . وللشبلى طرائف جميلة فيما يتعلق ببعض الآيات القرآنية لقد سئل عن أرجى آية فى القرآن فقال : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم » فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر لا إله إلا الله مرة واحدة ، أترى من واظب عليها طول عمره كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك ؟

وسئل عن قوله تعالى : « أدعونى استجب لكم » فقال : ادعونى بلا غفلة

استجب لكم بلا مهلة . وسئل عن قوله تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » فقال : كل ما دون الله لغو . .

أما عن آرائه فى المحيط الصوفى :

فنبدأ الحديث عنها برأيه فيما بين التصوف والشرع من صلة . والواقع أن الصوفية ينبهون عادة على وجوب اتخاذ الشرع أساساً ومقياسا لكل عمل يأتونه ولكل عمل يدّعونه : إنهم محبون والمحب يسترسل مع محبوبه على ما يشاء المحبوب . يقول الشبلى :

المحبة اتباع أوامر المحبوب ، وتجنب نواهيه ، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص ، وكتمان الحال مع بذل الجهد فى المجاهده . ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله :

« قُل بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحمته فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا »

ومن طريف ما يروى عن الشبلى ما حدّث به محمد بن على بن حبيش ، قال : أدخل الشبلى دار المرضى ليعالج فدخل عليه على بن عيسى الوزير عائدا فأقبل على الوزير فقال : ما فعل ربك ؟

فقال الوزير : فى السماء يقضى ويمضى

فقال الشبلى : سألتك عن الرب الذى تعبده لا عن الرب الذى لا تعبده — يريد الخليفة المقتدر — وأراد الشبلى بذلك أن يهز الوزير بقوة لعله يرعوى فيعرف أنه يؤثر الخليفة على الله : أى أنه يسير دائما فى هوى الخليفة دون أن يضع فى تفكيره مبادىء العدل الإلهى وأراد الشبلى أن تكون نصيحة لعلها تثمر وتفيد .

ولكن الوزير لم يرضه ذلك فقال لبعض الحاضرين : ناظره

فقال الرجل ، يا أبا بكر ، سمعتك تقول فى حال صحتك :

كل صدّيق بلا معجزة (أى كرامة) كذاب وأنت صديق فما معجزتك ؟

فقال : معجزتى أن تعرض خاطرى فى حال صحوى على خاطرى فى حال سكرى فلا يخرجان عن موافقة الله .

وقد أتينا بهذه القصة لنبين أن الشبلى كان يتحدى بأنه لا يخرج حتى فى حال سكره ـ أى فى حال جذبه واستغراقه ـ من موافقة الله .

وما كان الشبلى عنيفا إلا مع من يرى أنه فى حاجة إلى أن يصحو من غفلته بهزة قوية . ولقد كان الشبلى رحيما وكان جم الرحمة ، إنه يقول :

وقفت بعرفة ، فطالبت الناس بما يجب من الحضور والإجلال فرأيت الغالب عليهم التقصير ، فرحمتهم ، وقلت :

إلهى إن منعتهم إرادتك فيهم ، فلا تمنعهم مناهم منك

وكان الشبلى يحذر دائما مريديه من مخالفة الشرع ، ويقول :

لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن

ولقد سئل مرة عن أعجب شىء فى نظره ، فقال : من عرف الله ثم عصاه

وسئل عن كمال العقل وكمال المعرفة ، فقال :

إذا كنت قائما بما أمرت تاركا لتكلف ما كفيت ، فأنت كامل العقل وإذا كنت بالله متعلقا لا بأعمالك ، غير ناظر إلى سواه : فأنت كامل المعرفة :

ولشدة تمسك الشبلى بالشرع وحرصه على موافقته وشهرته فى ذلك رآه بعض الناس فى رؤآهم يحث عليه :

روى أبو العباس محمد بن الحسن الخشاب ، يقول : سمعت بعض أصحاب الشبلى يقول :

رأيت الشبلى فى المنام ، فقلت له : يا أبا بكر ، من أسعد أصحابك بصحبتك ؟ فقال :

أعظمهم لحرمات الله والهجهم بذكر الله ، وأقومهم بحق الله ، وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله ، وأعرفهم بنقصانه وأكثرهم تعظيما لما عظم الله من حرمة عباده .

تعريف التصوف :

والشبلى هو الذى نبه على أن الصوفى حقا هو من لا تكون فيه بقية من نفسه ، أى من يكون محا نفسه فى محبة الله فأصبح يؤثر الله على كل شىء . . إنه يقول :

إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم ، ولولاها ما تعلقت بهم تسمية .

ولقد عرّف الشبلى التصوف بعدة تعريفات ، منها :

التصوف : التآلف والتعارف .

ومنها : التصوف : ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك .

ورأى الشبلى من أدق ما يكون فى صلة العمل بالوصول إلى الله ، وصلته بالتصوف . .

قد سئل : هل يبلغ الإنسان بجهده إلى شيء من طرق الحقيقة أو الحق ؟

فقال : لا بد من الاجتهاد والمجاهدة لكنهما لا يوصلان إلى شيء من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد ، وإنما هي مواهب يصل العبد إليها بإيصال الحق تعالى لا غير ، ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة وهداهم لما أحبوه .

ويتحدث الشبلي عن كثير من صفات العارف ، أي الصوفي وأحواله :

فزهد الصوفي : « تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء » .

وتوكل الصوفي : « يقول أحدهم توكلت على الله وهو يكذب عليه ، لو توكل عليه رضي بفعله » .

وذكر الصوفي : « ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور » .

ووفاء الصوفي : « هو الإخلاص بالنطق ، واستغراق السرائر بالصدق » .

أما قلوب أهل الحق فإنها طائرة إليه بأجنحة المعرفة ، ومستبشرة إليه بموالاة المحبة .

وليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق . .

وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته . .

وبعد :

فإنا نختم هذا الحديث عن الشبلي بذكر بعض أبيات من الشعر مما كان يردده كثيراً :

يحبك قلبي ما حييت فإن أمت ... يحبك عظم في التراب رميم

***

والهجر لو سكن الجنان تحولت ... نعم الجنان على العبيد جحيما

والوصل لو سكن الجحيم تحولت ... حر السعير على العباد نعيما

***

عودوني الوصال والوصل عذب ... ورموني بالصد والصد صعب

زعموا حين عاتبوا أن جرمي ... فرط حبي لهم وما ذاك ذنب

لا وحسن الخضوع عند التلاقي ... ما جزى من يحب إلا يحب

أبو يزيد البسطامى

(٢٣٤ هـ)

يروى ابن عطاء الله السكندرى فى شرحه لقصيدة « ولى الله أبى مدين » القصة التالية :

« زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد ـ رضى الله عنه ـ وقال :

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟

فأشير إلى شيخ كبير فى السن ، كان حاضراً هناك ..

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم ، سمعته قال :

« من زارنى لا تحرقه النار » ..

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال :

كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، وتحرقه النار ؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان :

« أبو جهل لم ير النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما رأى « يتيم أبى طالب » ولو رآه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تحرقه النار » ..

فهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ..

أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار ..

والمعنى الذى أراده أبو يزيد بقوله :

« من زارنى لا تحرقه النار » .

واضح كل الوضوح ..

وذلك أن أبا يزيد يقول :

« إن من تقفى آثارى ، وعمل على حسب ما رسمته ، واتبع السبيل الذى سرت فيه ، ودفعه الحب لزيارتى فإن النار لا تحرقه » ..

والمعنى الذى أراده « أبو يزيد » أيضاً من وراء ذلك ، أنه سار فى حياته بحسب الكتاب والسنة ، وأسس سلوكه وأقواله ، إنما هى هدى القرآن والسنة ، وأنه اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة وأسوة فى السلوك والأقوال ، وأن كل من سار على ذلك فهو بفضل الله فى رحمة الله ، وفى رضوانه ، ومن كان كذلك لا تحرقه النار » ..

وتمسك « أبى يزيد » بالكتاب والسنة معروف مشهور ، ومن بيان ذلك أنه قال مرة لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية » ..

وكان رجلا مشهوراً بالزهد ..

يقول رفيق أبى يزيد :

« فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال :

« هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه » . .

إن « أبا يزيد » لم يكن يحتمل أن يخالف إنسان أدباً من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ومن المعروف : أن الصوفية يتخذون مثلهم الأعلى وأسوتهم الحسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم يتحرون جميع أموره — اليسير منها والعظيم — ليسيروا على هديه ، ويتبعوا سننه فى جميع أحواله . .

ويضع « أبو يزيد » للمريدين والسالكين مقياساً دقيقاً لمعرفة الشيخ ، إنه يقول :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » . .

وقال أبو يزيد :

« لا يكون العبد عاملا على معنى العبودية ، حتى تكون إرادته وأمنيته وشهوته تابعة لمحبة الله » . .

هذا التمسك من « أبى يزيد » بالشريعة هو الذى جعل منه إماماً وعلماً من أعلام السلوك الإسلامى ، وجعله يقول :

« من زارنى لا تحرقه النار » . .

***

وأخذ أبو يزيد مؤسساً على الشريعة يجاهد نفسه جهاداً مستمراً ، لقد أخذ يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ليصل إلى تزكية نفسه ، وإلى الفلاح ، والله سبحانه وتعالى يقول :

« قد أفلح من زكاها » .

ووصل أبو يزيد فى صلته بالله ، إلى درجة سامية ، وهى درجة يقول فيها أبو يزيد :

« للخلق أحوال : ولا حال للعارف ، لكونه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره » .

ولقد قيل له مرة : كيف أصبحت ؟

قال : « لا صباح لى ولا مساء ، إنما الصباح والمساء لمن تقيد بالصفة ، ولا صفة لى » .

وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، فإنه يزهد فى كل شىء يشغله عن الله » .

يقول أبو يزيد : « من عرف الله ، فإنه يزهد فى كل شىء يشغله عنه » .

ويقول : « محال أن تعرفه ثم لا تحبه » .

ويصبح الإنسان متجهاً إلى الله فى كل صغيرة وكبيرة . . . ففى التوكل مثلا يقول أبو يزيد :

« حسبك من التوكل : أن لا ترى لله ناصراً غيره ، ولا لرزقك رازقاً غيره ولا لعملك شاهداً غيره » .

والمعانى تفسر بحسب الدرجة أيضاً .

ولقد قيل لأبى يزيد : هل معنى « الله أكبر » أنه أكبر من كل ما سواه ؟

فقال : ليس معه شيء فيكون أكبر منه .

فقيل له : فما معناه ؟

قال : « أكبر من أن يقاس بالناس ، أو يدخل تحت القياس ، أو تدركه الحواس » . . .

ويصل الأمر بأبى يزيد إلى أن يقول :

« لله عباد لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته ، لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار من النار » .

وهذه الدرجة لا تتأتى إلا عن الله ، يقول أبو يزيد :

« عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله عز وجل » .

ومع الوصول إلى هذه الدرجة ، فإن الخوف لا يفارق العارف . . . ويخاطب أبو يزيد ربه قائلا :

« هذا فرحى بك وأنا أخافك ، فكيف فرحى بك إذا أمنتك » ؟ ولكن العارف لا يأمن مكر الله ، ولقد قال القرآن الكريم :

(إِنَّهُ لاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ » .

وقال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة » . .

ونودى أبو الحسن الشاذلى :

« لا تأمن مكرى ، وإن أمنتك ، فإن علمى لا يحيط به محيط » .

ولذلك يقول : « أبو يزيد » على لسان هؤلاء :

« أمل الزاهد فى الدنيا الكرامات ، وفى الآخرة المقامات .

وأمل العارف فى الدنيا بقاء الإيمان ، وفى الآخرة العفو » .

* * *

وقد يتساءل إنسان :

وما الرأى إذن فيما روى عنه من أقوال لا تنسجم مع معروف الصالحين ؟

والواقع : أننا كتبنا ما كتبنا ونحن على علم بما روى عنه فى ذلك ، ولا نريد أن ندخل فى جدال لا ينتهى ، وإنما نروى عن ذلك ما قاله صاحب « الكواكب الدرية » ، وما قاله « الإمام الجرجانى » ، ففيهما فصل المقال فى الموضوع :

يقول صاحب « الكواكب » :

« ولما تكلم فى علوم الحقائق ، لم يفهم أهل عصره كلامه ، فرموه بالعظائم ، ونفوه من بلدهم سبع مرات ، وهم فى كل مرة يختل أمرهم ، وينزل بهم البلاء ، حتى أذعنوا له ، وأجمعوا على تعظيمه » .

وسئل الجرجانى عن الكلام المنقول عن أبى يزيد مما لا يفهم ، فقال :

« يسلم له حاله ، وأيكم يجاهد نفسه كما جاهد » . .

ولقد كان الشعب أصدق حدساً من الجدليين وأصحاب المراء فيما يتعلق بقيمة أبى يزيد .

يقول الإمام النبهانى :

« وكان إذا رآه الناس يتمسحون بخرقته تبركاً ، فلاموه على ذلك ، فقال :

« هم لا يتبركون بى ، إنما يتبركون بحلية ربى التى خلعها علىَّ » .

واستمر « أبو يزيد » يجاهد نفسه فى سبيل القرب من الله ، ويجاهد مجتمعه لأجل استقامة أفراده ، حتى اختاره الله لجواره سنة إحدى وستين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة . .

وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة . .

ومن أقواله :

« ليس العجب من حبي لك وأنا عبد ، بل من حبك لي وأنت ملك قدير » .

« غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء :

توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ، ومعرفته تقدمت معرفتي ، ومحبته أقدم من محبتي ، وطلبه لي أولا حتى طلبته » . .

« أقرب الناس من الله أكثرهم شفقة على خلقه » . .

« معرفة العوام : معرفة العبودية والربوبية ، والطاعة والمعصية ، والعدو والنفس . . ، . . ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة ، والإحسان والمنة ، والتوفيق . . ، . . ومعرفة خواص الخواص : معرفة الأنس والمناجاة والتلطف ، ثم معرفة القلب ثم السر » .

« الدنيا لأهلها غرور في غرور ، والآخرة لأهلها سرور في سرور ، ومحبة الله لأهل محبته نور على نور » . .

« يا رب : أفهمني عنك ، فإني لا أفهم عنك إلا بك » . .

« من سمع الكلام ليتكلم مع الناس ، رزقه الله فهماً يكلم به الناس ، ومن سمعه ليعامل الله به في فعله رزقه الله فهماً يناجي به ربه عز وجل » . .

« علامة العارف : أن يكون طعامه ما وجد ، ومبيته حيث أدرك ، وشغله بربه » . .

وسئل من أين تأكل ؟ فقال :

« مولاي يطعم الكلب والخنزير ، أفترى أنه لا يطعم أبا يزيد ؟ » . .

وقال :

« الأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات ، التي هي عين الكرامات ، كالمشي على الهواء ، وطي الأرض وركوب السماء ، فإن أدعية الكفار تجاب ، والأرض تطوى للشياطين والدجال ، والهواء مسخر للطير ، والماء للحوت ، فمن أنعم عليه بشيء منها ، فلا يأمن المكر » . .

ولقد روى « أبو يزيد » الحديث : ومما رواه من ذلك ما قاله :

حدثنا أبو عبد الرحمن السُّدِّي ، عن عمرو بن قيس الملائيّ ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن ضعف اليقين ، أن ترضي الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كره كاره . . ، . . إن الله بحكمته وجلاله ، جعل الرَّوْح والفرح في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . .

حاتم الأصم[1]

(م ٢٣٧هـ)

هو من قدماء مشايخ خراسان ، من أهل بلخ ، كما يذكر أبو عبد الرحمن السلمى . ويقول صاحب (الرسالة القشيرية) عنه :

« من أكابر مشايخ خراسان » . .

ولما أراد صاحب « الحلية » ـ كعادته مع الصوفية الذين يكتب عنهم ـ أن يصفه قال :

« ومنهم ـ أى من الصوفية ـ المؤثر للأدوم الأعم ، والآخذ بالألزم والأقوم أبو عبد الرحمن حاتم الأصم . . توكل فسكن ، وأيقن فركن » .

وحياة حاتم الأصم تزيل كثيراً مما ألصق بالصوفية من تهم لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، وأول هذه التهم المزيفة أن الصوفية لا يمارسون الجهاد فى سبيل الله والواقع أن العكس هو الصواب .

وها هو ذا حاتم وأستاذه شقيق ـ وكلاهما من بلخ ـ قد ساهما فى الجهاد بصورة ملحوظة . . وقد استشهد أستاذه شقيق فى ساحة الجهاد .

ويصف حاتم ساحة الوغى فى معركة من المعارك التى خاضها فيقول :

« لا أرى إلا رءوساً تندر (أى تسقط) وسيوفاً تقطع ، ورماحاً تضرب » .

وقد كان حاتم يحارب بشجاعة لا يبالى الموت . .

(١) قدمنا حاتم الأصم وكتبنا عنه مباشرة بعد شقيق البلخى لأنه كان تلميذه وتابعا له .

ولقد صور عدم مبالاته بالموت حينما حدث أن تغلب عليه الأعداء مرة وأخذوه أسيراً ، وجثم أحدهم على صدره ليذبحه . .

إنه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة فيقول :

« لم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فى ، فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها أصابه سهم فقتله ، فقمت سليما معافى .

قام سليما معافى ليواصل المعركة من جديد . .

ونظرة حاتم إلى الجهاد نظرة عامة شاملة ، وهى النظرة الإسلامية الصادقة للجهاد ، إنه يقول :

الجهاد ثلاثة :

جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره .

وجهاد فى العلانية ـ فى أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله .

وجهاد ضد أعداء الله لنصرة الإسلام .

إن الصوفية يحاولون أن يصلوا إلى مرضاة الله فى كل أمر من الأمور التى يحبها الله ورسوله . . وموقفهم من الجهاد كموقفهم من غيره من مبادىء الإسلام الفاضلة التى يحبون أن يصلوا فيها إلى ما يرضى الله ورسوله وهم يعرفون قوله تعالى فى هذه الصورة الحاسمة :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

ويعرفون أن الجهاد تجارة مع الله ، وهى تجارة رابحة ، يقول سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . .

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بثمن هو الجنة ، وعبر عن ذلك بقوله :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . .

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ووصف المؤمنين الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الكريمة هو الوصف الذى أحب الصوفية تحقيقه ، وعملوا طيلة حياتهم على إظهاره فى الواقع :

إن حاتما يبدأ طريقه على النسق المعتاد عند الصوفية . .

ونسق الصوفية فى بدء الطريق توجيه الناس إلى التوبة . . ولذلك يخاطب السامعين والقارئين فيقول :

« التوبة أن تنتبه من الغفلة ، وتذكر الذنب ، وتذكر لطف الله ، وحلم الله ، وستر الله ، إذا أذنبت لم تأمن الأرض والسماء أن تأخذك على أية صورة من الصور الكثيرة ، لتعجيل العذاب ، فإذا رأيت حكمه سبحانه فى وجوب التوبة ، فعليك أن تقلع عن الذنوب ، وأن ترجع من الذنوب مثل اللبن إذا خرج من الضرع لا يعود إليه ، فلا تعد إلى الذنب كما لا يعود اللبن فى الضرع » .

وإذا سألت حاتما عن فعل التائب كيف يكون ؟ فإنه يقول : « فعل التائب فى أربعة أشياء :

الأول : حفظ اللسان من الغيبة والكذب ، والحسد واللغو :

والثانى : مفارقة أصحاب السوء . .

والثالث : أنه إذا ذكر التائب الذنب استحى من الله . .

الرابع : الاستعداد للموت . » . . وعلامة الاستعداد : أن لا يكون التائب فى حال من الأحوال غير راض عن الله . .

وإذا سألت حاتما ـ بعد ذلك ـ عن جزاء التائب إذا فعل ذلك قال فى ثقة ، وفى يقين :

« إذا كان التائب هكذا يعطيه الله أربعة أشياء :

أولها : يحبه — كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » — .

وثانيها : أنه سبحانه يخرجه من الذنب ، كأنه لم يذنب ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

وثالثها : يحفظه الله من الشيطان ، فلا يكون للشيطان عليه من سبيل ، كما قال سبحانه لإبليس :

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ورابعها : يؤمنه الله سبحانه من النار قبل الموت ، كما قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ » .

ويثير حاتم مسألة إنسانية تدل على رقة فى الشعور ، وعلى ذوق عال فيما ينبغى أن يكون : وهى مسألة موقف المجتمع من التائب ، ويقول فى ذلك .

يجب على الخلق نحو التائب أربعة أشياء :

أولها : أن يحبوا هذا التائب كما يحبه الله تعالى . .

وثانيها : أن يدعوا له بالحفظ ، ويستغفروا له كما تستغفر له الملائكة الذين يقول الله عن حملة العرش ، وممن حول العرش منهم :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وكان حاتم يذكر الناس دائما بالله ، ويتحدث هنا وهناك عن صلة الإنسان بربه ، وذلك ليوجد فى شعور الناس الانتباه من الغفلة ، والتوبة من الذنوب ، والاستقامة على التوبة ـ إنه يقول : تعهد نفسك فى ثلاثة مواضع :

إذا عملت فاذكر نظر الله إليك .

وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك .

وإذا سكنت فاذكر علم الله فيك » اهـ .

ويقول :

« من ادعى ثلاثا بغير ثلاث ، فهو كذاب :

من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب .

ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب . .

ومن ادعى حب النبى صلى الله عليه وسلم ، من غير محبة الفقراء فهو كذاب » . . .

ومن كلماته :

عجبت ممن يعمل بالطاعات ويقول : إنى أعمل ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله ، رادا لحكمه . أتريد أن ترضيه ولست براض عنه ؟ . . كيف يرضى عنك ولم ترض عنه .

وقال :

« إذا أمرت الناس بالخير ، فكن أنت أولى به وأحق ، واعمل بما تأمر وكذا بما تنهى » .

ولقد قيل لحاتم : ما تشتهى ؟

قال : اشتهى عافية يومى إلى الليل . .

قيل له : أليست الأيام كلها عافية ؟

فقال : إن عافية يومى ، أن لا أعصى الله فيه . . .

ويقول :

« إلزم خدمة مولاك ، تأتك الدنيا راغمة ، والجنة عاشقة » ، ومات حاتم سنة سبع وثلاثين ومائتين ، بعد جهاد مستمر طيلة حياته .

رحمه الله رحمة واسعة . .

أبو تراب النخشبي

(٢٤٥ هـ)

من أجلّ مشايخ خراسان ، يتحدث عنه ابن الجلاّء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة ، فيقول :

« لقيت ستمائة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة :

أولهم أبو تراب النخشبي » . .

أما صاحب « الكواكب الدرية » فيقول عنه :

« وكان شيخ عصره بالاتفاق ، جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق ، متقشفا متوكلا ، متخشعا متبتلا ، قد أضاء فى سماء المعانى بدره ، واشتهر فى الآفاق حسنه وذكره » .

وهذا الذى يذكره صاحب الكواكب تحقق بعد جهاد بالغ ، قام به أبو تراب . .

لقد كان ثالث ثلاثة من أئمة مدرسة صوفية ظهر فيها بوضوح الجهاد الإسلامى بجميع ألوانه :

« جهاد النفس والشهوات والأهواء ، والجهاد العلمى ، والجهاد فى المجتمع ، والجهاد الحربى » . .

وإمام المدرسة هو شقيق البلخى ، وتتلمذ عليه حاتم الأصم ، فكان الإمام الثانى للمدرسة ، وتتلمذ أبو تراب على شقيق وحاتم معا . .

وكما فنى حاتم الأصم فى شقيق لإيمانه بأنه على الحق : كتاباً وسنة ، فقد فنى أبو تراب فى شقيق وحاتم لإيمانه بما هما عليه من الحق : كتاباً وسنة . .

وبدأ أبو تراب — على غرار أستاذيه — بمجاهدة نفسه ، متبعاً مبدأهما الذى يعلن — فيما يرويه أبو تراب عنهما — :

« لو أن رجلا عاش مائتى سنة لا يعرف هذه الأربعة أشياء ، لم ينج من النار إن شاء الله :

أحدها : معرفة الله . .

والثانى : معرفة نفسه . .

والثالث : معرفة أمر الله ونهيه . .

والرابع : معرفة عدو الله وعدو نفسه . .

وتفسير معرفة الله : أن تعرف بقلبك أن لا معطى غيره ، ولا مانع غيره ، ولا نافع غيره ، ولا ضار غيره . .

وأما معرفة النفس : فأن تعرف نفسك أنك لا تضر ولا تنفع ، ولا تستطيع شيئاً من الأشياء ، وخلاف النفس أن تكون متضرعاً إليه . .

وأما معرفة أمر الله ونهيه : فأن تعلم أمر الله عليك ، وأنّ رزقك على الله ، وأن تكون واثقاً بالرزق ، مخلصاً فى العمل . .

وعلامة الإخلاص : ألا يكون منك خصلتان : الطمع والثناء . .

وأما معرفة عدو الله : فأن تعلم أن عدوًّا لك لا يقبل الله منك شيئاً إلا بمحاربته . .

والمحاربة فى القلب : أن يكون محارباً مجاهداً نافياً للعدو من قلبه » . .

وظل أبو تراب يجاهد نفسه طيلة حياته ، ويتدرج فى جهاد النفس من حال سام إلى حال أسمى ، ومن مقام شريف إلى مقام أشرف . .

ومن طرائفه فى جهاده : أنه كان إذا وجد من أتباعه فترة عن العبادة ، أو وجد منهم ما يكره : جدد التوبة إلى الله ، وزاد فى الضراعة إليه ، واتهم نفسه وقال :

« بشؤمى وقعوا فيما وقعوا » وأعلن المبدأ القرآنى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

فكان يجتهد فى العبادة حتى يغير الله ما بأصحابه وأتباعه ، مستشفعاً بعبادته ، وضارباً المثل لأتباعه .

ولقد وقف « أبو تراب » بعرفات خمسا وخمسين وقفة فى حياته . .

ولقد استمر فى هذا الجهاد حتى أصبحت العبادة بالنسبة إليه نعيما ، فقال :

« إذا صدق العبد فى العمل ، وجد حلاوته قبل أن يعمله . .

وإذا أخلص فيه وجد حلاوته قبل مباشرته » . .

لقد جاهد « أبو تراب » نفسه حتى استقامت . .

أما جهاده العلمى فقد ثابر فيه مثابرة مستمرة متبعاً فى ذلك قول الله سبحانه وتعالى لرسوله :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » .

لقد درس وبحث ، وجد ودوّن ، وكتب الحديث الكثير . .

وبلغ من ذلك ما جعل الإمام الكبير « أحمد بن حنبل » يأخذ عنه الحديث . .

يقول صاحب « الكواكب » عنه :

« وكتب الحديث الكثير ، وتفقه على مذهب الشافعي ، وأخذ عنه أحمد بن حنبل ، وابن الجلاء ، وآخرون من الأجلاء » ..

وما كان « أبو تراب » جامداً في أسلوب العرض ، وإنما كان يتحرى أن يكون عرضه العلم متناسباً مع واقع المجتمع وما فيه من أحداث ، وكما قال سيدنا عمر في ذلك :

« تحدثون ويحدث لكم ».

فقد قال أبو تراب :

« إن الله تعالى ينطق العلماء في كل وقت بما يشاكل أعمال أهل ذلك الزمن » ويشير « أبو عبد الرحمن السلمي » إلى زوايا من شخصية أبي تراب فيقول :

« ولما بلغ هذا المبلغ من العلم واستقامة النفس دان له المشايخ ، ودان له المريدون » ..

يقول صاحب « الكواكب » عن هؤلاء وأولئك :

« وَخَدَمَهُ أكابر الصوفية ، وتطفلوا عليه لهمته ..

وخضع المريدون له ، ودانوا ، وتطامنوا لرفعته ، واستكانوا » .

وما من شك في أنه كان أهلاً لكل ذلك ، فقد وصل إلى رتبة الأستاذ ، وكانت دعوته ـ وهو في قمته ـ هي دعوة حاتم الأصم حيث يقول :

« أنا أدعو الناس إلى ثلاثة أشياء :

إلى المعرفة ، وإلى الثقة ، وإلى التوكل » ..

فأما المعرفة : فأن تعلم أن القضاء عدل منه ، فلا ينبغي لك أن تشكو إلى الناس أو تتهم أو تسخط ، ولكن ينبغي لك أن ترضى وتصبر ..

وأما الثقة : فالإياس من المخلوقين ، وعلامة الإياس من المخلوقين ، أن ترفع القضاء منهم .. وإذا رفعت القضاء منهم فقد استرحت منهم ، واستراحوا منك ..

وإذا لم ترفع القضاء منهم ، فإنه لا بد لك أن تَزَيَّنَ لهم وتتصنَّع لهم ، فإذا فعلت ذلك ، فقد وقعت في أمر عظيم ، ووقعوا في أمر عظيم ، وتضع عليهم الموت ، فإذا وضعت عليهم الموت فقد رحمتهم وأيست منهم ..

وأما التوكل : فطمأنينة القلب لموعود الله ، فإذا كنت مطمئنا بالموعود استغنيت غنى لا تفتقر أبداً ..

يحي بن معاذ الرازى

(٢٥٨ هـ)

نشأ يحيى بن معاذ فى أسرة كلها صلاح وتقوى . . وكانت الأسرة تتكون من ثلاثة إخوة : أحدهم يحيى - وهو أوسطهم - أما أكبرهم فإنه إسماعيل ، وأما أصغرهم فإنه إبراهيم .

يقول صاحب كتاب (طبقات الصوفية) : وكلهم زهاد . .

ولد يحيى بن معاذ فى الرى ، وهى مدينة مشهورة ، ولما شب واكتمل خرج من الرى إلى بلخ ، وأقام بها مدة ثم فارقها إلى نيسابور ومكث بها إلى آخر حياته .

ولقد اتخذ يحيى بن معاذ الطريق الصواب فى الأساس ، والطريق الصواب فى النهاية ، ويجمع ذلك أساساً وغاية قوله :

« ثلاث خصال من صفة الأولياء :

الثقة بالله فى كل شىء .

والغنى به عن كل شىء .

والرجوع إليه فى كل شىء . . . » .

والواقع أنه إذا التزم الإنسان ذلك فقد استقام أمره فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين مجتمعه ، وفيما بينه وبين الله . .

وقد بدأ يحيى بن معاذ طريق الاستقامة بالتوبة الخالصة النصوح . .

التوبة التى يعزم الإنسان فيها عزما لا تردد فيه أن لا يأتى الذنب فيما يستأنف من حياته . . . ، . . ويتمثل هذا العزم المؤكد فى قوله :

« زلة واحدة بعد التوبة ، أقبح من سبعين قبلها » .

ومن الأمور التى لاحظها « يحيى » فى كثير من الناس ، والتى أفسدت حياتهم « حب الرياسة » . .

وكان من عمق توبته — أيضاً — أن اقتلعت حب الرياسة من قلبه فقال :

« لا يفلح من شمت منه رائحة الرياسة » .

وكان من عمق التوبة — أيضاً — أن جعلته فى غاية التواضع ، وأن جعلته يحاسب نفسه فى انكسار وحياء من الله سبحانه وتعالى ، فلا يعتد بعمل من أعماله التى تتصل بالعبادة ، ولا يقيم له وزناً ، فيصل به الأمر إلى أن يقول فى مناجاته :

« رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وأنا بالآفات معروف ، وأعتمد فى الذنوب على عفوك وأنت بالجود موصوف » .

وقد يتساءل إنسان قائلا :

« كيف سلك يحيى بن معاذ الطريق ، وكيف استقام أمره ، ما هو المنهج الذى اتبعه حتى صلحت نفسه » . . ؟

وعن هذا الموضوع نذكر نصيحة ليحيى إلى السالكين طريق الله سبحانه ، إنها نصيحة هى نتيجة تجربته الشخصية ، إنها الطريق الذى سلكه هو ، — يقول يحيى :

« أيها المريدون طريق الآخرة والصدق ، والطالبون أسباب العبادة والزهد ، اعلموا أنه من لم يحسن عقله ، لم يحسن تعبد ربه ، ومن لم يعرف آفة العمل ،

لم يحسن أن يحترز منه ، ومن لم تصح عنايته فى طلب الشىء لم ينتفع به إذا وجده .

واعلموا أنكم خلقتم لأمر عظيم ، وخطر جسيم ، وأن العلم لم يرد ليعلم ، إنما أريد ليعلم ويعمل به ، لأن الثواب على العمل بالعلم يقع لا على العلم ، ألا ترى أن العلم إذا لم يعمل به عاد وبالا وحجة .

وانظروا ألا تكونوا معشر المريدين ممن قد تركوا لذة الدنيا ونعيمها ، ثم لا يصدق طلبكم الآخرة ، فلا دنيا ولا آخرة ، وفكروا فيما تطلبون ، فإن من لم يعرف خطر ما يطلب ، لم يسهل عليه الجهل فى جنب طلبه .

واعلموا أنه من لم يهن عليه الخلق لم يعظم عليه الرب ، ومن لم يكن طلبه فى طريق الرغبة والرهبة والشوق والمحبة ، كان متحيراً فى طلبه ، مخلصاً فى عمله ، لا يجد لذة العبادة ، ولا يقطع طريق الزهادة .

فاتقوا الله الذى إليه معادكم ، وانظروا ألا تكونوا ممن يعرفهم جيرانهم وإخوانهم بالخير والإرادة ، والزهادة والعبادة ، وحالكم عند الله على خلاف ذلك فإن الله يجزيكم على ما يعرف منكم ، لا على ، ما يعرفه الناس — ، ولا تكونوا ممن يولع بصلاح الظاهر ، الذى إنما هو للخلق ، ولا ثواب عليه بل عليه العقاب ، ويدع الباطن الذى هو لله ، وله الثواب ولا عقاب عليه » . .

هذا الطريق الذى رسمه يحيى بن معاذ للمريدين ، هو الطريق الذى سار فيه حتى تزكى . .

وحينما تزكى رأى عليه نحو المجتمع واجباً هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

لقد أخذ يحيى بن معاذ يجاهد نفسه جهاد المستميت ، حتى استقامت ، فأخذ فى جد يعمل بما أمر الله سبحانه وتعالى به ، من محاولة إصلاح المجتمع ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

يقول صاحب « الكواكب الدرية » عنه :

« كان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، له سطوة تكف الأيدى عن الجور ، ومهابة تزعزع كل جبار .

ونزل يحيى إلى المجتمع — فى قوة — آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، واعظا مهذبا يتجه إلى هؤلاء الذين يختالون بأعمالهم ، فيقول لهم :

« أعمال كالسراب ، وقلوب من التقوى خراب ، وذنوب بعدد التراب ، وتطمع مع هذا فى الكواعب الأتراب ؟ ! هيهات هيهات ، أنت سكران بغير شراب » . .

● ● ●

الإمام أبو حفص النيسابورى شيخ خراسان

(م ٢٧٠ هـ)

يقول عنه صاحب الكواكب الدرية :

« كان عظيم الشأن ، عالى المقام ، واضح البرهان ، مباركا على صوفية الإسلام، وتربيته عائدة عليهم بصلات المعارف التى لا تحصرها الأقلام .

مشكور السيرة فى السر والجهر ، من نوادر العصر ، وأفراد الدهر ، له الفتوة الكاملة والمروءة الشاملة » .

ويقول عنه أبو عبد الرحمن السلمى :

« كان أحد الأئمة والسادة » .

ويقول عنه الإمام أبو نعيم الأصبهانى :

كان أحد المتحققين ، له الفتوة الكاملة ، والمروءة الشاملة .

تخرج به عامة الأعلام النيسابوريون ، منهم أبو عثمان النيسابورى وشاه الكرمانى .

وأبو حفص من أهل قرية يقال لها كُورْدَاباذَا ، وهى قرية على باب مدينة نيسابور إذا خرجت إلى بخارى كما يقول صاحب طبقات الصوفية .

ولقد كان أبو حفص يسير فى تصوفه على المنهج السليم الذى اتبعه جميع أئمة التصوف الصادقين وهو اتخاذ الكتاب والسنة أساسا ومقياسا .

يقول أبو حفص وقد سئل عن الرجال من هم :

الرجال هم القائمون مع الله بوفاء العهود ، قال الله تعالى :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومن الرجال أيضا يقول أبو حفص :

« من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده فى ديوان الرجال » وكان يرى أن الإنسان لا يتأتى له أن يرقى إلى الدرجات العالية فى التصوف إلا إذا التزم أصلا صحيحا . ويقول :

« ما ظهرت حالة عالية إلا من ملازمة أصل صحيح .

والأصل الصحيح إنما هو الكتاب والسنة .

وقياما على هذا الأصل واتباعا له يقول :

« أحسن ما يتوسل به العبد لمولاه : دوام الفقر إليه فى كل حال ، وملازمة السنة فى جميع الأفعال ، وطلب القوت من الحلال .

ومن أجمل ما رسمه لأتباعه ومريديه مأخوذاً من الكتاب والسنة قوله :

تحرز من إبليس بمخالفة هواك ، وتزين لله بالصدق والإخلاص فى العمل ، وتعرض للعفو بالحياء منه والمراقبة ، واستدم النعمة بخوف زوالها ، ولا عمل كطلب السلامة ، ولا سلامة كسلامة القلب . ولا عقل كمخالفة الهوى ، ولا فقر كفقر القلب ، ولا غنى كغنى النفس ، ولا قوة كرد الغضب ، ولا نور كنور اليقين ، ولا يقين كاحتقار الدنيا ، ولا معرفة كمعرفة النفس ، ولا نعمة كالعافيه من الذنوب ، ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة فى الدرجات ، ولا عدل كالإنصاف ، ولا تعدى كالجور ، ولا عدم كعدم العقل ، ولا عدم عقل كقلة يقين ، ولا قلة يقين كفقد الخوف ، ولا فضيلة كالجهاد ، ولا جهاد كمجاهدة النفس ، ولا ذل كالطمع » ا هـ

واتباعا للرسم القرآنى فى العمل والسلوك كان يقول هذه الكلمة العجيبة فى صدقها .

« المعاصى بريد الكفر ، كما أن الحمّى بريد الموت »

وإذا كان أبو حفص يعمل دائما على أن يكون أتباعه من الطائعين لله ورسوله ، فإنه كان يحذر دائما من المعاصى تحذيراً يجمله بقول :

« إنى لأمرض فأعرف الذنب الذى بسببه المرض »

وما كان فى قوله هذا إلا متابعا للكتاب والسنة ، يقول الله تعالى :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »

وقد جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة فى تفسير هذه الآية الكريمة ما رواه الإمام الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تصيب عبد نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »

ولقد روى ابن عساكر قوله صلى الله عليه وسلم :

« والذى نفسى بيده ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر »

وإذا كنا قد حاولنا فيما سبق أن نظهر تمسك أبى حفص بالكتاب والسنة فإننا سنحاول فيما يلى بيان رأيه فى موضوع من أهم الموضوعات التى تثير عادة الحديث فى مجال التصوف ، وذلك هو موضوع الزهد .

أيتنافى الزهد مع الثراء ؟ أمن الحتم أن يكون الزاهد فقيراً ؟

إن أبا حفص يرى أولا أن الزهد شىء فى القلب لا شأن له بالمظهر الخارجى ، ومن أجل ذلك يقول :

« لا تشهد لأحد بالزهد فإنما هو شىء فى القلب »

أى أن الزهد لا يتصل فى قليل ولا فى كثير بالثراء ، أو بالفقر ، فقد يكون الشخص من أصحاب الملايين وهو زاهد ، وقد يكون من أصحاب الملاليم ومع ذلك فهو غير زاهد .

وقد يتساءل إنسان : هل يتأتى أن يكون الإنسان فى ثراء قارون أو بلعام ، ويكون زاهداً ؟

ويجيب عن ذلك أبو حفص فيقول :

ما أوتى مَنْ أوتى من قارون ، وبلعام ، إلا أن أصل نياتهم على غش ، فرجعوا إلى الغش ، الذى فى قلوبهم ، والله أكرم من أن يمن على عبد بصدق ثم يسلبه إياه . .

والمسألة إذن ـ فيما يرى أبو حفص ـ إنما هى مسألة النية والقلب ، وليست مسألة الفقر والغنى المادى ؛ وهو يحدد رأيه فيقول :

« الزاهد حقًّا لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت » .

وهذا الرأى إنما هو تحقيق لقوله تعالى :

« لِكَيْلاَ تَأْسَوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

واستمر أبو حفص داعياً إلى الله ، إلى أن اختاره الله لجواره سنة سبع وستين ومائتين ، وهو القائل :

« أهل الطاعة فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا » .

وهو القائل أيضاً :

« من تجرع كأس الشوق يهيم هياماً لا يفيق إلا عند المشاهدة واللقاء » .

حمدون القصار ومذهب الملامتية

(م ٢٧١ هـ)

يقول « السلمى عن حمدون :

« شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة » ويقول .

« وطريقته — أى طريقة الملامة — طريقة اختص هو بها »

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » عنه :

أحد الأئمة الكبار ، مواعظه سديدة ، وكلماته مفيدة ، ودياناته وافية وافرة ، وشمس مناقبه وكراماته باهرة سافرة ، وهو شيخ الملامتيه » .

والملامتية : معناها هؤلاء الذين يوجهون اللوم إلى أنفسهم .. لقد نظر حمدون فى أمور الإنسان ، فوجد أن النفس تتخذ طرقا عدة لإرضاء الشهوات والغرائز ، ورأى أن الإخلاص الصادق نادر ، وأن الوصول إليه عزيز .. وذلك : أن حب الثناء والمدح والرياسة ، من أشد الأمور تعمقا وتغلغلا فى النفس، ويتبع ذلك الرياء الخفى .

وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : شركا ..

والرياء يحبط العمل ، والله سبحانه وتعالى يقول :

« ألا لله الدينُ الخالص » .

ويقول :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

ومعنى ذلك :

أن الله سبحانه وتعالى ، لايقبل من العمل إلا كان خالصاً لوجهه الكريم .

ويصور رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما رواه عن ربه — حبوط الأعمال بالرياء :

فمن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تبارك وتعالى يقول :

« أنا خير شريك ، فمن أشرك معى شريكا ، فهو لشريكى » .. يا أيها الناس : أخلصوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى، لايقبل من الأعمال إلا ما خلص له ، ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ، فإنها للرحم ، وليس لله منها شيء .. ولاتقولوا : هذه لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم ، وليس لله منها شيء »[1] .

لابد — إذن — من مجاهدة النفس مجاهدة شديدة ، ولابد — مع ذلك — من إخفاء العبادة ، حتى لا يكون فيها رياء .. ولابد من الاجتهاد فى العبادة ، حتى يرضى الإنسان ربه .. ثم إن السلوك فى المجتمع يجب أن يكون سلوكا عاديا بل يجب أن يتعرض الإنسان أحياناً للوم ، ولكن بسبب لايغضب الله سبحانه ، ومن أجل هذا التعرض للوم سمى المذهب مذهب الملامتية ..

يقول حمدون :

« للخلق فى يوسف عليه السلام آيات ، وليوسف فى نفسه آية ، وهى من أعظم الآيات : معرفته بمكر النفس وخداعها حين قال :

---

(١) رواه البزار باسناد لا بأس به ، والبيهقى .

« وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

ويتحدث « حمدون » عن طباع الخلق فيقول :

« قد أخبر الله تعالى عن حقيقة طباع الخلق فقال :

« لو ملكتم ما أملكه من فنون الرحمة ، وخزائن الخير : لغلب عليكم سوء طباعكم فى الشح والبخل ، وذلك فى قوله تعالى :

« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً » .

وجاهد حمدون نفسه ، حتى استقامت ، وتعرض حمدون للملامة ، ومن الحوادث التى لها مغزاها فى توضيح سلوكه مع الناس ،أن رجلا أخذ يسبه ويشتمه فسكت حمدون عن الرد ، وقال له : « ياأخى : لو نقصتنى كل نقص ، لم تنقصنى كنقصى عندى ، ثم قال : تسفه رجل على « إسحاق الحنظلى » فاحتمله وقال .

لأى شىء تعلمنا العلم ؟

وبعـــد :

فإنا نختم هذا الحديث عن حمدون ، بقول صاحب الكواكب عنه :

ولم يزل على حاله ، راقيا فى كماله ، إلى أن غاب بدره فما طلع ، وسار على النعش فما رجع ، سنة إحدى وسبعين ومائتين ، ودفن بنيسابور .

وقد أسند الحديث عن جماعة وروى عنه آخرون . .

أبو عثمان سعيد بن إسماعيل النيسابورى

(٢٩٨ هـ)

يقول عنه أبو عبد الرحمن السلمى :

وهو ـ فى وقته ـ من أوحد المشايخ فى سيرته ، ومنه انتشر طريق التصوف فى نيسابور . .

أما عبد الله بن محمد الرازى فإنه يقول :

« لم أر أحداً أعرف بالطريق إلى الله عز وجل من أبى عثمان » . .

ويتحدث عنه صاحب « الكواكب الدرية » فيقول :

« شيخ الجماعة ، ومقدم الطائفة ، إمام جليل ، وحَبْرٌ نبيل ، وعارف لا يحتاج نهار فضله إلى دليل » .

وقد أقام بنيسابور متلمذاً على أستاذه أبى حفص ، ويصف هو صلته بأبى حفص فيقول :

صحبت أبا حفص مدة وأنا شاب فطردنى مرة ، وقال :

لا تجلس عندى .

فقمت ، ولم أوله ظهرى ، وانصرفت إلى ورائى ووجهى فى وجهه حتى غبت عنه ، وجعلت على نفسى أن أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا بأمره ، فلما رأى ذلك : أدنانى ، وجعلنى من خواص أصحابه » .

ولعل القارئ يرى فى هذه الحادثة بعض الغرابة ، ولعله يعتب فى نفسه على أبى حفص ، ولكن شيخ الإسلام أبا زكريا الأنصارى رضى الله عنه يشرح الأمر فيقول :

« فى ذلك دلالة على قوة رغبة أبى عثمان فى الخير ، واحتمال ما يتلقاه من الأذى فى ذلك ، وهذه وصية المريدين الراغبين فى السلوك ، لأن المشايخ إنما يطردون شخصاً لإساءة أدبه ، وقد يطردونه امتحاناً : ليعرفوا شدة رغبته فى الخير . .

وفيه دلالة أيضاً على أن المريد إذا أبعده الله لزلة لا يذهب مع شهوته ، بل يرجع إليه بالتوبة ، ويلزم الباب » .

ومن طريف ما يروى من خلق « أبى عثمان » المتواضع ، البعيد كل البعد عن الكبرياء والخيلاء : أن رجلا دعاه إلى ضيافته ، فلما وافى باب داره ، رده الرجل قائلا :

يا أستاذ ارجع قد ندمت على دعوتك ، فرجع أبو عثمان ، فلما أتى منزله عاد الرجل إليه وقال له : احضر الساعة . .

فقام معه ، فلما وافى باب داره ، قال له مثل ما قال فى المرة الأولى ! فعاد إلى داره .

ثم فعل به مثل ذلك ثالثا ورابعا وأبو عثمان يحضر ويرجع ، فلما فعل ذلك، اعتذر الرجل إليه ، وقال :

يا أستاذ أردت اختبارك ، وأخذ يمدحه ويثنى عليه . . فلم ينخدع أبو عثمان بالمدح والثناء ، وقال للرجل :

لا تمدحنى على خلق تجد مثله مع الكلاب ، إن الكلب إذا دعى حضر ، وإذا زجر انزجر .

وأبو عثمان الذى يفعل ذلك هو الذى يقول :

« اصحب الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل : فإن التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء تواضع » .

ويقول :

« علامة السعادة أن تطيع الله ، وتخاف أن تكون مردوداً ، والشقاوة أن تعصيه ، وترجو أن تكون مقبولا » .

وأدق وصف لأبى عثمان هو ما يقوله محمد بن الفضل البلخى :

« إن الله تعالى زين أبا عثمان بفنون عبوديته ، وأبرزه للناس ليعلمهم آداب العبودية » .

كانت آداب العبودية هى شغل أبى عثمان الشاغل طيلة حياته : يحققها فى نفسه ويعلمها للناس . . ولا ريب فى أن الأساس فى تحقيق العبودية إنما هو الاتباع الدقيق للشرع ، يقول أبو عثمان :

من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى عليها نطق بالبدعة ، لقوله تعالى :

« وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا » .

وإذا سألت أبا عثمان عن « الصحبة » فإنه يسير مع منهج العبودية قائلا :

الصحبة مع الله عز وجل بحسن الأدب ، ودوام الهيبة ، والمراقبة . . .

والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم .
والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والحرمة .
والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخلق .
والصحبة مع الإخوان بدوام البشر والانبساط مالم يكن إثماً .
والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة عليهم ، ورؤية نعمة الله عليك أن عافاك مما ابتلاهم به .

ويتحدث « أبو عثمان » عن صلاح القلب ، كيف يكون ؟ وبم يكون ؟
فيقول متمشياً مع مبدأ العبودية :
« صلاح القلب فى أربع خصال :
فى التواضع لله ، والفقر إلى الله ، والخوف من الله ، والرجاء فى الله » .

هذه الصورة لأبى عثمان جعلت العلماء يقدرونه تقديراً يليق به ، يقول أبو نعيم عن الأولياء :
« ومنهم العارف الفاصح ، والعابد الناصح ، كان بالحكم منطيقا فصيحا ، وللمريدين شفيقا نصيحا ، علمهم الآداب الرفيعة ، ونبههم على ملازمة الشريعة . . كان إلى موافقة الحق مجذوباً ، وعن حظوظ النفس مطهراً مسلوباً : أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد الحيرى » .
وكلمة الحيرى نسبة إلى الحيرة التى بنيسابور ، لا إلى الحيرة القريبة من الكوفة .
ويتابع أبو نعيم حديثه عنه فيقول :
« رَازِىُّ المولد ، خرج زائراً إلى أبى حفص النيسابورى ، مع شيخه شاه الكرمانى ، فقبله أبو حفص ، وحبسه عنده ، وصار له سكناً ، وعلى ابنته ختنا (أى أنه زوّجه ابنته) .

كان حميد الأخلاق ، مديد الأرفاق (أى كثير البر بالناس والنفع لهم) .
بقيت بركته وآثاره على أهل نيسابور ، وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فيما ذكره لى أبو عمرو بن حمدان الذى حضر الصلاة عليه » اه .
ودفن أبو عثمان بمقبرة الحيرة بجوار قبر أستاذه أبى حفص النيسابورى .
وقد أسند « أبو عثمان » الحديث ، ومن الأحاديث التى رواها حديث يجدر بمن يحبون آباءهم وأقاربهم الذين ذهبوا إلى رحمة الله أن يعملوا به ، عن نافع ، عن ابن عمر رضى الله عنهم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من مات وعليه صوم شهر رمضان أطعم عنه وليه كل يوم مسكيناً » .

مقدمة الكتاب للمؤلف

الحمد لله العظيمُ شأنه ، القويّ سلطانه ، الظاهر إحسانُه ، الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب[1] بالجلال والمنفرد بالكمال ، والمتردّى بالعظمة فى الآباد والآزال ، لا يُصوّره وهمٌ وخيال ، ولا يحصره حدٌ ومثال ، ذى العزّ الدائم السرمدى ، والمُلْكِ القائم الديمومىّ ، والقدرة الممتنع إدراكُ كُنهها ، والسطوة المستوعر[2] طريقُ استيفاء وصفها . نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع[3] ، ولاح فى صفحات ذرّات الوجود بأنه الخالق المخترِع ، وَسَمَ عقلَ الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحاتِ الألسن وصفَ الحصر فى حَلْبة[4] البيان ، وأحرقت سُبُحات[5] وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم ، وسدّت تعزّزاً وإجلالاً مسالك الوهم ، وأطرق طامح البصيرة تعظيماً وإجلالاً ، ولم يجد من فرط الهيبة فى فَضَاء الجبروت مجالاً ، فعاد البصر كليلاً والعقل عليلاً ، ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلاً ، فسبحان مَن عزّت معرفته لولا تعريفُه ، وتعذّر على العقول تحديدُه وتكييفه ، ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان ، وخَصّهم من بين عباده بخصائص الإحسان ، فصارت ضمائرهم من مواهب الأُنس مملوءة ، ومرائى قلوبهم بنور القدس مَجلوّة ، فتهيّأت لقبول الأمداد القدسية ، واستمدت لورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس القطِرة بالأذكار جُلاّساً ، وأقامت على الظاهر والباطن من

---

(١) المحتجب : يقال : الله محتجب لا محجوب [انظر قول ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : الحق ليس بمحجوب ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه . الخ ص ١٢٧ ط شرح ابن عباد (٢) يقال : جبل وعر ، أى : صعب المسلك

(٣) الإبداع : اختراع الشىء لا على مثال

(٤) الحلبة [بتسكين اللام] خيل يجمع للسباق . والمراد هنا : المحل والموضع

(٥) السبحات بضم السين : الأنوار

التقوى حراساً ، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراساً[(١)] ، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها ، وأنكرت مصايد الهوى وتِبِعاتها ، وامتطت غوارب[(٢)] الرغبوت والرهبوت[(٣)] ، واستفرشت بعلو همتها بساطَ الملكوت ، وامتدت إلى المعالى أعناقُها ، وطمحت إلى اللامع العلوى أحداقُها ، واتخذت من الملأ الأعلى مُسامراً ، ومُحاوراً ، ومن النور الأعزّ الأقصى مُزاوراً ومُجاوراً . أجسادٌ أرضية بقلوب سماوية ، وأشباح فَرشية بأرواح عَرشية ، نفوسُهم فى منازل الخدمة سيّارةٌ ، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة مذاهبهم فى العبودية[(٤)] مشهورة ، وأعلامهم[(٥)] فى أقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم : فُقدوا ، وما فقدوا ، ولكن سمت أحوالهم فلم يُدركوا ، وعلا[(٦)] مقامُهم فلم يُملكوا ، كائنين بالجثمان ، بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان ، لأرواحهم حول العرش تَطْواف ، ولقلوبهم من خزائن البرّ إسعاف ، يتنعمون بالخدمة فى الدياجر[(٧)] ، ويتلذذون من وهج الطلب بِظمأ المواجر ، سلوا[(٨)] بالصلوات عن الشهوات ، وتعوّضوا بحلاوة التلاوة عن اللذّات ، يلوح من صفحات وجوههم بِشرُ الوجدان ، وينمُّ على مكنون سرائرهم نضارةُ العرفان ، لا يزال فى كل عصر وأوان منهم علماء قائمون بالحقّ ، داعون للخلق ، منحوا بحسن المتابعة رتبةَ الدعوة ، وجُعلوا للمتقين قدوةً ؛ فلا تزال تظهر فى الخلق آثارهم ، وَتَزهَر[(٩)] فى الآفاق أنوارُهم ، من اقتدى بهم اهتدى ،

(١) مصباحاً (٢) الغوارب جمع غارب ، وهو ما بين السنام والعنق والمراد هنا العلو (٣) أرهبه واسترهبه أى أخافه . والرغبوت والرهبوت صيغتا مبالغة من الرغبة والرهبة (٤) العبودية أقوى من العبادة ، لأن العبودية الرضا بفعل الرب ، فعل ما يرضى به الرب ، والعبادة تسقط فى العقبى والعبودية لا تسقط ومشهورة أى أنهم يأخذون بالأحوط والأولى عند اختلاف الأقاويل ويدءون على الأعمال الظاهرة والباطنة من غير تعطيل . (٥) أى أعلام ولا يتهم (٦) علا مقامهم بالزهد فى الدنيا وأربابها فلم يسترقهم الطمع (٧) الدياجر : شده الظلمة ، والمواجر جمع هاجرة وهى نصف النهار . والوهج الحرارة (٨) قنعوا . (٩) تضىء

ومن أنكرهم ضلّ واعتدى ، فلله الحمد على ما هيّأ للعباد من بركة خواصّ حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيِّه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد .

ثم إن إيثارى لِهَدْىِ هؤلاء القوم ومحبتى لهم ، علماً بشرف حالهم ، وصحة طريقتهم المبنيّة على الكتاب والسنة المتحققِ بهما من الله الكريم الفضلُ والمنّة ، حدانى أن أذُبَّ عن هذه العصابة[(١)] ، بهذه الصبابة ، وأؤلف أبواباً فى الحقائق والآداب ، مُعرِبة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه ، مُشعرةً بشهادةِ صريح العلم لهم فيما اعتقدوه ، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم ، وتسترّ بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم ، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سَلفهم سوءُ ظن ، وكاد لا يسلم من وقيعة[(٣)] فيهم وطعن ، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم ، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم .

ومما حضرنى فيه من النيّة : أن أُكَثِّر سواء القوم بالاغتراء[(٤)] إلى طريقهم والإشارة إلى أحوالهم وقد ورد : من كَثَّر سواء قوم فهو منهم » .

وأرجو من الله الكريم صحةَ النية وتخليصها من شوائب النفس ، وكل ما فتح الله تعالى علىّ فيه مِنحٌ[(٥)] من الكريم وعوارفٌ ، وأجلّ المِنح عوارف المعارف .

والكتاب يشتمل على نيف[(٦)] وستين باباً ، والله المعين .

(١) أذب : أدافع . والعصابة : الجماعة من الناس . والصبابة : البقية من الماء فى الإناء
(٢) معربة : مفصحة ومظهرة (٣) يقال وقع فى الناس وقيعة أى اغتابهم :
(٤) الانتساب
(٥) المنح جمع منحة وهى العطاء ، والعوارف جمع عارفة وهى الإحسان . والمعارف جمع المعرفة وهو الوجه والمراد به : رءوس القوم وساداتهم ؛ لأن من عادة العرب أن يقولوا لساداتهم «وجوه القوم» فسمى الشيخ كتابه عوارف المعارف؛ لأنها عطاياء أكابر المشايخ .
(٦) نيف = زيادة ، وكل ما زاد على العقد فهو نيف .

الباب السابع والأربعون : فى آداب الانتباه من النوم والعمل بالليل .

« الثامن والأربعون : فى تقسيم قيام الليل .

« التاسع والأربعون : فى استقبال النهار والأدب فيه .

« الخمسون : فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات .

« الحادى والخمسون : فى آداب المريد مع الشيخ .

« الثانى والخمسون : فيما يعتمده الشيخ مع الأصحاب والتلامذة .

« الثالث والخمسون : فى حقيقة الصحبة ، وما فيها من الخير والشر .

« الرابع والخمسون : فى أداء حقوق الصحبة والأخوّة فى الله تعالى .

« الخامس والخمسون : فى آداب الصحبة والأخوّة فى الله .

« السادس والخمسون : فى معرفة الإنسان نفسَه ، ومكاشفات الصوفية فى ذلك .

« السابع والخمسون : فى معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها .

« الثامن والخمسون : فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما .

« التاسع والخمسون : فى الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز .

« الستون : فى ذكر إشارات المشايخ فى المقامات على الترتيب .

« الحادى والستون : فى ذكر الأحوال وشرحها .

« الثانى والستون : فى شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال .

« الثالث والستون : فى ذكر شىء من البدايات والنهايات وصحتها .

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى مشتملةً على بعض علوم الصوفية ، وأحوالهم ، ومقاماتهم ، وآدابهم ، وأخلاقهم وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيق إشاراتهم ولطيف اصطلاحاتهم ، فعلومهم كلُّها

إنباءٌ عن وجدان ، واعتزاءٌ إلى عرفان ، وذوقٌ تحقّق بصدق الحال . ولم يفِ باستيفاء كُنهه صريحُ المقال ؛ لأنها مواهب ربّانية ، ومنائح حقّانية ، استنزلها صفاء السرائر ، وخلوص الضمائر ، فاستمصت بكنهها على الإشارة[(١)] ، وطفحت[(٢)] على العبارة ، وتهادتها الأرواح بدلالة التشامّ والائتلاف ، وكَرَعَت حقائقها من بحر الألطاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم ، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم ؛ وقد قال الجنيد ، رحمه الله تعالى ، : « علمنا هذا قد طُوِيَ بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتكلّم فى حواشِيه » بدا هذا القول منه فى وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحى التابعين ، فكيف بنا مع بُعد العهد وقلّة العلماء الزاهدين ، والعارفين بحقائق علوم الدين . . !!

والله المأمول أن يقابِل جُهدَ المقلّ بحسن القبول .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أى : لا تفى الإشارة بحقائقها .

(٢) طفحت : امتلأت وعلت . وطفحت على العبارة أى : ضاقت عن احتمالها . والتهادى أن يهدى بعضهم إلى بعض ، أى يهدى تلك المواهب الإلهية المشايخ الصديقون إلى المريدين بالائتلاف السابق فى عالم الأرواح ، والتشام اللاحق فى عالم الأشباح (روائح صدق الإرادة وحسن الاستعداد وقبول خصوص الفيوض والإمداد) . والتشام من : شممت الشىء : شممته فى مهلة ، والمشامة : المفاعلة منه . والتشام : التفاعل . وكرعت : شربت ، من بحر الألطاف لا بدلالات العقول والنقول بل بالإلهام الذى لا يناله إلا أهل الاختصاص المتحققون بحقائق الصدق والإخلاص .

الباب الأول

فى ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بنُ عبد الله بن محمد السُّهروردى إملاء من لفظه فى شوال سنة : ستين وخمسمائة، قال : أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبىّ ، قال : أخبرتنا كريمةُ بنت أحمد ابن محمد المروزيّة المجاورة بمكة . حرسها الله تعالى ، قالت : أخبرنا أبو الهيثم محمد ابن مكىّ الكشميهنى ، قال : أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى قال : حدثنا أبو كريب قال حدثنا أبو أسامة عن بُريد ، عن أبى بُردة ، عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قومى ، إنّى رأيت الجيش بعينى ، وإنّى أنا النذير العُريان ، فالنجاء . . النجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجو[1] ، فانطلقوا على مهلهم فنجَوْا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ماجئتُ به ، ومثلُ مَن عصانى وكذّب بما جئت به من الحقّ » .

معنى : اجتاحهم : استأصلهم ، ومن ذلك الجائحة التى تفسد الثمار .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل ما بعثنى الله به من الهُدَى والعلم كمثل

---

(١) أدلجوا : ساروا فى أول الليل ، وصبحهم . أتاهم صباحاً . والنذير : للنذر أى أنذركم جيشا ، والعريان أى : عرتنى الجيش ، وأخذوا ثيابى وأنا أنهاكم شفقة عليكم لا أطلب منكم أجراً على هذا التنبيه والإنذار . والاجتياح : الإهلاك .

الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أخاذات أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا ، وسقوا ، وزرعوا ، وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تُمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل مَن فَقُه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فَعَلِم وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يَقْبل هدى الله الذى أُرسلت به »[1].

قال الشيخ : أعدَّ الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصفى القلوب وأزكى النفوس ، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع ؛ فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وهذا مثَل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى ، ونفعه علمُه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذات — أى : الغدران : جمع أخاذة ، وهى المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء — فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت وقلوبهم صفت ؛ فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات .

(١) يشير الشيخ بإيراد الحديث الأول إلى أن منشأ علوم الصوفية أولا أن يتحقق الصوفى فى نفسه أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو عن كشف ومشاهدة وعيان لا عن ظن وحسبان فيجزم بانه لا يتخلص من جنود تسويلات النفس وتخيلات الشيطان إلا بأن يسرع فى إجابته صلى الله عليه وسلم ومتابعته ويترك مقتضيات طبعه ويحذر من موجبات قطيعته ويهجر منازل الشهوات ويترك مواطن الغفلات . ويفر من الأغيار ولا يسكن مواقع الاغترار وليحصر قلبه لما يهمه . فينشرح صدره وينبسط سره بالإلهيات الإلهية والتعليمات النبوية ويشير بالحديث الثانى إلى أن الترقى فى مراتب الإيمان والعرفان على قدر قبول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا استعمل جميع ما جاء به صلى الله عليه وسلم على قدر الطاقة وسعة وعاء البشر فقد انتفع ونفع نفعا عاماً . والحديثان رواهما البخارى .

قال مسروق : « صحبتُ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالأخاذات ؛ لأن قلوبهم كانت واعيةً فصارت أوعيةً للعلوم بما رُزقت من صفاء الفهوم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازةً قال : أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى قال : أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزادى قال : أبو إسحاق أحمد بن محمد الثعالبى قال : أنبأنا ابن فَنْجويَةَ قال : حدثنا ابن حَيّان ، قال : حدثنا إسحاق بن محمد قال : حدثنا أبى ، قال : حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال : حدثنا علىُّ بن علىّ ، قال : حدثنا أبو حمزة الثمالى ، قال : حدثنى عبد الله بن الحسن قال : حين نزلت هذه الآية : (وتَعيها أُذُنٌ واعية[1]) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علىّ . قال علىّ : فما نسيت شيئاً بعد وما كان لى أن أنسى .

قال أبو بكر الواسطى[*] : « آذان وعت عن الله تعالى أسراره » .

وقال أيضاً : واعية فى معادنها[2] ليس فيها غير ما أشهدها شىء ، فهى الخالية عما سواه . فما اضطرابُ الطبائع إلا ضرب من الجهل ؛ فقلوب الصوفية

(١) من آية ١٢ من سورة الحاقة والحديث مرسل رواه ابن أبى حاتم وابن جرير (ابن كثير) .

(*) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى ، خراسانى الأصل من « فرغانة » عالم كبير الشأن . أقام بـ « مرو » ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة من الهجرة ، ومن كلامه : « الناس على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى من الله عليهم بأنوار الهداية فهم معصومون من الكفر والشرك والنفاق ، والطبقة الثانية من الله عليهم بأنوار العناية فهم معصومون من الصغائر والكبائر . والطبقة الثالثة من الله عليهم بالكفاية فهم معصومون عن الخواطر الفاسدة » .

(٢) المعادن : القلوب . أى ليس فيها غير الله ، فهى الخالية عما سواه .

واعية ؛ لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ، فلما عَدِمُوا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد : تفتّحت مَسَامُّ بواطنهم ، وسمعت آذانُ قلوبهم ، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا ؛ فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا عِلماً بالكتاب والسنّة واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، ورحم الله بهم الدين .

وعَرف علماء التفسير وجهَ التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العرب فى اللغة ، وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنّفوا فى ذلك الكتب ، فاتّسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمّة .

وأئمةُ الحديث ميّزوا بين الصحاح والحسان ، وتفرّدوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال ، وحكموا بالجرح والتعديل ، ليتبين الصحيح من السقيم ، ويتميّز المعوّج من المستقيم ، فينحفظُ بطريقهم طريقُ الرواية والسند حفظاً للسنة .

وانتدب[١] الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع فى المسائل ، ومعرفة التعليل ، وردّ الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع واستيعاب الحوادث بحكم النصوص .

وتفرّع من علم الفقه والأحكام علمُ « أصول الفقه » ، وعلم « الخلاف » ، وتفرّع من عِلم الخلاف « عِلم الجدل » وأحوجَ علمُ أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم « الفرائض » ولزم منه عِلم « الحساب ، والجبر ، والمقابلة » إلى غير ذلك فتمهدت الشريعة وتأيدت ، واستقام الدين الحنيفى وتفرّع ، وتأصل الهدىُ النبوى المصطفوى فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ

(١) ندبه للأمر فانتدب له ، أى : دعى له فأجاب .

والعشبَ بما قبلت من مياه الحياة من الهُدى والعلم ، قال الله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقَدرها)[١] قال ابن عباس ، رضى الله تعالى عنهما : الماء : العلم ، والأودية : القلوب .

قال أبو بكر الواسطى ، رضى الله تعالى عنه : خلق الله تعالى دُرّةً صافية فلاحظها بعين الجلال ، فذابت حياء منه فسالت ، فقال : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقَدرها) فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها .

وقال ابن عطاء[*] : (أنزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد ، وذلك[٢] إذا سال السيل فى الأودية ، لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها ، وذهب بها ، كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه لا تبقى فيه غفلة ولا ظُلمة ، قال الشيخ : (أنزل من السماء ماء) يعنى : قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعنى فى القلوب الأنوارُ على ما قسم الله تعالى لها فى الأزل (فأما الزبد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منورّة لا تبقى فيها جفوة (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) تذهب البواطل وتبقى الحقائق . وقال بعضهم : (أنزل من السماء ماء) أنواع الكرامات[٣] ، فأخذ كلُّ قلب بحظّه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بِقَدَرِها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا المتمسكين بحقائق التقوى

(١) الرعد : ١٧ .

(*) ابن عطاء : أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروزبارى ثم الصورى ، كان شيخ الشام فى وقته مفتيا فى علوم الشريعة والحقيقة علا فى طريق القوم ، قدره واشتهر ذكره مات بصور سنة ٣٦٩ هـ ذكره القشيرى فى آخر رسالته فى آخر من ذكر من المشايخ .

(٢) أى بيان المثل .

(٣) أى : كرامات الخواص .

بقدرها ، فمن كان في باطنه لوثُ همة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفًا صالحًا ، ولم يحظ بحقائق العلوم .

ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم ، واجتمعت ، وصارت أخاذات .

قيل للحسن البصرى(*) . هكذا قال الفقهاء ، قال : وهل رأيتَ فقيهًا قط !! إنما الفقيه الزاهدُ في الدنيا .

فالصوفية أخذوا حظًا من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علموا أفادهم العملُ علم الوراثة ؛ فهم مع سائر العلماء في علومهم ، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة ؛ وعلم الوراثة هو الفقه في الدين، قال الله تعالى : (فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم)(١) فصار الإنذار مستفاداً من الفقه . والإنذار : إحياء المنذَر بماء

(*) الحسن البصرى : هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى : تابعى كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه . وهو أحد العلماء الفقهاء الشجعان النساك ولد بالمدينة ٢١ هـ ٦٤٠ م وشب في كنف على بن أبي طالب ، واستكتبه الربيع بن زياد والى خراسان في عهد معاوية وسكن البصرة ، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم قال الغزالى : « كان الحسن البصرى أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء وأقربهم هديا من الصحابة ، وكان في غاية الفصاحة تتصبب الحكمة من فيه ، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف هائلة وقد سلم من أذاه وقد توفى بالبصرة ١١٠ هـ ٨٢٧ م (انظر في ترجمته : تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان . والأعلام للزركلى) .

(١) آية ١٢٢ من سورة التوبة .

العلم ؛ والإحياء بالعلم رتبةُ الفقيه في الدين ، فصار الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها ، وهو علم العالم الزاهد في الدنيا ، المتقى ، الذى يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ، فورد العلم والهدى والأهدى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — أولاً ، ورَدَ عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً ، فظهر من ارتواء ظاهره الدينُ ، والدينُ : هو : الانقياد والخضوع ، مشتق من : الدُّون ، فكلّ شيء اتضع فهو دُون ، فالدين : أن يَضَع الإنسان نفسه لربّه . قال الله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)(٢) فبالتفرق في الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم ، والنضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد في النفس والمال ، تستفادُ من ارتواء القلب ، والقلبُ في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والهدى بحراً موّاجاً . ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريفة نضارةُ العلم وريّه ، فتبدّلت نعوت النفس وأخلاقها .

ثم وصل إلى الجوارح جدولٌ فصارت ريّانة ناضرةً ، فلما استتمّ نضارةً وامتلأ ريًّا بعثه الله تعالى إلى الخلق : فأقبل على الأمة بقلب موّاجٍ بمياه العلوم ، واستقبل جداول الفهوم ، وجرى من بحره في كلّ جدولٍ قسطٌ ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين .

روى عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) آية ١٢٢ من سورة التوبة .
(٢) من آية ١٣ من سورة الشورى .

قال : « ما عُبِد(1) اللهُ ، عزّ وجلّ ، بشيء أفضلَ من فقهٍ فى الدين ولفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد ، وعماد هذا الدين الفقهُ » .

حدّثنا شيخ الإسلام « أبو النجيب » إملاء قال : حدثنا أبو طالب الزينى ، قال : أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية ، قالت : أخبرنا أبو الهيثم ، قال : أخبرنا الفربرى ، قال : أخبرنا البخارى ، قال : حدثنا ابن وهب عن يونس ، عن ابن شهاب ، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن يُرِد الله به خيراً يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم ، والله يُعطى » .

قال الشيخ : إذا وصل ماء العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحقّ والباطلَ ، وتبيّن له الغىّ من الرشد .

ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابى: (فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره)(2) . قال الأعرابى حسبى ، حسبى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقه الرجل » .

وروى عبد الله بن عباس : أفضلُ العبادة الفقه فى الدّين .

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب ، فقال : (لهم قلوب لا يفقهون

---

(1) روى البيهقى عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله عز وجل بشىء أفضل من فقه فى دين » وإسناده ضعيف ـ بيد أن الحديث الذى يليه صحيح رواه البخارى ومعناهما متقارب .

(2) آية ٨ من سورة الزلزلة . والحديث رواه الإمام أحمد والطبرانى مرسلا ومتصلا ورجال الجميع رجال الصحيح دون آخره (فقه الرجل) .

بها(1) فلما فقهوا علموا، ولما علموا عملوا، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتدوا(2) ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرعَ إجابةً وأكثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظًا من نور اليقين ، فالعلم جملةٌ موهوبة من الله للقلوب، والمعرفة تمييز تلك الجملة، والهُدَى وجدانُ القلوب ذلك ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لمّا قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم » أخبر أنه وجد القلبُ النبوىُّ الهدى والعلم ـ فكان هادياً مَهْدِيًا .

وعلمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهما وراثة معجونةٌ فيه من آدم أبى البَشر صلى الله عليه وسلم حيثُ عُلِّم الأسماء كلها ، والأسماء سِمَةُ الأشياء ، فكرّمه الله تعالى بالعلم . وقال تعالى (علّم الإنسان ما لم يعلم) ؛ فآدم بما رُكّب فيه من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة والكياسة والرأفة ، واللطف والحبّ والبغض والفرح والغم والرضا والغضب ، ثم اقتضاه استعمال كلّ ذلك وجَعل لقلبه بصيرةً واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل : لمّا خاطب الله السموات والأرض بقوله (إئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين)(3) نَطق من الأرض وأجابَ موضعُ الكعبة ، ومن السماء ما يحاذيها .

وقد قال عبد الله بن عباس ، رضى الله تعالى عنهما : « أصلُ طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سُرّةِ الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء : هذا يُشعر بأنّ ما أجاب من الأرض إلا ذَرّةُ المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم . ومن موضع الكعبة دُحِيت الأرضُ ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصلُ

---

(1) الأعراف ١٧٩ (2) ذاقو الحلاوة .

(3) من آية ١١ من سورة فصلت

فى التكوين والكائنات تبعٌ له . وإلى هذا الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نبياً وآدم بين الطين والماء » وفى رواية « بين الروح والجسد »[1] .

وقيل : لذلك ؛ سُمّى « أُمّيا » ، لأنّ مكّةَ أمُّ القرى ، وذرّتُه أمّ الخليقة ، وتُربة الشخص مَدفنه ، فكان يقتضى أن يكون مَدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : إنّ الماء لما تموّج رمى الزبدَ إلى النواحى ، فوقعت جوهرةُ النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذى تربته بالمدينة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكياً مدنياً ، حنينُه إلى مكة وتربته بالمدينة .

والإشارة فيما ذكرناه من ذَرّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو : ما قاله الله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى)[2] ورد فى الحديث : « أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذرّ »[3] .

واستخرج الذرّ من مسامّ شعر آدم ، فخرج الذرُّ كخروج العَرَق . وقيل : كان المسحُ من بعض الملائكة ، فأضاف الفعل إلى المسبِّب . وقيل : معنى القول : بأنه مسح . أى : أحصى كما تُحصَى الأرضُ بالمساحة ، وكان ذلك ببطن « نُعمان » وادٍ بجنب عرفة بين مكة والطائف ، فلمّا خاطب الله تعالى الذر وأجابوا بـ « بلى » كتب العهدَ فى رِقّ أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقمه الحجرَ

(١) أى بسطت .

(٢) « وآدم بين الروح والجسد » : الحلية عن ميسرة الفجر وابن سعد عن ابن أبى الجدعاء والطبرانى عن ابن عباس بسند صحيح ، وكذا رواه أحمد .

(٣) الأعراف ١٧٢ .

(٤) وردت أحاديث كثيرة ثابتة فى ذلك ، انظر ابن كثير فى تفسير الآية .

الأسودَ ؛ فكانت ذَرّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم هى الجيبة من الأرض . والعلمُ والهدى فيه معجونان ، فبُعث بالعلم والهدى موروثاً له وموهوباً .

وقيل : لمّا بعث اللهُ جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضةً من الأرض ، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه ، وبعضُ الأرض تحت قدميه ، فخُلقت النفس مما مَسّ قدم إبليس فصارت مأوى الشرّ ، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس . فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء .

وكانت ذرّة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعَ نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يَمسّها قدمُ إبليس ، فلم يصبه حظُّ الجهل ، بل صار منزوع الجهل ، مُوفّراً حظُّه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة فى أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالمعارف الأول ، فكلُّ من كان أقربَ مناسبةً بنسبة طهارة الطينة كان أوفرَ حظًّا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقربَ مناسبةً فأخذت من العلم حظاً وافراً ، وصارت بواطنهم « أخاذات » ، فعلموا وعملوا وعَلّموا كالإخاذ[1] الذى يُسقى منه ويزرع منه » وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بإحكام أساس التقوى . ولمّا تزكّت النفوس انجلت مرايا قلوبهم بما صَقَلها من التقوى ، فانجلى فيها صورُ الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا فى الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسامُ العلوم انصباباً ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة .

(١) الإخاذ : شىء كالغدير ، ومما يناسب هذا المقام ما قاله مسروق بن الأجدع : « ما شبهت بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا الإخاذة ، تكفى الإخاذة الراكب ، وتكفى الإخاذة الراكبين ، وتكفى الإخاذة الفئام من الناس » .

واعلم أنّ كلّ حال شريف تعزوه إلى الصوفيّة فى هذا الكتاب هو حال « المقرّب » ، والصوفىّ هو المقرّب ، وليس فى القرآن اسم الصوفى واسم الصوفى تُرِك وَوُضِع للمقرّب ، على ما سنشرح ذلك فى بابه .

ولا يُعرف فى طرفى بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هذا الاسم لأهل القُرب ، وإنما يعرف للمترسّمين .

وكم من الرجال المقرّبين فى بلاد المغرب ، وبلاد تركستان وما وراء النهر وفرغانة ولا يُسمون صوفيةً ، ؛ لأنهم لا يتزيّون بزىّ الصوفية .

ولا مُشاحّة فى الألفاظ . فَلْيُعْلم أنّا نعنى بالصوفية « المقرّبين » .

فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم فى « الطبقات » وغير ذلك من الكتب ، كلّهم كانوا فى طريق « المقربين » وعلومهم عُلوم أحوال المقربين .

ومن تطلع إلى مقام المقرّبين ، من جُملة الأبرار[1] ، فهو متصوّف ما لم يتحقق بحالهم . فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً .

ومَن عداهما مِمّن تميّز بِزِىّ ونُسب إليهم فهو : مُتَشَبّه . (وفوق كل ذى علم عليم)[2] .

(١) الأبرار الذين يعملون طلباً للجزاء ، والمقربون الذين يجاهدون توقعاً للمشاهدة واللقاء .

(٢) من آية ٧٦ من سورة يوسف .

الباب الثانى

فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السُّهروردى إملاءً ، قال : أخبرنا أبو منصور المقرى : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب : قال أخبرنا أبو عمر الهاشمى : قال أخبرنا أبو علىّ اللؤلؤى : قال أخبرنا أبو داود السجستانى : قال حدثنا مُسَدّد : قال حدثنا يحيى : عن شعبة : قال حدثنى عمر بن سليمان من ولد عمر بن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد بن ثابت ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (نَضّر اللهُ امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يُبَلِّغَه غيره ، فرُبّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقه منه ، وربّ حامل فقه وليس بفقيه)[1] .

أساسُ كلّ خير حُسنُ الاستماع ، قال الله تعالى : (ولو عَلِم الله فيهم خيراً لأسمعهم)[2] . يقول بعضهم : علامة الخير فى السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافِه ونعوته ، ويسمعه بحقٍ من حق . وقال بعضهم : « لو علمهم الله أهلاً للسماع لفتح آذانهم للاستماع » ؛ فمن تملكته الوساوسُ وغلب على باطنه حديثُ النفس لا يقدر على حسن الاستماع ؛ فالصوفية وأهل القرب لمّا علموا أن كلام الله تعالى ، رسائله إلى عباده ، ومخاطباته إيّاهم ، رأوا كلّ آية من كلامه تعالى بحراً من أبحر العلم ؛ بما تتضمّن من ظاهر العلم وباطنه ، وجليّه وخفيّه ، وباباً من أبواب الجنة باعتبار ما تُنَبّه أو تدعو إليه من العمل.

(١) ابن ماجه وغيره ومتنه ثابت عند الأئمة وأحد طرقه موثقة

(٢) آية ٢٣ من سورة الأنفال

ورأوا كلامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الذى لا ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحى يوحى . من عند الله تعالى يتعيّن الاستماع إليه ، فكان من أهمّ ما عندهم الاستعدادُ للسماع ، ورأوا أنّ حُسن الاستماع قرعُ باب الملكوت ، واستنزالُ بركة الرغبوت والرهبوت ، ورأوا أن الوسواس أدخنةٌ(١) ثائرة من نار النفس الأمّارة بالسوء ، وقتامٌ(٢) يتراكم من نفث الشيطان ، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التى هى مناط(٣) الهوى ومثارُ الردى بمثابة الحطب الذى تزداد النار به تأجُجاً(٤) ، ويزداد القلب به تحرّجاً(٥) ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أحطابُها وفترت نيرانُها وقلّ دخانها ، شهدت بواطنُهم وقلوبُهم مصادرَ العلوم ، فهيّئوا مواردها بصفاء الفهوم . فلمّا شهدوا سمعوا . قال الله تعالى : (إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)(٦)

قال الشبلى(٧) ، رحمه الله : « موعظةُ القرآن لمن قلبه حاضرٌ مع الله لا يغفل عنه طَرفةَ عين » .

قال يحيى بن معاذ الرازى : « القلب قلبان : قلب قد احتشى(٨) بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغُل قلبه بالدنيا ، وقلبٌ قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه فى الآخرة » . فانظر : كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الفانية التى أقعدتك عن الطاعة ؟ !

(١) أدخنة : جمع دخان (٢) قتام : غبار (٣) مناط : أى التعلق
(٤) تأججاً : توقداً (٥) أى تأثما (٦) من سورة ق
(٧) احتشا : امتلأ (٨) هو : أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، عالم عابد ناسك كان فى مبدأ أمره والياً فى (دبناوند) ثم ترك الولاية وعكف على العبادة واشتهر بالتقوى والصلاح، أصله من «خراسان» ومولده ووفاته ببغداد ولد سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١م وكانت وفاته سنة ٣٣٤ هـ ٩٤٦م .

قال بعضهم : لمِن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراضِ .

وقال الحسين بن منصور : لمِن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الربّ .

وأنشد لنفسه :

أنعى(١) إليك قلوباً طالما هطَلت ... سحائبُ الوحى فيها أبحُر الحِكَم

وقال ابن عطاء : قلب لاحَظَ الحقّ بعين التعظيم فذاب له وانقطع إليه عمّا سواه .

وقال الواسطى : أى : لَذكرى لقوم مخصوصين ، لا لسائر الناس . لمن كان له قلب : أى : فى الأزل ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : (أوَ مَن كان ميتا فأحييناه)(٢)

وقال أيضاً : المشاهدة تُذهل ، والحجبة تُفهم ؛ لأنّ الله تعالى إذا تجلّى لشىء خضع له وخشع .

وهذا الذى قاله الواسطى صحيح فى حق أقوام . وهـذه الآية تحكم بخلاف هـذا لأقوام آخرين ، وهم أرباب التمكين ، يُجمع لهم بين المشاهدة والفهم ، فوضع الفهم محل الحادثة والمكالمة ، وهو سمع القلب ، وموضع المشاهدة بصر القلب وللسمع حكمة وفائدة ، وللبصر حكمة وفائدة . فمن هو فى سكر الحال يغيب سمعه فى بصره ، ومن هو فى حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه فى بصره ؛ لتملكه ناصية الحال . ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال ، لأن الفهم مَورد الإلهام والسماع والإلهامُ والسماعُ يستدعيان وعاء وجودياً . وهذا الوجود موهوب مُنْشأٌ إنشاء ثانياً للمتمكن فى مقام الصحو ، وهو غير الوجود الذى يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقر البقاء . وقال ابن سمعون : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) يَعرِفُ آدابَ الخدمة وآداب الخدمة

(١) النعى : خبر الموت يقال أنعاه له نعيا ، والناعى الذى يأتى بخبر الموت
(٢) من آية ١٢٢ من سورة الأنعام

ثلاثة أشياء : والقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رِقّ الشهوة . فمن وقف عن شهوته وجد ثلث الأدب. ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد ، فقد وجد ثلثى الأدب ، والثالث : امتلاء القلب ، بالذى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضُّلاً .

قال محمد بن علىّ الباقر : موتُ القلب من شهوات النفس ، فكلّما رفضَ شهوة نال من الحياة بقسطها ، فالسماع للأحياء ، لا للأموات ، قال الله تعالى : ﴿ إنّك لا تسمع الموتَى ﴾[١] .

قال سهل بن عبد الله[٢] : القلبُ رقيق تُؤثّر فيه الخَطراتُ المذمومة ، وأثرُ القليل عليه كثير . قال الله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين ﴾[٣] .

فالقلب عمّال لا يفتر ، والنفس يقظى لا ترقد ، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى ، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفسِ ، فكلٌّ شىء ، سَدَّ باب الاستماع فمن حركة النفس وفى حركتها يتطرق إليه الشيطان . وقد ورد « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » .

وقال الحسين : بصائرُ المبصرين ، ومعارفُ العارفين ، ونورُ العلماء الربّانيين ،

(١) آية ٨٠ من سورة النمل

(٢) هو : سهل بن عبد الله بن يونس التسترى : أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات له كتاب فى « تفسير القرآن » مختصر : حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وكان يسأل عن دقائق الزهد والورع وهو ابن عشر فيحسن الإجابة ولد سنة ٢٠٠ هـ — ٨٩٦ م ومن حكمه قوله : (حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت) وقوله : (ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله) [انظر ترجمته فى الأعلام للزركلى جـ ١ ص ٣٩٦ ، وطبقات الصوفية ، والوفيات] .

(٣) آية ٣٦ من سورة الزخرف .

وطرق السابقين الناجين ، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خَطرة ولا فترة ، فيسمع به بل يسمع منه ، ويشهد به ، بل يشهده ، فإذا لاحظ القلبُ الحقّ بعين الجلال فزِع وارتعد ، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقرّ .

وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى والتفريد له حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس ، فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه ، فقلب الصوفى مجرَّد عن الأكوان ، ألقى سمعه ، وشَهِد بصره ، فسمع المسموعات وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى . واجتماعه بين يدى الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده[١] ، فسمع وشاهد فأبصر وسمع جُملها ولم يسمع ولم يشاهد تفاصيلها ، لأن الجُمل تُدرك لسعة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل .

وقد مثّل بعض الحكماء تفاوتَ الناس فى الاستماع وقال : إنّ الباذر خرج ببذره ، فملأ منه كفّه ، فوقع منه شىء على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه ، ووقع منه شىء على الصَّفوان ـ وهو الحجر الأملس ، عليه تراب يسير ، ونَدًى قليل ـ فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفوان لم تجد مساغاً تنفذ فيه ، فيبس ، ووقع منه شىء فى أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأمسك واختلط به ، ووقع منه شىء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ، ولا على الصفوان ، ولا فيها شوك فنبت ونما وصَلُح ، فمثلُ الباذر مثلُ الحكيم ، ومثل البذر كمثل صواب الكلام ، ومَثّل ما وقع على ظهر الطريق

(١) أى الصوفى

مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه ، فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه .

ومثلُ الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تُفضى الكلمةُ إلى قلبٍ ليس فيه عزم على العمل فَتَنْسَخ من قلبه . ومثل الذى وقع فى أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوى أن يعمل به فإذا اعترضت له الشهواتُ قيدته عن النهوض والعمل فيتركُ ما نوى عمله لغلبة الشهوة كالزرع يختنق بالشوك .

ومثل الذى وقع فى أرض طَيِّبة مثلُ المستمع الذى ينوى عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه ، وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهُدى هو «الصوفى» لأن للهوى حلاوةً ، والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه ، واستلذاذ الهوى هو الذى يخنق النبت كالشوك . وقلب الصوفىّ نازلته حلاوة الحبِّ الصافى ، والحبُّ الصافى تعلق الروح بالحضرة الإلهية . ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس ، وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى ، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، لكونها لا ترتقى عن حد النفس . وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، لأنها متأصلة فى الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة فى أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وَسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس وَيغذيها بكليته ويقول :

أَشَمُّ منك نسيماً لستُ أعرفه   أظنُّ لمياء جَرَّت فيك أردانَهَا[1]

فَتمسُّ الكلمة ، وتشمله ، وتصير كل شعرة منه سمعاً وكل ذرَّة منه بصراً ،

---

(١) اللمى : سمرة فى الشفة . وفتاة لمياء ظاهرة اللمى . ولمياء : اسم محبوبة الشاعر الردن [بالضم] أصل الكم . ويقال : قميص واسع الردن والجمع أردان

فيسمع الكلَّ بالكلِّ[1] ، ويبصر الكلَّ بالكلِّ ، ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون   أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى : (فَبَشِّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)[2] .

قال بعضهم: الحبُّ والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون فى النبى صلى الله عليه وسلم، وجزء فى سائر المؤمنين والجزء الذى فى سائر المؤمنين واحد وعشرون سهماً ، فهم يتساوى المؤمنون كُلُّهم فيه ، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم .

قيل: فى هذه الآية إظهار فضيلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى : الأحسن ما يأتى به ؛ لأنه لما وقعت له صحبة التمكين ومقاربة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات ألاَ تراه — صلى الله عليه وسلم — يقول : « نحن الآخرون السابقون»[3] يعنى : الآخرون وجوداً ، السابقون فى الخطاب الأول فى الفضل فى محل القدس .

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[4] .

قال الجنيد[5] : تنسموا رَوْحَ ما دعاكم إليه فأسرعوا إلى نحو الملائق المشتملة ،

---

(١) أى يسمع جميع المعانى المشتملة عليها الكلمة وأسرارها . ويبصر : أى جميع أنوار الكلمة .

(٢) آية ١٨ من سورة الزمر

(٣) البخارى فى باب الجمعة

(٤) الأنفال : ٢٤

(٥) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، مولده ووفاته ببغداد عرف بالخزاز لأنه كان يعمل الخز ، قال أحد معاصريه : ما رأت عيناى مثله ؛ الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته ، والمتكلمون لمعانيه ، وهو أول من

وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر ، وتجرّعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله في المعاملة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، وسجنوا هممهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليّهم ، فَحَيوا حياةَ الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال .

وقال الواسطي رحمه الله تعالى : حياتها : تصفيتها عن كل معلول لفظا وفعلا .

وقال بعضهم : استجيبوا لله بسرائركم ، وللرسول بظواهركم ، فحياة النفوس بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القلوب بمشاهدة الغُيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : في هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه ؛ أوّلها : إجابة التوحيد ، والثاني . إجابة التحقيق ، والثالث : إجابة التسليم ، والرابع : إجابة التقريب . فالاستجابة على قدر السماع ، والسماعُ من حيثُ الفهم ، والفهمُ على قدر المعرفة بقدر الكلام . والمعرفةُ بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلّم ، ووجوه الفهم لا تنحصر ؛ لأن وجوه الكلام لا تنحصر . قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي)[1] فلله تعالى في كلّ كلمة من القرآن كلماتُه التي ينفد البحر دون نفادها ، فكلُّ الكلام كلمةٌ ؛ نظراً إلى ذات التوحيد . وكل كلمة كلماتٌ نظراً إلى سعة العلم الأزلي .

= من تكلم في علم التوحيد ببغداد وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه . وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع . توفي ببغداد سنة ٢٩٨ هـ . ومن كلماته : (الطريق مسدود إلا على المتبعين آثار المصطفى : قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) ومنها : (صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب) ومنها (من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين : أفسد من اتبعه) .

(١) من سورة الكهف آية ١٠٩

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال : أنبأنا الرئيس أبو علي بن نبهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دَعْلَج بن أحمد قال : أخبرنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوي قال : أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلاّم قال : حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن الحسن يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حدٌّ ، ولكلّ حدّ مُطّلَع »[1] قال : فقلت : يا أبا سعيد ، ما المطّلع ؟ قال : يطّلع قومٌ يعملون به .

قال أبو عبيد : أحسبُ أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود . قال أبو عبيد: حدثني حجاج عن شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن مرّة ، عن عبد الله بن مسعود[2] قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أو لها قوم سيعملون بها . فالمطّلعُ والمصعد يصعد عليه من معرفة علمه ، فيكون المطلع : الفهم يفتح اللهُ تعالى على كل قلب بما يُرزقُ من النور . واختلف الناس في معنى الظهر والبطن ، قال قوم : الظهر لفظُ القرآن ، والبطن تأويله . وقيل : الظهر صورة القصة مما أخبر الله تعالى من غضبه على قوم وعقابه إيّاهم ، فظاهر ذلك إخبارٌ عنهم ، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الأمّة . وقيل ظاهره : تنزيله الذي يجب الإيمان به ، وباطنه . وجوبُ العمل به .

---

(١) روى ابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود : « إن للقرآن ظهراً وبطناً وحدا ومطلعاً » .

(٢) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، من أكابر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلا وعقلا وقرباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، وكان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفيقه في حله وترحاله وغزواته ، نظر إليه عمر ، رضي الله عنه ، فقال : وعاء ملىء علماً . قدم المدينة المنورة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ٦٠ عاماً ، له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً .

وقيل ظهره : تلاوته كما أنزل قال الله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا)[1] وبطنه : التدبر والتفكر فيه ، قال الله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[2] .

وقيل : قوله لكل حرف حد ، أى : فى التلاوة لا يُجاوز المصحفَ الذى هو الإمام . وفى التفسير لا يُجاوز المسموعَ والمنقولَ وفرقٌ بين التفسير والتأويل ، فالتفسير علم نزول الآية ، وشأنها ، وقصتها ، والأسباب التى نزلت فيها . وهذا محظور على الناس كافة القولُ فيه إلا بالسماع والأثر .

وأما التأويل : فصَرْفُ الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمَل الذى يراه يوافق الكتاب والسنة : فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ، ورتبة المعرفة ، ونصيب القرب من الله تعالى .

وقال أبو الدرداء[3] : لا يفقه الرجلُ كلَّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة . فما أعجب قول عبد الله بن مسعود : ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها . وهذا الكلام مُعترِضٌ لكل طالب صاحب همة أن يَصْفَى مواردَ الكلام[4] ، ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه ، فالصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب همًّا سوى الله تعالى مُطلعٌ من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد ، وله بكل فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعلمهم

(١) آية ٤ من سورة المزمل (٢) آية ٢٩ من سورة ص

(٣) أبو الدرداء : عويمر بن مالك بن قيس الأنصارى الخزرجى : صحابى . كان قبل البعثة تاجراً فى المدينة ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك . وفى الحديث (عويمر حكيم أمتى) و (نعم الناس عويمر) ولاه معاوية قضاء الشام . له فى الصحيحين ١٧٩ حديثاً . توفى ٣٢ هـ — ٦٥٢ م

(٤) وفى بعض النسخ : ويصفى موارد الكلام ودقيق معانيه . إلخ وفى بعضها : أن يصفى موارد الكلام لفهم دقيق معانيه .. إلخ .

يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر فى معانى الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آنفاً إنما هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غيرُ عمل القالب ، وأعمال القلوب للطفها وصفائها مشاكلة للعلوم ، لأنها : نيّات ، وطويات[1] ، وتعلقات روحية ، وتأدبات قلبية ، ومسامرات سرية .

وكلما أتوا بعملٍ من هذه الأعمال رُفع لهم عَلَم من العلم ، وأطلعوا على مُطّلع من فهم الآية جديد .

وبخالج سرّى أن يكون المُطّلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على رقيق المعنى وغامض السرّ فى الآية ، ولكن المطّلع أن يَطلع عند كلّ آية على شهود المتكلّم بها ، لأنها مستودَع وصفٍ من أوصافه ونعت من نعوته ، فتتجدّد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مَرَاه[2] مُنبئةً عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق(*) ، رضى الله تعالى عنه ، أنه قال : لقد تجلّى الله تعالى لعباده فى كلامه ولكن لا يبصرون .

فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ، فالحد : حدّ الكلام ، والمطلع : الترقى من الكلام إلى شهود المتكلم .

(١) الطوية : الضمير . (٢) جمع مرآى .

(*) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن زيد العابدين بن الحسين الهاشمى رضى الله عنه ، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين ، وله منزلة رفيعة فى العلم . أخذ عنه جماعة منهم : أبو حنيفة ، ومالك ، وجابر بن حيان ولقب بالصادق ، لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩م وتوفى بها سنة ١٤٨هـ ٧٦٥م [انظر ترجمته فى الجزء الأول من كتاب الأعلام للزركلى ص ١٧٦ ، وفى نزهة الجليس : للموسوى جزء ٢ ص ٣٥ ، وفى وفيات الأعيان] .

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً، أنه خرّ مغشياً عليه وهو فى الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها؛ فالصوفى لما لاحَ له نور ناصية التوحيد، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدى الله حاضراً شهيداً، يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأنى أنا الله، فإذا كان سماعُه من الله تعالى، واستماعه إلى الله صار سمعُه بصرَه وبصرُه سمعَه، وعلمه عملَه، وعملُه علمَه، وعاد آخرُه أولَه، وأولُه آخرَه.

ومعنى ذلك: أن الله تعالى خاطب الذرّ بقوله (ألستُ بربكم)[1] فسمعت النداء على غاية الصفاء، ثم لم تزل الذرات تتقلب فى الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام.

قال الله تعالى: (الذى يراك حين تقوم، وتقلبك فى الساجدين[2]) يعنى: تقلب ذريتك فى أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء، فما زالت تنتقل الذرات حتى برزتَ إلى أجسادها، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب، وتراكم ظلماتها بالتقلب فى الأطوار؛ فإذا أراد الله تعالى بالعبد حُسنَ الاستماع بأن يصيّره صوفياً صافياً لا يزال يرقيه فى رتب التزكية والتحلية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى فضاء القدرة، ويزال عن بصيرته النافذة حُجُب الحكمة فيصير سماعه (ألستُ بربكم) كشفاً وعياناً، وتوحيده ومعرفته تبياناً وبرهاناً، وتندرج له ظلم الأطوار فى لوامع الأنوار.

قال بعضهم: أنا أذكر خطاب (ألست بربكم) إشارة منه إلى هذا الحال.

---

(١) من سورة الأعراف: ١٧٢. (٢) آية: ٢١٩ من سورة الشعراء.

فإذا تحقق الصوفى بهذا الوصف صار وقته سرمداً، وشهوده مؤبداً؛ وسماعه متوالياً متجدداً، يسمع كلام الله وكلام رسوله حقَّ السماع.

قال سفيان بن عيينة(*): أولُ العلم الاستماعُ، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

وقال بعضهم: تعلّم حُسن الاستماع كما تتعلم حُسن الكلام.

وقيل: من حُسن الاستماع إمهالُ المتكلم حتى يقضى حديثه، وقلةُ التلفت إلى الجوانب، والإقبالُ بالوجه، والنظر إلى المتكلم، والوعْى، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيُه[1]). وقال: (لا تُحرك به لسانك لتعجل به[2]) هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حُسنَ الاستماع.

قيل: معناه لا تُمله على الصحابة حتى تتدبر معانيه حتى تكونَ أنت أولَ من يحظى بغرائبه وعجائبه.

وقيل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريلُ وأوحى إليه لا يَفتر من قراءة القرآن، مخافةَ الانفلات والنسيان؛ فنهاه الله تعالى من ذلك أى: لا تعجل بقراءته قبل أن يفرغَ جبريل من إلقائه إليك.

(*) هو: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى، محدث الحرم. كان حافظا ثقة، واسع العلم، كبير القدر، قال الشافعى: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز» ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ (٧٢٥م) ومات بمكة سنة ١٩٨هـ (٨٤٦م) له كتب كثيرة فى التفسير والحديث [انظر فى ترجمته كتاب تذكرة الحفاظ جزء ١ ص ٢٤٢].

(١) ١١٤ سورة طه.

(٢) من سورة القيامة، آية: ١٦ والمعنى الثانى ورد ما يفيده عند أحمد والبخارى

وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع وبمجالس النظر للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم ، وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجاة من عذاب الآخرة : أن يكون في ذلك كله مؤدبًا بآداب حسن الاستماع لأنه نوع من ذلك ، وكما أن القلب استعد لحسن الاستماع بالزهادة والتقوى ، حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه ، فيكون آخذًا بالمطالعة من كل شيء أحسنه .

ومن الأدب في المطالعة : أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئًا من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالبة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل ، فتستروح بالمطالعة كما تتروح بمجالسة الناس ومكالمتهم ! فليتفقد المتفطن نفسه في ذلك ، ولا يستعجل مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته ويراعي الإفراط فيه .

فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر إليه إلا بعد التثبت والإنابة ، والرجوع إلى الله تعالى ، وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه ؛ فإنه قد يُرزَق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله ، ولو قدّم الاستخارة لذلك كان حسنًا ، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبةً من الله زيادة على ما يلوح من صورة العلم ، فالعلم صورةٌ ظاهرة ، وسرٌّ باطن : هو الفهم . والله تعالى نبّه على شرف الفهم بقوله : (ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكمًا وعلمًا)[1] .

أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتميّز عن الحكم والعلم ، وقال الله تعالى :

(١) من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء

(إن الله يُسمع من يشاء)[1] ، فإذا كان المسمع هو الله تعالى ، يُسمع تارةً بواسطة اللسان ، وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان ، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتاب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حُسن الاستماع ، فليتفقد العبد حاله في ذلك ويلتزم عله وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية ، والعلماء الزاهدين المتبتلين[2] لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع لسلوك الآخرة .

(١) من الآية ٢٢ من سورة فاطر

(٢) المنقطعين للعبادة .

الباب الثالث

فى بيان فضيلة علوم الصوفية

والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى ، رحمه الله ، قال : أنبأنا أبو عبدالرحمن الصوفى، قال: أخبرنا عبدالرحمن بن محمد السجزى، قال :أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد السرخسى قال : أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمى قال: حدثنا نعيم بن حماد قال :حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم ، عن أبيه قال : سأل رجل النبى عليه الصلاة والسلام عن الشر فقال: « لاتسألونى عن الشر واسألونى عن الخير ، يقولها ثلاثاً ، ثم قال: إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خيار العلماء »[1] فالعلماء أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى فى خلقه ، وأطباء العباد ، وجهابذة الملة الحنيفية ، وحملة عظيم الأمانة ؛ فهم أحق الخلق بحقائق التقوى ، وأحوج العباد إلى الزهد فى الدنيا ؛ لأنهم [لأنفسهم] ولغيرهم ، ففسادهم فساد متعدّى وصلاحهم صلاح متعدى .

قال سفيان بن عيينة :«أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم . وأعلم الناس من عمل بما يعلم ، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى » وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم

(١) الدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا ، وروى البزار عن معاذ بسند حسن « شرار الناس شرار العلماء فى الناس » .

إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم، فلا يغرنك تشدقه ، واستطالته ، وحذاقته ، وقوته فى المناظرة والمجادلة ؛ فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ؛ فإن العلم فى سبيل الإسلام لايضيع أهله ، ويرجى عود العالم ببركة العلم ، والعلم فريضة « وفضيلة » ، فالفريضة : مالابد للإنسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين . والفضيلة : ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيلة فى النفس موافقة للكتاب والسنة . وكل علم لايوافق الكتاب والسنة وماهو مستفاد منهما أومبين على فهمهما أو مستند إليهما كائناً ما كان فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يزداد الإنسان به هواناً ورذيلة فى الدنيا والآخرة .

فالعلم الذى هو فريضة لايسع الإنسان جهله ، على ماحدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم المستملى قال ؛ أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى قال : أخبرنا أبو محمد بن عبد الله بن يوسف الأصفهانى قال : أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابى قال . حدثنا جعفر بن عامر العسكرى قال : حدثنا الحسن بن عطية قال : حدثنا أبو عاتكة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«اطلبوا العلم ولو بالصين ؛ فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]

واختلف العلماء فى العلم الذى هو فريضة ؛ قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ؛ لأن الإخلاص مأمور به ؛ كما أن العمل مأمور به قال الله تعالى : (وَما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين[2])

(١) رواه البيهقى فى الشعب وابن عدى فى الكامل وغيرهما بسند ضعيف والأحاديث فى طلب العلم كثيرة منها مارواه الترمذى بسند حسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة » .

(٢) آية ٥ من سورة البينة .

فالإخلاص مأمور به، وخدع النفس وغرورها، ودسائسها، وشهواتها الخفية تخرب مبانى الإخلاص المأمور به ، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً ، ومالا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً .

وقال بعضهم : معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة ؛ لأن الخواطر هى أصل الفعل ومبدؤه ومنشوه . وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، فلا يصح الفعل إلا بصحتها ، فصار علم ذلك فرضاً حتى يصح الفعل من العبد لله .

وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت[1] .

وَقال سهل بن عبدالله : هو طلب علم الحال ، يعنى : حكم حاله الذى بينه وبين الله تعالى فى دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة . وقد ورد طلب الحلال فريضة بعد الفريضة[2] ، فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة .

وقيل : هو طلب علم الباطن ، وهو : مايزداد به العبد يقيناً . وَهذا العلم هو الذى يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده ، يسوق الطالبين إليهم ، ويقويهم بطريقهم ، ويرشدهم بهم ، فهم ورّاث علم النبى عليه الصلاة والسلام ، ومنهم يتعلم علم اليقين .

وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فى شىء من ذلك يجب عليه طلب علمه.

(١) وهذا من إشارات الصوفية ، فإن مراعاة الوقت عندهم فرض ، فمعرفة الوقت يكون فرضاً .

(٢) رواه الطبرانى عن ابن مسعود بسند ضعيف وفى الحث على طلب الحلال أحاديث صحيحه منها حديث الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتق الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه الخ . . .

وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملا يجهل ما لله عليه فى ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ؛ إذ هو جاهل فيما له وعليه فى ذلك فيراجع عالماً يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ، ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل .

وقال بعضهم : طلب علم التوحيد فرض فمن قائل يقول : إن طريقه[1] النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول : إن طريقه النقل .

وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد فى الإسلام ، ولا يحيك فى صدره شىء ، فهو سالم . فإن حاك فى صدره شىء ، أو توسوس بشىء يقدح فى العقيدة .أو ابتلى بشبهة لاتؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ، ويراجع أهل العلم وَمن يفهمه طريق الصواب .

وقال الشيخ أبو طالب المكى[2] ، رحمه الله تعالى : هو علم الفرائض الخمس التى بنى عليها الإسلام ؛ لأنها افترضت على المسلمين .

وإذا كان عملها فرضا صار علم العمل بها فرضا . وذكر أن التوحيد داخل فى ذلك ؛ لأن أولها الشهادتان ؛ والإخلاص داخل فى ذلك لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضى أن لا يسع مسلما جهله .

(١) أى طريق تحصيله .

(٢) أبو طالب المكى ، هو : محمد بن على بن عطية الحارثى ، أبو طالب ، واعظ ، فقيه اشتهر بمكة . ورحل إلى بغداد فتوفى بها ٣٨٦ هـ ٩٦٦ م له « قوت القلوب » من أمهات كتب التصوف (انظر فى ترجمته كتاب وفيات الأعيان ، والأعلام الزركلى جـ ٢) .

وكل ماتقدم من الأقاويل أكثرها مايسع المسلم جهله، لأنه لايعلم علم الخواطر وعلم الحال، وعلم الحلال بجميع وجوهه، وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى أكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء، ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق، إلا ماشاء الله .

وميلى فى هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبى طالب أكثرُ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح، والطلاق، إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمرى فرضٌ على المسلم علمُه .

وهذا الذى قاله الشيخ أبو طالب عندى فى ذلك حدٌّ جامع لطلب العلم المفترَض . والله أعلم .

فأقول : العلم الذى طلبه فريضةٌ على كل مسلم علمُ الأمر والنهى .

والمأمور : ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه . والمنهىّ عنه : ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه .

والمأمورات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام[1]، ومنها ما يتوجّه الأمر فيه والنهى عنه عند وجود الحادثة، فما هو لازمٌ مستمرٌ لزومه متوجّه بحكم الإسلام : علمُه به واجبٌ من ضرورة الإسلام .

وما يتجدّد بالحوادث ويتوجّه الأمر والنهى فيه فعلمه عند تجدده فرضٌ لا يسع مسلما على الإطلاق أن يجهله، وهذا الحدُّ أعمُّ من الوجوه التى سبقت . والله أعلم .

ثم إنّ المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين فى الدنيا شمّروا عن ساق

(١) كدوام الإيمان ودوام الإخلاص والصدق وغير ذلك من لوازم الإسلام كالصلوات الخمس وسائر الأركان .

الجدّ فى طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهى، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا فى ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالإستقامة، فقال : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك[1]) فتح الله عليهم أبواب العلوم التى سبق ذكرها .

قال بعضهم : من يُطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلاّ من أيّد من المشاهدات القوية، والأنوار البيّنة، والآثار الصادقة ببِرٍّ[2] معظم بالتثبيت، كما قال تعالى : (ولولا أن ثبتناك) ثم حُفِظ فى المشاهدة ومُشافهة الخطاب وهو المزيّن بمقام القُرْب، والمخاطَب على بساط الأنس محمدٌ صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك خوطب بقوله (فاستقم كما أمرت) ولولا هذه المقدّمات ما أطاق الاستقامة التى أمر بها .

قيل لأبى حفص : أى الأعمال أفضل؟ قال : الاستقامة؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «استقيموا ولن تحصوا[3]» .

وقال جعفر الصادق فى قوله تعالى : (فاستقم كما أمرت) : أى افتقر إلى الله بصحة العزم .

ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام، قال : قلت : يا رسول الله، روى عنك أنك قلت : شيبتنى سورة هود وأخواتها[4]، فقال :

(١) الآية ١١٢ من سورة هود . (٢) بر : إنعام .

(٣) لن تطيقوا، وقد رواه أحمد وابن ماجة والبيهقى وغيرهما بسند صحيح وفيه : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» .

(٤) رواه الطبرانى وغيره بسند صحيح، ورواية الطبرانى عن عقبة بن عامر : «أن رجلا قال : يا رسول الله قد شبت؟ قال : شيبتنى هود وأخواتها» .

نعم ، قال : فقلت له : ما الذى شيبك منها ؟ قصصُ الأنبياء وهلاكُ الأمم ؟ فقال : لا ، ولكن قوله تعالى (فاستقم كما أمرت) .

فكما أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد مقدّمات المشاهدات خُوطبَ بهذا الخطاب ، وطولب بحقائق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ، ثم ألهمهم طلبَ النهوض بواجب حق الاستقامة ، ورأوا الاستقامة أفضلَ مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو على الجوزجانى : « كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربُّك يطلب منك الاستقامة » . وهذا الذى ذكره أصل كبير فى الباب ، وسرٌّ غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب.

وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين ، وما مُنحوا به من الكرامات وخوارق العادات ، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ، ويُحبون أن يرزَقوا شيئاً من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه فى صحة عمله حيث لم يُكاشَف له بشىء من ذلك ولو علموا سرَّ ذلك لهان عليهم الأمر فيه . فَلْيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً ، والحكمةُ فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا والخروج من دواعى الهوى

وقد يكون بعض عباده يكاشَفُ بصِرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كُوشف بصِرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات ، لأن المراد منها كان حصولَ اليقين ، وقد حصل اليقين ، فلو كوشف هذا المرزوق بصِرف اليقين بشىء من ذلك ما ازداد يقيناً ، فلا تقتضى الحكمة[1] كشف القدرة بخوارق

(١) الحكمة الإلهية

العادات لهذا لموضع استغنائه ، وتقتضى الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته ، فكان هذا الثانى[1] يكون أتمّ استعداداً وأهليةً من الأول حيث [رزق حاصلَ ذلك وهو : صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة ، فإن فيه آفة ، وهو العجب ، فأغنى][2] عن رؤية شىء من ذلك .

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهى كل الكرامة .

ثم إذا وقع فى طريقه شىء من ذلك جازَ وحَسُنَ ، وإن لم يقع فلا يبالى ولا يَنقُص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة ، فليُعلم هذا ؛ لأنه أصل كبير للطالبين .

فالعلماء الزاهدون ، ومشايخ الصوفية ، المقرّبون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائرَ العلوم التى أشار إليها المتقدمون ، كما ذكرنا ، وزعموا أنها فرض .

فمن ذلك علم « الحال » وعلم « القيام »[3] وعلم « الخواطر » . وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها فى بابٍ إن شاء الله تعالى .

وعلم اليقين ، وعلم الإخلاص ، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفةُ أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفتها من أعزّ علوم القوم .

وأقوم الناس بطريق المقرّبين ، والصوفية أقومُهم بمعرفة النفس . وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرهها وشرها

(١) أى الذى لم يكشف له القدرة بالخوارق .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى بعض النسخ .

(٣) علم القيام عندهم يراد به أن العبد يرى الله تعالى فى جميع حركاته وسكناته قائم ومطلع ، قال تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) الرعد آية ٣٣ .

وشربها[١] ، وعلمُ الضرورة ومطالبةِ النفس بالوقوف على حدّ الضرورة ،
— قولاً ، وفعلاً ، ولبساً ، وخلعاً ، وأكلاً ، ونوماً — ومعرفةُ حقائق التوبة ،
وعلمُ خفىّ الذنوب ومعرفة سيئاتٍ هى حسناتُ الأبرار ومطالبةِ النفس بترك
مالا يعنى ، ومطالبةِ الباطن بحصر خواطر المعصية ، ثم بحصر خواطر الفضول ،
ثم علم المراقبة ، وعلمُ ما يقدح فى المراقبة ، وعلمُ المحاسبة والرعايةِ ، وعلمُ حقائق
التوكّل وذنوبِ المتوكّل فى توكّله ، وما يقدح فى التوكّل ، ومالا يقدح ؛
والفرق بين التوكّل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكّل الخاص المختصّ
بأهل العرفان .

وعلم « الرضا » وذنوبِ مقام الرضا ، وعلم « الزهد » وتحديدهِ بما يلزم
من ضرورته ، ومالا يقدح فى حقيقته ، ومعرفة الزهد فى الزهد ، ومعرفة زهدٍ
ثالث بعد الزهد فى الزهد ، وعلمُ « الإنابة والالتجاء » ، ومعرفةُ أوقات الدعاء ،
ومعرفةُ وقت السكوت عن الدعاء ، وعلم « المحبة » ، والفرق بين المحبّة العامة
المفسّرة بامتثال الأمر والمحبّةِ الخاصة ؛ وقد أنكرت طائفة من علماء الدنيا دعوى
علماء الآخرة المحبةَ الخاصةَ كما أنكروا الرضا ، وقالوا : ليس إلاّ الصبر .
وانقسام المحبة الخاصة إلى : محبة الذات وإلى محبة الصفات ، والفرق بين محبة
القلب ومحبة الروح ومحبة العقل ومحبة النفس . والفرق بين مقام المحب والمحبوب ،
والمريدِ والمراد ، ثم عُلوم المشاهدات كعلم الهيبة ، والأنس ، والقبض ، والبسط ،
والفرق بين القبض والهمّ والبسط والنشاط ، وعلمُ « الفناء والبقاء » وتفاوت
أحوال الفناء والاستتار والتجلّى والجمع والفرق واللوامع والطوالع والبوادى
والصحو والسكر إلى غير ذلك ، لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها فى مجلدات ،

---

(١) شربها : حظها .

ولكن العمر قصير ، والوقتَ عزيز ، ولولا سهم الغفلة لضاق الوقت عن هذا
القدر أيضاً .

وهذا المختصر المؤلّف يحتوى من علوم القوم على طَرَف صالح نرجو من
الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لا حجة علينا .

وهذه كلّها علوم من ورائها علوم تَحِل بمقتضاها ، وظفر بها علماء الآخرة
الزاهدون ، وحُرِمَ ذلك علماء الدنيا الراغبون فيها ، وهى علوم ذوقية لا يكاد
النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان ، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل
بالوصف ؛ فمن ذاقه عرفه .

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهّاد العلماء أن العلوم كلّها لا يتعذر
تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى ؛ وربما كان محبة الدنيا عوناً
على اكتسابها ؛ لأن الاشتغال بها شاق على النفوس ، لجبلّات النفوس على محبة
الجاه ، والرفعة ، حتى إذا استشعرت حصولَ ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمّل
الكُلَفِ ، وسهر الليل ، والصبر على الغربة والأسفار ، وتعذّر الملاذّ والشهواتِ .

وعلومُ هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ، ولا تنكشف إلا بمجانبة
الهوى ، ولا تُدرَّس إلا فى مدرسة التقوى ، قال تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم
الله) جعل العلمَ ميراثَ التقوى وغيرُ علوم هؤلاء القوم متيسرٌ من غير ذلك
بلا شك .

فعلمُ فضلِ علماء الآخرة حيث لم يُكشَف النقاب إلا لأولى الألباب ،
وأولوا الألباب حقيقةً هم : الزاهدون فى الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لِأعقل الناس يُصرف للزهاد ،
لأنهم أعقل الخلق .

قال سهل بن عبد الله التسترى : العقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف
اسم ، وأول كل اسم منه : تركُ الدنيا .

حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتوح محمد بن عبد الباقى ، قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد قال : حدثنا العباس بن أحمد الشاشى قال : حدثنا أبو عقيل الوصافى قال : أخبرنا عبدالله الخواص ـ وكان من أصحاب حاتم الأصم قال :

دخلت مع أبى عبدالرحمن حاتم(*) الأصم الرى ومعه ثلاثمائة وعشرون رجلا يريدون الحج ، وعليهم الصوف والزربناقات(١) ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الرى على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد قال لحاتم : يا أبا عبدالرحمن ألك حاجة ؟ فإنى أريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل ، فقال حاتم : إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة ، فأنا أيضاً أجىء معك — وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى — فقال : سر بنا يا أبا عبدالرحمن . فجاءوا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن ، فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذا الحال ! ! . . ثم أذن لهم فدخلوا ، فإذا دار قوراء(٢) ، وإذا بزة(٣) ، ومنعة(٤) ، وستور ، وجمع ، فبقى حاتم متفكراً !! .. ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه فإذا بفرش وطيئة ، وإذا هو راقد عليها ، وعند رأسه غلام ، وبيده مذبة ، فقعد الرازى يسائله وحاتم قائم ؛ فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد .

فقال : لا أقعد . فقال له ابن مقاتل : لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال :

(*) هو : أبو عبدالرحمن حاتم بن علوان ، ويقال له : حاتم بن يوسف الأصم من أكابر مشايخ خراسان ، وكان تلميذ « شقيق » وأستاذ أحمد بن خضرويه [انظر ترجمته فى الرسالة القشيرية جـ ١] .

(١) الزربناقات = جمع زربناق ، وهو : جبة من صوف ويقال الزرناقات .

(٢) واسعة . (٣) هيئة . (٤) حجاب .

وما هى ؟ قال : مسألة أسألك عنها . قال : سلنى . قال : فاستو فقم جالساً حتى أسألكها . فأمر غلمانه فأسندوه ، فقال له حاتم : علمك هذا من أين جئت به ؟ قال : الثقات حدثونى به . قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم من أين جاء به ؟ قال : عن جبرائيل . قال حاتم : ففيما أداه جبريل عن الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات ، وأداه الثقات إليك ، هل سمعت فى العلم أن من كان فى داره أميراً أو منعته أكثر كانت له المنزلة عندالله أكثر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كان له عندالله المنزلة أكثر . قال حاتم : فأنت بمن اقتديت بالنبى وأصحابه والصالحين ، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ ! ياعلماء السوء . مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه ! ! وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا . فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل . فقالوا له : يا أبا عبدالرحمن ، بـ « قزوين » عالم أكبر شراً من هذا . وأشاروا به إلى « الطنافسى » قال : فسار إليه متعمداً فدخل عليه ، فقال : رحمك الله . أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى أول مبتدأ دينى ، ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم ، وكرامة ، ياغلام هات إناء فيه ماء ، فأتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسى ، فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثلاثا [ثم قال : هكذا فتوضأ . فتوضأ حاتم ثلاثا ثلاثا] حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً ، فقال له الطنافسى : ياهذا أسرفت ! ! فقال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعا . قال حاتم : ياسبحان الله ، أنا فى كف ماء أسرفت وأنت فى هذا الجمع كله لم تسرف !! فعلم « الطنافسى » أنه أراده بذلك ولم يرد منه التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج منه

أربعين يوماً . وكتب تجار « الرى » ، « وقزوين » ما جرى بينه وبين « ابن مقاتل » و « الطنافسى » ، فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له : يا أبا عبدالرحمن ، أنت رجل ألكن أعجمى ، ليس يكلمك أحد إلا وقطعته[1] ، قال : معى ثلاث خصال بهن أظهر على خصمى، قالوا : أى شيء هى ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه .

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أعقله . فلما دخل عليه قال : يا أبا عبدالرحمن ، ما السلامة من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أبا عبدالله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال . قال : وأى شيء هى يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ؛ وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيساً ، فإذا كان هذا سلمت . ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء[2]) ذكر بكلمة « إنما » ، فينتفى العلم عمن لايخشى الله ، كما إذا قال : إنما يدخل الدار « بغدادى » ينتفى دخول غير البغدادى الدار : فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقامات أهل القرب إلا بالزهد والتقوى .

قال أبو يزيد يوماً ، (رحمه الله) ، لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجتهد أن أقول لا إله إلا الله ماقدرت عليه ! ! قيل : ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى فجاءتنى وحشة تلك الكلمة فمنعتنى عن ذلك . وأعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته ! فبصفاء التقوى ، وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً فى العلم. قال الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب ، فى سر السر فعرفهم ماعرفهم ، وخاضوا فى بحار العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مذخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب : فنطقوا بالحكم .

(١) قطعته ، أى : غلبته فى الحجة.

(٢) آية رقم ٢٨ من سورة فاطر.

وقال بعضهم : الراسخ : من اطلع محل المراد من الخطاب

وقال الخراز : هم الذين كلوا فى جميع العلوم وعرفوها ، واطلعوا على هِمَم الخلائق كلهم أجمعين .

وهذا القول من أبى سعيد لا يعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، لأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا)[1] وقال : ما الأب؟ ثم قال: إن هذا إلا تكلف ونقل أن هذا الوقوف فى معنى « الأب » كان من أبى بكر ، رضى الله تعالى عنه .

وإنما عنى بذلك أبوسعيد مايفسر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : « اطلعوا على هِمَم الخلائق كلهم » ، لأن المتقى حق التقوى ، والزاهد حق الزهادة فى الدنيا صفا باطنه ، وانجلت مرآة قلبه ، ووقعت له محاذاة بشيء من اللوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فيعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم ، وفائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعلم والممارسة فلا يغنيه علمه الكلى أن يراجع فى الجزئى أهله الذين هم أوعيته ، فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئى واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئى عن الكلى ، ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لابد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وحلقت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم، فأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم بسكونها على العالم الأزلى ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء

(١) آية ٣١ من سورة عبس قال ابن كثير فى ذلك : وهو إسناد صحيح رواه غير واحد عن أنس وهو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه مع علمه أنه من النباتات .

العلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذى يلى النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم ، وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ ، والمعنى بالانفصال انتقاشها فى اللوح لا غير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف ، فحصلت العلوم لذلك وصار العالم الربانى راسخاً فى العلم .

أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة يابنى إسرائيل : لاتقولوا العلم فى السماء من ينزل به ، ولا فى تخوم الأرض[1] من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به ، العلم مجعول فى قلوبكم ، تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين ، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين[2] ، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم ، فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضى جبلاتها ، وقمعها بصريح العلم فى كل قول وفعل ، ولا يصح ذلك إلا لمن علم ، وقرب ، وتطرق[3] إلى الحضور بين يدى الله تعالى ، فيحتفظ الحق بالحق[4] .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبدالقاهر السهروردى إجازة ، قال : أخبرنا أبو منصور بن خيرون ، إجازة ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال : أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال : حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال : حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال : أخبرنا عبدالله بن المبارك ، قال : أخبرنا الأوزاعى ، عن حسان بن عطية ، قال : بلغنى أن شداد بن أوس ، رضى الله عنه ، نزل منزلا فقال : ائتونا بالسفرة نعبث بها فأنكر منه ذلك ، فقال : ماتكلمت

(١) تخوم الأرض : حدودها .
(٢) جاء فى حديث قدسى (تخلقوا إلى بأخلاق الصديقين أظهر العلم من قلوبكم) .
(٣) وفى نسخة : وطرق . (٤) وفى نسخة : فيحتفظ بالحق الحق .

بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها[1] ثم أزمها غير هذه ، فلا تحفظوها على . فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين .

مكتوب فى الإنجيل : « لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم » .

وقد ورد فى خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، قلنا : يارسول الله ، كيف يسوفنا بالعلم ؟ قال : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم ، فلا يزال العبد فى العلم قائلا وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل »[2] .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية » .

وقال الحسن : إن الله تعالى لا يعبأ بذى علم ورواية ، إنما يعبأ بذى فهم ودراية ، فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص ، السائغ للشاربين . ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن ، والمائية فى اللبن جسم قام به روح الدهنية ، والمائية بها القوام .قال الله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى »[3] وقال تعالى : « أومن كان ميتا فأحييناه »[4] أى : كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام .

فالإحياء بالاسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، وللإسلام علومه وهى

(١) أخطمها (٢) آية ٣٠ من سورة الأنبياء .
(٣) آية ١٢٢ من سورة الأنعام .
(٤) الجامع من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ ... ربما يسوفكم .. قالوا .. كيف ذلك ؟ ..

علوم مبانى الإسلام . والإسلام بعد الايمان نظراً إلى مجرد التصديق ، لكن للايمان فروع بعد التحقق بالإسلام، وهو مراتب : كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين . فقد يقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة .

وللايمان فى كل فرع من فروعه علوم ، فعلوم الإسلام علوم اللسان وعلوم الإيمان علوم القلوب ، ثم علوم القلوب لها وصف خاص ووصف عام ،فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى : السكينة التى أنزلت فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم .

فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ، ولا يشملها بوصفه العام ، فبالنظر إلى وصفه الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان ، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان .

والمشاهدة وصف خاص فى اليقين، وهو عين اليقين ، وفى عين اليقين وصف خاص وهو « حق اليقين » ، فحق اليقين إذن فوق المشاهدة ، وحق اليقين موطنه ومستقره فى الآخرة ، وفى الدنيا منه لمح يسير لأهله ، وهو من أعز مايوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان . فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرناه من علم الدراسة ، والوراثة : علمهم بمثابة اللبن ، لأنه اليقين والإيمان الذى هو الأساس .

وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة ، وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ، ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم ، ورزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم .

وقد ورد فى الخبر « فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى »[1]، والإشارة فى هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعتاق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين .

وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى ، ذا يقين كامل ، وليس عنده علم من فروض الكفايات .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة . وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم . روى أن عبدالله بن عمر كان إذا سئل عن شىء يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وكان عبدالله بن عباس يقول : سلوا جابر بن عبدالله ، لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم .

وكان أنس بن مالك يقول : سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسينا .

فكانوا يردون الناس إليهم فى علم الفتوى والأحكام ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادفتهم طراوة الوحى المنزل ، وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة مجملة ومفصلة . وطائفة مفصله دون مجمله ، والمجمل أصل العلم ، ومفصله[2] المكتسب بطهارة القلب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد وهو خاص بالخواص .

قال الله تعالى لنبيه : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم

(١) وفى نسخة ، ومطلقة المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد خاص الخصوص ا ، ب .

(٢) رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال حسن صحيح بلفظ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » .

بالتي هي أحسن)[1] ، وقال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة)[2]
فلهذه السبيل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة فمنها : نفوس مستعصية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلوب قريبة منها ، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة . ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه دعاه بالحكمة . فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون ، وهي الدعوة بتلويح منح القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحقانية والتعريفات الربانية أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم فصارت متابعة الأقوال إجابتهم نفساً ، ومتابعة الأعمال إجابتهم قلباً ، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحاً ، فإجابة الصوفية بالكل ، وإجابة غيرهم بالبعض .

قال عمر ، رضي الله عنه : رحم الله صهيباً ، لو لم يخف الله لم يعصه . يعني : لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية ، أداء لما عرف من حق العظمة .

فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة ، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها في القيام بحقائق الاستقامة والعبودية .

قال الله تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)[3]
قال بعضهم : أعطى الدارين ، ولم يرهما شيئاً ، واتقى اللغو والسيئات ، وصدق

(١) آية رقم ١٢٥ من سورة النحل .
(٢) آية رقم ١٠٨ من سورة يوسف.
(٣) آية ٦ من سورة الليل .

بالحسنى : أقام على طلب الزلفى ، والآية ، قيل : نزلت في أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه . ويلوح في الآية وجه آخر (أعطى) بالمواظبة على الأعمال (واتقى) الوساوس والهواجس (وصدق بالحسنى) لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود (فسنيسره لليسرى) نفتح عليه باب السهولة في العمل والعيش والأنس (وأما من بخل) بالأعمال (واستغنى) امتلأ بالأحوال (وكذب بالحسنى) لم يكن في الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال (فسنيسره للعسرى) نسدّ عليه باب اليسر في الأعمال .

قال بعضهم : إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل ، وفتح عليه باب الكسل ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً ، كان حظهم من العلم أوفر ونصيبهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل .

جاء رجلٌ إلى مُعاذٍ قال : أخبرني عن رجلين ، أحدُهما مجتهدٌ في العبادة كثيرُ العمل قليلُ الذنوب ، إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره[1] الشك .
قال معاذ : لَيُحْبِطَنّ شكُّه عمَلَه .
قال : فأخبرني عن رجل قليل العمل ، إلا أنه قويُّ اليقين ، وهو في ذلك كثير الذنوب . فسكت معاذ .
فقال الرجل : والله ، لئن أحبَط شكُّ الأوّل أعمالَ بِرّه لَيُحْبِطنّ يقينُ هذا ذنوبَه كلَّها .
قال : فأخذ معاذٌ بيده فقال : ما رأيت الذي هو أفقه من هذا .

(١) أي يعتريه وينزل به ويلازمه.

وفى وصية لقمان لابنه : « يا بنى ، لا يُستطاع العملُ إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يُقصّر عاملٌ حتى يَقصُرَ يقينُه » .

فكان اليقينُ أفضلَ العلم ؛ لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية ، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحقّ الربوبية . وكمالُ الحظّ من اليقين ، والعلمِ بالله للصوفية والعلماء الزاهدين . فبان بذلك فضلُهم وفضلُ علمهم .

ثمّ إنى أصوّر مسألةً يستبين بها المعتبِر فضلَ العالم الزاهد العارفِ بصفاتِ نفسه على غيره : عالمٌ دخل مسجداً وقعد وميّز لنفسه مجلساً يجلس فيه كما فى نفسه من اعتقاده فى نفسه لمحله وعلمه ، فدخل داخلٌ من أبناء جنسه وقعد فوقَه ، فانمصر العالمِ وأظلمتْ عليه الدنيا ولو أمكنه لبَطَش بالداخل . فهذا عارضٌ عرَضَ له ومرض اعتراه ، وهو لا يفطِن أنّ هذه عِلّةٌ غامضةٌ ، ومرضٌ يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر فى منشأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفسٌ ثارت وظهرت بجهلها ، وجهلُها لوجود كِبْرها ، وكِبْرها برؤية نفسها خيراً من غيرها ، فعِلْمُ الإنسان أنّه أكبرُ من غيره كِبْرٌ ، وإظهارُه ذلك الفعل تكبّرٌ ، فحيث انمصر صار فعلاً تكبّر .

فالصوفى العالم الزاهد لا يميّز نفسه بشىء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه فى مقام تمييز يميّزها بمجلسٍ مخصوصٍ مُميّز ، ولو قُدّر له أن يُبتلى بمثل هذه الواقعة ، وينمصر من تقدّم غيرِه عليه وترفعه يرى النفسَ وظهورَها ، ويرى أنّ هذا داء ، وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانمصارها صار ذلك ذنبَ حاله ، فيرفعُ فى الحال داءهُ إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهورَ نفسه ، ويُحسن الإنابةَ ، بقَطْع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى ، مستغيثاً من النفس ، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس فى طلب دوائها عن الفكر فيمن

قعد فوقه . وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع والانكسار ؛ تكفيراً لذنبه الموجود ، وتداوياً لدائه الحاصل .

فتبيّن بهذا الفرق بين الرجلين .

فإذا اعتبر المعتبِر ، وتفقد حالَ نفسه فى هذا المقام يرى نفسه كنفوس عوامِّ الخلق وطالبى المناصب الدنيوية ، فأىُّ فرقٍ بينه وبين غيره ممن لا علم له .

ولو أكثرنا تصوير هذه المسائل لنبرهن على فضيلة الزاهدين ، ونقصان الراغبين لأورث الملل ، وهذه هى أوائل علوم الصوفية ؛ فما ظنك بنفائس علومهم ، وشريف أحوالهم . والله الموفق للصواب .

الباب الرابع
فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن على ، قال: أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال : أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقىّ قال : أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال : أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى قال : حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصارى قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، عن أبيه ، عن على بن زيد ، عن سعيد ابن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يابنىّ إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غشٌ لأحدٍ فافعل » ثم قال: « يا بنى ، وذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى ، ومن أحيانى كان معى فى الجنة »[1] وهذا أتمُّ شرف ، وأكمل فضل أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى حقّ من أحيا سنّته .

فالصوفية هم الذين أحْيَوا هذه السنّة ، وطهارةُ الصدور من الغِلّ والغش عمادُ أمرهم ، وبذلك ظهر جَوْهَرهم وبان فضلُهم ، وإنما قدروا على إحياء هذه السنّة ونهضوا بواجب حقّها لزهدهم فى الدنيا ، وتركها لأربابها وطلّابها ؛ لأن مثار الغش والغلّ محبةُ الدنيا ومحبةُ الرفعة والمنزلة عند الناس ، والصوفيةُ زهدوا فى ذلك كلّه ، كما قال بعضهم : « طريقُنا هذا لا يصلح إلاّ لأقوامٍ كُنِسَتْ بأرواحهم المزابل » . فلما سقط عن قلوبهم محبةُ الدنيا وحبُّ الرفعة أصبحوا وأمْسَوْا وليس فى قلوبهم غشٌ لأحد ، فقول القائل : كُنِست بأرواحهم المزابل ،

(١) الترمذى وقال : حسن غريب

إشارةٌ منه إلى غاية التواضع ، وأن لا يرى نفسه تَتَمَيَّز عن أحد من المسلمين ؛ لحقارته عند نفسه ، وعند هذا ينسدُّ باب الغلِّ والغش .

وَجَرَت[1] هذه الحكاية فقال بعض الفقراء من أصحابنا : وقع لى أن معنى كنست بأرواحهم المزابل : أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رِجْسٍ وَنَجس كالمزبلة ، وَكَنْسُها : بنور الروح الواصل إليها ، لأن الصوفيةَ أرواحُهم فى محل القرب ونورها يسرى إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فكأنها تُكنس بنور الروح . وهذا المعنى صحيح وإن لم يُرِد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)[2] قال أبو حفص : كيف يبقى الغلُّ فى قلوب ائتلفت بالله ، واتفقت على محبّته ، واجتمعت على مودّته وأنِسَتْ بذكره . إنّ تلك قلوبٌ صافيةٌ من هواجس النفوس وظُلماتِ الطبائع ، بل كُحِلَتْ بنور التوفيق فصارت إخواناً ، فالخلق حجابُهم عن القيام بإحياء سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً وحالاً صفاتُ نفوسهم ، فإذا تبدّلت نُعوتُ النفس ارتفع الحجاب وصحّت المتابعة ووقعت الموافقة فى كلّ شىء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك . قال الله تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)[3] جعل متابعةَ الرسول صلى الله عليه وسلم آيةَ محبة ربِّه ، وجعل جزاء العبد على حُسن متابعة الرسول محبةَ الله إيّاه ، فأوْفَر الناس حظّاً من متابعة الرسول أوفرهُم حظّاً من محبة الله تعالى .

(١) قيلت (٢) آية رقم ٤٧ من سورة الحجر
(٣) آية رقم ٣١ من سورة آل عمران

والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسولُ فخذوهُ وما نهاكم عنهُ فانتهوا)[١] ثم اتّبعُوه فى أعمالهم من الجدّ والاجتهاد فى العبادة ، والتهجُّد ، والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ورُزقوا ببركة المتابعة فى الأقوال والأفعال التخلُّقَ بأخلاقه : من الحياء ، والحلم ، والصفح والعفو والرأفة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطاً من أحواله من : الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ، فاستوفوا جميع أقسام المتابعة ، وأحيَوا سنته بأقصى الغايات .

قيل لعبد الواحد بن زيد : مَن الصوفية عندك ؟

قال : القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيّدهم من شر نفوسهم هم الصوفية .

وهذا وصف تامٌّ وصفَهم به ، فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول : (لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، إكلأنى كلاءةَ الوليد)[٢] ومن أشرف ما ظَفِر به الصوفىُّ من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصفُ ، وهو : دوام الافتقار ، ودوام الالتجاء إلى الله[٣] ، ولا يتحقق

(١) آية رقم ٧ من سورة الحشر

(٢) احفظنى وارعى وقد روى البزار بسند ضعيف فيه متروك عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، ولا تنزع منى صالح ما أعطيتنى . وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « واقية كواقية الوليد » يعنى للمولود رواه أبو يعلى برجال ثقات غير راو لم يسم .

(٣) أ ـ الملجأ ، ب الالتجاء دون زيادة

بهذا الوصف مِن صِدْقِ الافتقار إلا عبدٌ كُوشِف باطنهُ بصفاء المعرفة ، وأشرق صدرُه بنور اليقين ، وخَلص قلبه إلى بساط القُرب ، وخَلا سِرُّه بلذاذةِ المسامرة ، فبقيت نفسُه بين هذه الأشياء كلّها أسيرةً مأمورةً ، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر ، وهى بمثابة النار لو بقيت منها شرارةٌ أحرقت عالماً ، وهى وشيكة الرجوع سريعة الانفلات والانقلاب ، فالله تعالى بكمال لطفه عرّفَها إلى الصوفى وكشفها له على شىء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرّها ، وكأنها جُعلت سوطاً للعبد تسوقه لمعرفته بشرّها مع اللحظات إلى جناب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء ، فلا يخلو الصوفىُّ عن مُطالعتها أدنى ساعةٍ ، كما لا يخلو عن ربّه أدنى ساعة ، وربطُ معرفتها بمعرفة الله تعالى فيما ورد (مَن عرف نفسه فقد عرف ربه)[١] كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ، ومَن الذى يقوم بإحياء هذه السنة من سُنن الرسول صلى الله عليه وسلم غيرُ الصوفى العالمِ بالله ، الزاهدِ فى الدنيا ، المستمسكِ من التقوى بأوثقِ العُرَى ؟

ومَن الذى يهتدى إلى فائدة هذه الحال غيرُ الصوفى ؛ فدوامُ افتقارِه إلى ربّه تمسّكٌ بجناب الحق ولِياذٌ به ، وفى هذا اللِّياذ استغراقُ للروح ، واستتباع القلب إلى محل الدعاء وفى انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والسكون فيه : نُبوّ النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة ونُزولها إليها فى مدارج[٢] العلم محفوفةً بحراسةِ الله تعالى ورعايته .

والنفسُ المدبرةُ بهذا التدبير مِن حُسن تدبير الله تعالى مأمونةُ الغائلة من الغِلّ والغِشّ والحقد والحسد وسائرِ المذمومات . فهذا حال الصوفى .

(١) قال السمعانى : لا يعرف مرفوعا وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازى من قوله وكذا قال النووى : ليس بثابت

(٢) فى ا : مدرج العلم ، وفى ب : مدارج .

ويجمع جُمَل حال الصوفية شيئان : هما وَصفُ الصوفية وإليهما الإشارة بقوله تعالى : (اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ[1]) . فقوم من الصوفية خُصُّوا بالاجتباء الصِّرف ، وقومٌ منهم خُصّوا بالهداية بشرط مُقدِّمة الإنابة ، والاجتباء المحض غيرُ مُعَلَّلٍ بكسب العبد ، وهذا حالُ المحبوب المرادِ يبادئه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كَسْب منه ، يَسْبق كشوفُه اجتهادَه وفى هذا أخذ بطائفةٍ من الصوفية رُفعت الحُجبُ عن قلوبهم وبادرهم سُطوعُ نور اليقين فأثار نازلُ الحال فيهم شهوةَ الاجتهاد والأعمالِ ، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قُرَّةُ أعينهم، فَسَهّل الكشفَ عليهم الاجتهادَ ، كما سَهَّل على سحرة فرعون لذاذةُ النازل بهم من صفو العرفان : تَحمُّلَ وعيدِ فرعون فقالوا : (لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)[2] .

قال جعفرٌ الصادقُ ، رضى الله عنه : وجدوا أرواحَ العِناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكراً وقالوا (آمَنَّا بِرَبِّ العالمين)[3] .

أخبرنا أبو زُرْعة طاهر بن أبى الفضل إجازة ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال : أخبرنا عبد الرحمن السُّلمى ، قال : سمعت منصوراً يقول : سمعت أبا موسى الزقّاق يقول : سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون ، اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة ، وهيّأهم الكرامة فأسقط عنهم حركاتِ الطلب ، فصارت حركاتُهم فى العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفرادِ بقربه .

(١) آية رقم ١٣ من سورة الشورى .
(٢) آية رقم ٧٢ من سورة طه .
(٣) آية رقم ١٢١ من سورة الأعراف .

وبهذا الإسناد إلى أبى عبد الرحمن السُّلمى(*) قال : سمعتُ علىَّ بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصى يقول : سمعت فاطمة المعروفة بـ « جويرية » تلميذة أبى سعيد تقول : سمعت الخرّاز يقول : المرادُ : محمولٌ فى حاله ضَمانٌ على حركاته وسعيه فى الخدمة ، مكفىٌّ مَصونٌ عن الشواهد والنواظر . وهذا الذى قاله الشيخ أبو سعيد هو الذى اشتبهت حقيقتُه على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد رأوا جمعاً من المشايخ قَلَّتْ نوافلهم فظنوا أن ذلك حالٌ مستمرةٌ على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافلَ واقتصروا على الفرائض كانت بداياتُهم بداياتِ المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوفُ بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال .

فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرّةُ أعينهم . وهذا أتمُّ وأكمل من الأول .

فهذا الذى أوضحناه أحدُ طريق الصوفية .

أما الطريقُ الآخر : طريقُ المريدين ، وهم الذين شرط لهم « الإنابةُ » فقال الله تعالى . (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) فطولبوا بالاجتهاد أولاً قبل الكشوف.

قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[1]) يُدَرِّجهم الله تعالى فى مدارج الكَسْبِ بأنواع الرياضات والمجاهدات ، وسَهَر الدياجر وظمأ الهواجر ، تتأجج فيهم نيرانُ الطلب ، وتحتجب دونهم لوامع الأرب ، يتقلبون فى رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهى الإنابة التى شرطها الحق سبحانه

(*) هو : محمد بن الحسين بن موسى الأزدى السلمى ، أبو عبد الرحمن ، من علماء الصوفية ، مولده ووفاته بنيسابور له كتاب (طبقات الصوفية) وكتاب (الفتوة) وكتاب (أدب الصحبة) ولد سنة ٤١٢هـ الموافق سنة ١٠٢١م (انظر الأعلام للزركلى جـ ٣ ص ٨٨٩) .
(١) آية رقم ٦٩ من سورة العنكبوت .

وتعالى لهم ، وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية آنفًا هداية خاصة ، لأنها هداية إليه ، غير الهداية العامة التى هى الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحبّ المريد ، فكانت الإنابة عين الهداية العامة ، فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، فتخلّصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى رَوْح الأحوال ، فسبق اجتهادُهم كشوفَهم والمرادون سبق كشوفُهم اجتهادَهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى قال ، حدثنا محمد بن الحسين ابن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت الجنيد ، رحمه الله ، يقول : ما أخذنا التصوفَ عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات[1] .

وقال محمد بن خفيف[*] : الإرادةُ سموُّ القلب لطلب المراد . وحقيقةُ الإرادة : استدامةُ الجدّ وتركُ الراحة

وقال أبو عثمان : المريدُ الذى مات قلبه عن كل شىء دون الله تعالى ، فيريد الله وحدَه ، ويريد قُرْبه ، ويشتاق إليه حتى تذهب شهواتُ الدنيا عن قلبه لشدّة شوقه إلى ربّه .

---

(١) أى المألوفات النفسية والمستحسنات الطبيعية .

(*) هو : أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى أمه نيسابورية ، أقام بشيراز كان من الأمراء ثم تفقه وتصوف وتزهد ، أخذ عن الأشعرى وغيره ومات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة هجرية (انظر الجزء الأول من الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف نشر دار الكتب الحديثة) .

وقال أيضًا : عقوبةُ قلوب المريدين أن يُحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها .

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية .

ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف :

أحدهما : مجذوب أبق[1] على جذبته لم يرد إلى الاجتهاد بعد الكشف .

والثانى : مجتهد متعبّد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد .

والصوفية فى طريقتهم بابُ مَزيدهم وصحةُ طريقهم بحسن المتابعة . ومَن ظنّ أن يبلغ غرضاً ، أو يظفر بمرادٍ لا من طريق المتابعة ، فهو مخذولٌ مغرورٌ .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال : أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفّار قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت نصر بن أبى نصر يقول : سمعت قُتَيْباً غلامَ الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد السكرى يقول : سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول : كلُّ باطنٍ يخالفه ظاهرٌ فهو باطل .

وكان يقول الجنيد رحمه الله : عِلْمنا هذا مُشْتَبِكٌ بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : من أمّر[2] السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة .

---

(١) وفى نسخة : أبتر ، أى مقطوع عن الخير .

(٢) أى : حكم .

حُكى أنَّ أبا يزيد البَسْطامى(*)، رحمه الله تعالى، قال ذات يوم لبعض أصحابه: قُمْ بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شَهَّر نفسه بالولاية ـ وكان الرجل فى ناحيته مقصوداً مشهوراً بالزهد والعبادة ـ فمضينا إليه، فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بُزَاقَه نحو القبلة، فقال أبو يزيد: انصرفوا، فانصرف ولم يُسلِّم عليه وقال: هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه من مقامات الأولياء الصالحين؟

وسُئل خادم الشبلى، رحمه الله تعالى: ماذا رأيتَ منه عند موته؟

فقال: لمّا أمسِكَ لسانُه، وعرِق جبينُه أشار إلىّ أنْ وَضِّئنى للصلاة، فوضأتُه، فنسيتُ تخليلَ لحيته، فقبض على يدى، وأدخل أصابعى فى لحيته يُخلّلها.

وقال سهل بن عبد الله: كلُّ وَجْدٍ لا يَشْهد له الكتابُ والسنّةُ فباطل.

هذا حال الصوفية وطريقهم، وكلّ من ادّعى حالاً على غير هذا الوجه فمُدّعٍ، مفتونٌ، كذّابٌ.

(*) هو أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى، ذكر ابن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه، وقد اختلف فى زمن وفاته، فقيل سنة ٢٦١ هـ، وقيل سنة ٢٣٤ هـ [انظر الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٨٠].

الباب الخامس
فى ماهيـــة التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زُرعة طاهرُ بنِ أبى الفضل فى كتابه قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازى إجازة قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء قال: حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادى قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا عمر بن راشدٍ عن مالك ابن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكلّ شىء مفتاحٌ، ومفتاحُ الجنة حبُّ المساكين والفقراء الصُّبُرُ هم جلساء الله تعالى يوم القيامة[1]». فالفقر[2] كائنٌ فى ماهية التصوف، وهو أساسه، وبه قِوامُه.

قال رويم(*): التصوف مبنىّ على ثلاث خصال: التمسكُ بالفقرِ والافتقارِ، والتحققُ بالبذلِ والإيثارِ، وتركُ التعرّضِ[3] والاختيارِ.

(١) روى عن ابن عمر بإسناد ضعيف وفى فضل الفقراء أحاديث صحيحة كثيرة.

(٢) الفقر بأن يكون خالى اليد عن الأملاك وخالى القلب عن الأمانى، والفقر بهذا المعنى بداية التصوف وأساسه؛ لأن مبنى التصوف على فراغ القلب من المحدثات واقتباس أنوار القديم بالاشتغال الدائم بالله، وأما الفقر بمعنى فقدان الوجود والاستغراق فى بحر الشهود فالتصوف بدايته وعليه مداره وبه قوامه.

(*) هو: أبو محمد رويم بن أحمد البغدادى من أكابر مشايخ الصوفية مات سنة ٣٠٣ هـ. ومن كلامه (الإخلاص فى العمل أن لا يريد عوضاً فى الدارين).

(٣) أى ترك التعرض بأحوال الناس وبالأمور التى تفرق القلب وتوزع الباطن.

وقال الجنيد : وقد سئل عن التصوف ، فقال : أن تكون مع الله بلاعلاقة[1] .

وقال معروف الكرخى : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألاّ يستغنى بشىء دون الحق .

وقال أبو الحسين النورى : نعتُ الفقير السكونُ عند العدَم ، والبذلُ والإيثارُ عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترِزُ من الغِنَى حَذَراً أن يدخل عليه الغنى فيفسدَ عليه فقره . كما أنّ الغنىَّ يحترز من الفقر حَذَراً أن يدخُل عليه الفقرُ فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت مظفّراً القرميسينى يقول : الفقيرُ : الذى لا يكون له إلى الله حاجة ، قال : سمعته يقول : سألت أبا بكر المصرى عن الفقير فقال : الذى لا يملك ولا يُملك .

قوله : (لا يكون له إلى الله حاجة) معناه : أنه مشغولٌ بوظائف عبوديته تامُّ الثقة بربّه ، عالِمٌ بحسن كلاءته به ، لا يُحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال فى البَيْن زيادة .

وأقوال المشايخ تتنوّع معانيها ؛ لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال فى أوقاتٍ دون أوقات ، ويُحتاج فى تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط ؛ فقد تذكر

(١) أى بلا علاقة القلب بما سواه . والعلاقة [بالفتح] الارتباط .

أشياء فى معنى التصوف ذُكِرَ مثلُها فى معنى الفقر ، وتذكر أشياء فى معنى الفقر ذكر مثلها فى معنى التصوف ، وحيثُ وقع الاشتباه فلا بُدَّ من بيان فاصل ؛ فقد تشتبه الإشارات فى الفقر بمعانى الزهد تارةً وبمعانى التصوف تارة ولا يتبين للمسترشد بعضُها من بعض ؛ فنقول : التصوف غيرُ الفقر ، والزهدُ غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ؛ فالتصوف اسمٌ جامعٌ لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيدِ أوصافٍ وإضافاتٍ لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ؛ فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردودٌ من حيث يرجو القبول .

وقال أيضاً : حُسْنُ أدب الظاهر عُنوانُ حُسن أدب الباطن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضىّ الدين أحمد بن إسماعيل إجازة ، قال : أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم قال : أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى قال : سمعت محمد ابن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال : « الدخول فى كل خلق سَنِىّ ، والخروجُ عن كل خلق دنىّ » .

فإذا عرف هذا المعنى فى التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها ، واعتُبر حقيقتها ، يُعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر .

وقيل : « نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف » .

وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى :

(لِلفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[1]) هذا وصف الصوفية ، والله تعالى سماهم فقراء .

وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر ، نقول : الفقيرُ فى فقره متمسك به ، متحقق بفضله ، يؤثره على الغِنى ، متطلعٌ إلى ما تحقق من العِوض عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتى الجنةَ قبل الأغنياء بنصف يوم : وهو خمسمائة عام[2] » .

فكلما لاحظ العِوضَ الباقى أمسك عن الحاصل الفانى ، وعانق الفقر والقِلّة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعِوض ، وهذا عين الاعتلال فى طريق الصوفية لأنه تطلّع إلى الأعواض ، وتركٌ لأجلها .

والصوفى يترك الأشياء ، لا للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته .

وأيضاً ترك الفقير الحظّ العاجل واغتنامه الفقر اختيارٌ منه وإرادةٌ ، والاختيارُ والإرادةُ علّةٌ فى حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائماً فى الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلةً فى صورة فقر ولا فى صورة غِنًى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يُوفّقه الحقُّ فيه ويُدخِله عليه ويَعْلَم الإذن من الله تعالى فى الدخول فى الشىء .

وقد يدخل فى صورة سَعَةٍ مباينة للفقر بإذن من الله تعالى ، ويرى الفضيلةَ

(١) من آية ٢٧٣ من سورة البقرة .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى وروى الترمذى بسند حسنه وابن ماجة من حديث أبى سعيد : يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر أن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء إلى الجنة بأربعين خريفاً ، وهذا الحديث رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

حينئذٍ فى السَّعة لمكان الإذن من الله فيه ، ولا يُفْتَحُ فى السَّعة والدخولِ فيها للصادقين إلاّ بعد إحكامهم عِلْمَ الإذن . وفى هذا مَزَلّة للاقدام وبابُ دعوى للمدّعين ، وما مِن حالٍ يتحقق به صاحبُ الحال إلاّ وقد يحكيه راكب المحال « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة »[1] .

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوّف .

وعُلم أن الفقرَ أساسُ التصوف ، وبه قِوامه ، على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقُه الفقر ، لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجودُ الفقر

قال الجنيد ، رحمة الله عليه : التصوفُ هو أن يُميتَك الحقُّ عنك ويُحييك به.

وهذا المعنى هو الذى ذكرناه من كونه قائماً فى الأشياء بالله ، لا بنفسه .

والفقير والزاهدُ مكوّنان فى الأشياء بنفسيهما ، واقفان مع إرادتهما ، مجتهدان مَبْلَغ علمهما ، والصوفى مُتّهِمٌ لنفسه ، مستقِلٌّ لعلمه ، غيرُ راكنٍ إلى معلومه ، قائم بمراد ربّه ، لا بمراد نفسه .

قال ذو النون المصرى(*) ، رحمة الله عليه : الصوفىّ : مَن لا يُتْعبه طلب ، ولا يُزْعجه سَلْبٌ .

(١) من آية ٤٢ من سورة الأنفال .

(*) هو : أبو الفيض ذو النون المصرى ، أصله من نوبة مصر ، ثم نزل به « إخميم » من ديار مصر فأقام بها ، قال عنه ابن يونس : « امتحن » وأوذى لكونه أتى بعلم لم يعهد ، روى عن مالك والليث ، وروى عنه كثيرون منهم : الطائى ، مات سنة : خمس وأربعين ومائتين ، ومن كلامه : « من راقب العواقب سلم » « إياك أن تكون للمعرفة مدعياً ، أو بالزهد محترفا ، أو بالعبادة متعلقاً ، ففر من كل شىء إلى ربك » « من وثق بالمقادير لم يغتم » و « العبودية أن تكون عبده على كل حال كما هو ربك على كل حال » و « من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه ، وأفعاله ، وأوامره ، وسننه » .

وقال أيضاً : الصوفيةُ آثروا الله تعالى على كلّ شيء فآثرهم الله على كلّ شيء
فكان من إيثارهم أن آثروا عِلم الله على عِلْم نفوسهم ، وإرادة الله على
إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : مَن أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفيةُ ؛ فإن للقبيح عندهم
وَجهاً من المعاذير ، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك
نفسك ، وهذا عِلم لا يوجد عند الفقير والزاهد ؛ لأن الزاهد يستعظم التركَ ،
ويستقبح الأخذ ، وهكذا الفقير ؛ وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حدّ علمهم .

وقال بعضهم : الصوفيّ من إذا استقبله حالان حسنان ، أو خُلقان حسنان
يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كلّ التمييز بين الخُلقين الحسنين ،
بل يختاران من الأخلاق أيضاً ما هو الأدعى إلى الترك والخروجِ عن شواغل
الدنيا ، حا كان في ذلك بعلمهما

والصوفيّ : هو المستبينُ الأحسَنَ من عند الله بصدقِ التجائِه وحُسْنِ
إنابته وحَظّ قُرْبه ولطيف دُلُوجه[1] وخُروجِه إلى الله تعالى ؛ لعلمه بربّه وحقّه
من محادثته ومكالمته .

قال « رويم » : التصوّف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكيّ : التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولاً
بما هو أولى في الوقت .

قال بعضهم : التصوف أوّله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة
من الله تعالى .

وقيل : التصوف ذِكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتّباع .
وقيل : التصوف : ترك التكلّف وبذل الروح .

(١) من الدلج وهو سير أول الليل ، والمراد كثرة المجاهدة والاجتهاد .

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَري : الصوفيّ مَن صفا من الكَدَر ، وامتلأ
من الفِكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدَر[1] .

وسئل بعضهم عن التصوّف فقال : تصفية القلب عن موافقة البريّة ، ومفارقة
الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة
الصفات الروحانية ، والتعلّق بعلوم الحقيقة ، واتّباع الرسول في الشريعة .

قال ذو النون المصري : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين
أقبلتِ ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع . فقلت : وأين
تريدين ؟ قالت : إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . فقلت :
صفيهم لي . فأنشدت :

قوم هُمومهم[2] بالله قد عَلِقَتْ ... فما لهم هِمَمٌ تسمو إلى أحد
فمطلبُ القوم مولاهُم وسيدُهم ... يا حُسْنَ مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دُنيا ولا شَرَف ... من المطاعم واللّذات والوَلَد
ولا للِبس ثياب فائق أنق ... ولا لِرَوْحِ سُرُور حَلّ في بلد[3]
إلاّ مسارعةٌ في إثر منزلة[4] ... قد قاربَ الخطوُ فيها باعدَ الأبَد
فهم رهائن غُدران وأودية ... وفي الشوامخ تلقاهم مع المدَد

وقال الجنيد : الصوفي كالأرض يُطرح عليها كلّ قبيح ، ولا يخرج منها
إلا كلّ مليح .

(١) المدر : الطين . (٢) نهوسهم .
(٣) هم فيما يرد عليهم من الواردات الجالية في روح سرور لا يلتفتون معها
إلى موانع سرور العوام .
(٤) لكن تنازعهم مسارعة إلى الترقي من منزلة ومقام حصل لهم يسرعون
عقيب حصولهم على تلك المنزلة إلى أعلى منها .

وقال أيضاً : هو كالأرض يطؤها البَرّ والفاجر ، وكالسحاب يُظِلّ كلّ شيء ، وكالقَطر يسقى كلّ شيء .

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف قول ، ويطول نقلها ، ونذكر ضابطاً يجمع جُمَل معانيها ، فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربةُ المعانى ، فنقول :

الصوفىّ : هو الذى يكون دائم التصفية لا يزال يُصفّى الأوقاتِ من شَوْب الأكدار بتصفية القلب عن شوائب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوامُ افتقاره إلى مولاه ، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر ، وكلما تحركت النفسُ وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفرّ منها إلى ربّه .

فبدوام تَصْفيته جَمْعيّتُه ، وبحركة نفسه تفرقتُه وكَدَرُه ؛ فهو قائم بربّه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى : (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)[١]، وهذه القوّامية لله على النفس هى التحقق بالتصوّف .

قال بعضهم : التصوّف كلّه اضطراب ؛ فإذا وقع السكون فلا تصوّف .

والسرّ فيه : أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية ، بمعنى أن روح الصوفى متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوَصْفها رُسوبٌ إلى عالمها ، وانقلاب على عقبها .

ولا بدّ للصوفىّ من دوام الحركة ؛ بدوام الافتقار ، ودوام الفرار ، وحُسْن التفقّد لمواقع إصابات النفس ، ومَن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى التصوّف جميع المتفرق فى الإشارات .

---

(١) آية ٨ من سورة المائدة .

الباب السادس

فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زُرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، قال : أخبرنى والدى قال : أخبرنا أبو علىّ الشافعى بمكةَ — حرسها الله تعالى — قال : أخبرنا أحمد ابن إبراهيم قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا سفيان ، عن مُسلم ، عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوةَ العبد ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف[١] .

فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سُمُّوا صوفيةً نسبةً لهم إلى ظاهر اللِّبسة لأنهم اختاروا لُبس الصوف لكونه أرفق[٢] ، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مرّ بالصخرة من الرَّوْحاء[٣] سبعون نبياً ، حفاة ، عليهم العباء يَؤُمّون البيت الحرام ، وقيل : إن

---

(١) روى الشيخان (البخارى ومسلم) عن أسامة بن زيد أنه صلى الله عليه وسلم كان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف » وروى الطبرانى لبسه الصوف بسند صحيح .

(٢) أسهل مطلباً .

(٣) الروحاء : اسم بلد ، والروحاء منزل بين مكة والمدينة وروى الحاكم بسنده عن عبد الله قال : كانت الأنبياء يستحبون أن يلبسوا الصوف وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبى وهذا الحديث رواه أبو يعلى عن الطبرانى .

عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشَّعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيتُ حيث أمسى[1] .

وقال الحسن البصرى ، رضى الله عنه : لقد أدركت سبعين « بدرياً » كان لباسهم الصوف ووصفهم[2] أبو هريرة ، وفُضالةُ بن عُبيد فقالا : كانوا يخرّون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يَعرَق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث[3] .

وقال بعضهم : إنه ليؤذينى ريحُ هؤلاء ، أما يؤذيك ريحُهم !! يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

فكان اختيارهم[4] للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسدّ الجوعة ، وستر العورة ، واستغراقهم فى أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا لملاذّ النفوس وراحاتها ، لشدة شُغلهم بخدمة مولاهم ، وانصرافِ هممهم إلى أمر الآخرة . وهذا الاختيارُ يلائم ويناسب من حيثُ الاشتقاقُ ، لأنه يقال « تَصوّف » إذا لبس الصوف ، كما يقال « تَقمّص » : إذا لبس القميص .

ولمّا كان حالهم بين سَير وطَير ؛ لتقلبهم فى الأحوال ، وارتقائهم من «عال»

---

(١) أى ما كان له مسكن يأوى إليه بالليل لكمال زهده فى الدنيا ويأكل من الشجر أى الأشجار المنتشرة فى الوديان التى لا يملكها أحد .

(٢) أى أصحاب الصفة .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : لو رأيتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم لحسبت أنما ريحنا ريح الضأن ، إنما لباسنا الصوف وطعامنا الأسودان التمر والماء رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح وعن أبى بردة قال : قال لى أبى لو رأيتنا ونحن مع نبينا وقد أصابتنا السماء حسبت ريحنا ريح الضأن ، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

(٤) أى الصوفية

إلى « أعلى منه » لايقيدهم وصف ولا يحبسهم نعتٌ وأبواب المزيد — عِلماً وحالاً — عليهم مفتوحة ، وبواطنهم معدن الحقائق ومجمع العلوم ، فلما تعذّر تقييدهم بحالٍ لتنوع وجدانهم وتجانس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللّبسة . وكان ذلك أبيَن فى الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حَصْر وصفهم ؛ لأن لبس الصوف كان غالباً على الأنبياء والمتقدمين من سلفهم ، وأيضاً ، لأن حالهم حال المقرّبين ، كما سبق ذكره .

ولما كان الاعتزاء إلى القُرب — وعِظَم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمرٌ صعبٌ يَعِزُّ كشفه والإشارةُ إليه — وقعت الإشارة إلى زيّهم ستراً لحالهم ، وغَيْرةً على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه ، وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقربَ إلى الأدب ، والأدبُ فى الظاهر والباطن والقول والفعل عمادُ أمر الصوفية

وفيه معنى آخر : وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تُنبىء عن تقلّلهم من الدنيا ، وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم ، حتى أن المبتدىء المريدَ الذى يُؤْثِر طريقتهم ويحب الدخول فى أمرهم يُوطِّن نفسه على التقشف والتقلل ، ويَعلم أن المأكول أيضاً من جنس الملبوس فيدخلَ فى طريقهم على بصيرة . وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدىء . والإشارة إلى شىء من حالهم وتسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات فكان تسميتهم بهذا أنفع وأولى ، وأيضاً فغيرُ هذا المعنى مما يقال إنهم سُمُّوا صوفيةً لذلك يتضمن دعوَى وإذا قيل : سُمُّوا صوفية للبسهم الصوف يكون أبعد من الدعوى ، وكلُّ ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم .

وأيضاً لأن لبس الصوف حُكم ظاهرٌ على الظاهر من أمرهم ، ونسبتُهم إلى أمرٍ آخر ، من حال أو مقام ، أمرٌ باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى ، فالقول بأنهم سموا « صوفية » للبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع .

ويقرب أن يقال: لمّا آثروا الذبول والخمول، والتواضع والانكسار، والتخفّى والتوارى كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية التى لا يُرغب فيها ولا يلتفت إليها، فيقال: «صوفى» نسبة إلى «الصوفة» كما يقال: «كوفى» نسبة إلى «الكوفة» وهذا ما ذكره بعض أهل العلم.

والمعنى المقصود به قريبٌ ويلائم الاشتقاقُ. ولم يزل لبسُ الصوف اختيارُ الصالحين والزهاد والمتقشفين والعبّاد.

أخبرنا أبو زُرعة طاهر عن أبيه، قال: أخبرنا عبد الرازق بن عبد الكريم قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال: حدثنا أبو على بن إسماعيل بن محمد قال: حدثنا الحسن بن عرفة، قال: حدثنا خلف بن خليفة، عن حُميد الأعرج، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوم كلّم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جُبة من صوف وسراويل من صوف، وكساء من صوف، وكُمّةُ من صوف ونعلاه من جلد حمار غير ذكى»[1].

وقيل: سُمّوا صوفية؛ لأنهم فى الصف الأوّل بين يدى الله عزّ وجلّ، بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقيل: كان هذا الاسم فى الأصل «صَفَوِىّ»، فاستثقل ذلك وجُعل «صوفياً».

وقيل: سمّوا «صوفية» نسبة إلى «الصُّفّة» التى كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم: (للفقراء الذين أُحصِرُوا فى سبيل الله لا يستطيعون ضَرْباً فى الأرض)[2].

وهذا وإن كان لا يستقيم من حيثُ الاشتقاقُ اللغوى، ولكنه صحيح من

(١) الترمذى والحاكم فى المستدرك وغيرهما قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن على الكوفى وقال فيه البخارى منكر الحديث وهو فى سند الحاكم.
(٢) آية رقم ٢٨٣ من سورة البقرة.

حيث المعنى، لأن الصوفية يُشاكل حالُهم حال أولئك؛ لكونهم مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله وفى الله، كأصحاب الصفّة، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم تكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر، جمعوا أنفسهم فى المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً فى الزوايا والرُّبط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون، ويرضخون[1] النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلّم القرآن وتلاوته. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم، ويحثّ الناسَ على مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: (ولا تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والعشى)[2] ونزل فى ابن أم مكتوم قوله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أن جاءَهُ الأعْمَى) وكان من أهل الصفة؛ فعوتب النبى صلى الله عليه وسلم لأجله

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم، وكان يُفَرِّقهم على أهل الجِدَةِ والسَّعة يبعث مع واحدٍ ثلاثةً ومع الآخر أربعةً وكان «سعد بن معاذ» يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم.

وقال أبو هريرة، رضى الله عنه: لقد رأيت سبعين بدرياً من أهل الصفة يُصَلُّون فى ثوب واحد، منهم من لا يبلغ ركبتيه؛ فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافةَ أن تبدو عورتُه[3].

وقال بعض أهل الصفة: جئنا جماعةً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلنا: يارسول الله، أحرق بطونَنا التمرُ!! فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد المنبر، ثم قال: «ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر، أما

(١) يرضخون: يكسرون ويطحنون.
(٢) من الآية ٥٢ من سورة الأنعام. (٣) رواه البخارى بنحوه.

علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسَوْنا به ، وواسيناكم مما واسَوْنا به ، والذى نفس محمد بيده إنْ منذ شهرين لم يرتفع من بيتٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخانٌ للخبز ، وليس لهم إلا الأسودان : الماء والتمر »[1].

أخبرنا الشيخ أبو الفتوح محمد بن عبد الباقى فى كتابه ، قال : أخبرنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثى ، قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطى ، قال : حدثنا الحسن بن يحيى بن على الترمذى ، قال : حدثنى سعيد بن حاتم البلخى قال : حدثنا سهل بن أسلم ، عن خلّاد بن محمد ، عن أبى عبد الرحمن السكرى ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة ، فرأى فقرهم وجُهدهم ، وطيبَ قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقى منكم على النعت الذى أنتم عليه اليوم راضياً بما هو فيه فإنه من رفقائى يوم القيامة »

وقيل : كان منهم طائفة بـ « خراسان » يأوون إلى الكهوف والمغارات ، ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمونهم فى خراسان : « شِكَفْتيه » ، لأن « شِكَفْت » اسم الغار ، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر .

وأهل الشام يسمونهم « جُوعيَّة » .

والله تعالى ذكر فى القرآن طوائف الخير والصلاح ، فسمّى قوماً أبراراً ، وآخرين مقرّبين ، ومنهم الصابرون والصادقون والذاكرون ، والمحبّون ، واسم « الصوفى » مشتمل على جميع المتفرق فى هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان فى زمن التابعين .

(١) الحاكم بنحوه وقال صحيح وأقره الذهبي وقال هو فى مسند أحمد .

ونقل عن الحسن البصرى ، رحمة الله عليه ، أنه قال : رأيت صوفياً فى الطواف ، فأعطيته شيئاً ، فلم يأخذ ، وقال : معى أربع دوانيق يكفينى ما معى.

ويشيد[1] هذا القول ما روى عن سفيان أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفىّ ما عرفت دقيق الرياء .

وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً .

وقيل : لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية ؛ لأن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل « صحابياً » لشرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة.

وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سُمِّىَ « تابعياً » .

ثم لمّا تقادم زمان الرسالة ، وَبَعُد عهدُ النبوة ، وانقطع الوحى السماوى ، وتوارى النور المصطفوى ، واختلفت الآراء ، وتنوّعت الأنحاء[2]، وتفرّد كلُّ ذى رأى برأيه ، وكدّر شربَ العلوم شوبُ الأهوية[3] ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات وكثُف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خُطّابها[4]، تفرّدت طائفة بأعمال صالحة ، وأحوال سَنِيّة[5] ، وصدق فى العزيمة وقوّة فى الدين ، وزهدوا فى الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب ، متبتلين إلى ربّ الأرباب ، فأثمر لهم صالحُ الأعمال سَنِيَّ الأحوال ، وتهيّأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسانٌ ، وبعد العِرفان عرفانٌ ،

(١) يشيد ، أى يقوى . (٢) المقاصد . (٣) الأهواء .
(٤) طلابها . (٥) رفيعة .

وبعد الإيمان إيمانٌ ، كما قال حارثةُ : « أصبحتُ مؤمناً حقًّا »[1] ؛ حيث كُوشف برتبة فى الإيمان غيرِ ما يتعاهدها .

فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها ، وإشارات يتعاهدونها ، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معانٍ يعرفونها ، وتُعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلفُ عن السلف ، حتى صار ذلك رسمًا مستمراً ، وخبراً[2] مستقراً فى كلّ عصر وزمان ؛ فظهر هذا الاسم بينهم ، وتسمّوا به وسُمّوا به ، فالاسم سِمَتهم ، والعلمُ بالله صفتُهم ، والعبادة حُليهم[3] ، والتقوى شعارهم ، وحقائقُ الحقيقة أسرارهم ، نُزّاعُ القبائل ، وأصحاب الفضائل ، سُكّان قِباب الغَيْرة ، وقُطّان ديار الحَيْرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيدٌ ، ولهيبُ شوقهم يتأجج ويقول : هل من مزيد ؟

اللهمّ احشرنا فى زمرتهم ، وارزقنا حالاتهم ، والله أعلم .

---

(١) حدث : لما قال له حارثة « أنا مؤمن حقا » فقال : « وما حقيقة إيمانك » الحديث . رواه البزار من حديث أنس . والطبرانى من حديث الحارث بن مالك ، وكلا الحديثين ضعيف يقوى أحدهما الآخر .

(٢) وفى نسخة : وخيراً . (٣) وفى نسخة : حليتهم .

الباب السابع
فى ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إجازة ، قال : أخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال : أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال : أخبرنا أبو محمد يحيى ابن محمد الأصفهانى ، قال : حدثنا الحسين بن الحسن المروزىُّ ، قال : أخبرنا عبد الله ابن المبارك ، قال : أخبرنا المعتمر بن سليمان ، قال : أخبرنا حميدٌ الطويلُ ، عن أنس بن مالك ، قال : جاء رجل إلى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله ، متى قيام الساعة ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال : « أين السائل عن الساعة ؟ » فقال الرجل : أنا يا رسول الله . قال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام — أو قال ما أعددت لها كثير عمل — إلاّ أنى أحبُّ الله ورسوله ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت »[1] .

قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرَحَهم بهذا .

فالمتشبّه بالصوفية ما اختار التشبّه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته .

وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذى رويناه فى المعنى : رَوَى عُبادةُ ابن الصامت ، عن أبى ذرّ الغفارى قال : قلت يا رسول الله ، الرجل يحبُّ القومَ ولا يستطيع أن يعمل كعملهم قال : « أنت يا أبا ذرّ مع من أحببت ؟ » قال : فإنى

---

(١) رواه البخارى ومسلم بنحوه

أحب الله ورسوله . قال : « فإنك مع من أحببت » قال : فأعادها أبو ذرّ ، فأعادها رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

فصحبةُ المتشبِّه إياهم لا تكون إلا لتنبُّه روحه لما تنبهت له أرواحُ الصوفية ؛ لأن محبة أمر الله وما يُقرِّب منه ومَن يُقرِّب منه ، تكون بجاذب الروح ، غير أن المتشبه تعوّق بظلمة النفس ، والصوفيّ تخلص من ذلك ، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي ، وهو مشارك ببقاء شيء من صفات نفسه عليه للمتشبه . وطريقُ الصوفية أوّلُه إيمان ، ثم علم ، ثم ذوق ؛ فالمتشبه صاحب إيمان .

والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير ؛ قال الجنيد رحمة الله عليه : الإيمان بطريقنا هذا ولاية .

ووجه ذلك ، أنّ الصوفية تميّزوا بأحوال عزيزة ، وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ؛ لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم وإشارتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة .

وقد أنكر قوم من أهل الملّة كراماتِ الأولياء والإيمانُ بذلك إيمانٌ بالقدرة ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصّه الله تعالى بمزيد عنايته .

فالمتشبه صاحب إيمان ، والمتصوّف صاحب علم ؛ لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيدَ علمٍ بطريقهم ، وصار له من ذلك مواجيد يَستدلّ بها على سائرها . والصوفي صاحب ذوق . فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفي ، وللمتشبه نصيب من حال المتصوف .

(١) رواه أبو داود

وهكذا سُنّة الله تعالى جاريةٌ أن كلّ صاحب حالٍ له ذوق فيه لا بد أن يُكشَف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون في الحال الأول صاحبَ ذوق ، وفي الحال الذي كوشف به صاحبَ علم ، وبحالٍ فوق ذلك صاحب إيمان . حتى لا يزال طريقُ الطلب مسلوكا ، فيكون في حال الذوق صاحب قدم ، وفي حال العلم صاحب نظر ، وفي حالٍ فوق ذلك صاحبَ إيمان ، قال الله تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون)[1] وصفَ الأبرارَ ، ووصف شرابهم ، ثم قال سبحانه وتعالى : (ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقرّبون)[2] فكان لشراب الأبرار مَزْجٌ من شراب المقرّبين ، وللمقرّبين ذلك صِرفاً ؛ فللصوفيّ شراب صِرف ، وللمتصوف من ذلك مزج في شرابه ، وللمتشبّه مزج من شراب المتصوف .

فالصوفي سبق إلى مقار الروح من بساط القرب ، والمتصوّف بالنسبة إلى الصوفي كالمتزهّد بالنسبة إلى الزاهد ؛ لأنه تعمّل وتعمّل وتَسَبَّب إشارةً إلى ما بقي عليه من وصفه ، فهو مجتهد في طريقه سائر إلى ربّه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيروا ، سبق المفرِّدون » قيل : مَن المفرِّدون يا رسول الله ؛ قال : « المستهتَرون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا يوم القيامة خفافاً »[3] .

فالصوفيّ في مقام المفردين ، والمتصوّف في مقام السائرين واصلٌ في سيره إلى مقارّ القلب من ذكر الله عزّ وجل ومراقبته بقلبه ، وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه ، فالصوفي في مقار الروح صاحبُ مشاهدة

(١) آية رقم ٢٢ ، ٢٣ من سورة المطففين (٢) آية رقم ٢٧ من سورة المطففين
(٣) الترمذي والحاكم عن أبي هريرة والطبراني عن أبي الدرداء بسند صحيح

والمتصوفُ فى مقارّ القلب صاحبُ مراقبة .

والمتشبّهُ فى مقاومة النفس صاحبُ مجاهدة وصاحب محاسبة .

فتلوينُ الصوفىّ بوجود قلبه .

وتلوين المتصوّف بوجود نفسه .

والمتشبّه لا تلوين له ؛ لأن التلوين لأرباب الأحوال .

والمتشبّه مجتهد ، سالك ، لم يصل بعدُ إلى الأحوال .

والكلّ تجمعهم دائرة « الاصطفاء » .

قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات)[1] .

قال بعضهم : الظالمُ : الزاهدُ ، والمقتصدُ العارفُ ، والسابقُ : المحبُّ .

وقال بعضهم : الظالم : الذى يجزع من البلاء ، والمقتصد الذى يصبر عند البلاء ، والسابق الذى يتلذّذ بالبلاء .

وقال بعضهم : الظالم يعبد على الغفلة والعادة ، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة ، والسابق يعبد على الهيبة والمنّة .

وقال بعضهم : الظالم : يذكر الله بلسانه ، والمقتصد : بقلبه ، والسابق : لا ينسى ربه .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى ، رحمه الله ، : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحبُ الأحوال .

---

(١) آية رقم ٣٢ من سورة فاطر

وكلُّ هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفى والمتصوّف والمتشبه . وكلهم من أهل الفلاح والنجاح ، تجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصص بالمنح والعطاء .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة ، قال : أخبرنا أبو سعد محمد بن أبى العباس ، قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد ، قال : أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال : أخبرنى الحسين بن محمد بن فنجويه ، قال : حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة ، قال : حدثنا يوسف بن عاصم الرازى ، قال : حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود ، قال : حدثنا حُصين بن نُمير ، عن أبى ليلى ، عن أخيه ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال فى قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) : « كلهم فى الجنة »[1] .

قال ابن عطاء : الظالم : الذى يحبُّ اللهَ من أجل الدنيا ، والمقتصد : الذى يحب الله من أجل العقبى ، والسابق : هو الذى أسقط مرادَه بمراد الله فيه .

وهذا هو حال الصوفى ؛ فالمتشبه تعرّض لشىء من أمر القوم ، ويوجب له ذلك القربَ منهم ، والقربُ منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالى ، ونحن بـ « أصفهان » يريد منه الخرقة ، فقال له الشيخ : اذهب إلى فلان يشير إلىّ ، حتى يكلمك فى معنى الخرقة ، ثم احضُر حتى ألبسك الخرقة .

قال : فجاء إلىّ فذكرتُ له حقوقَ الخرقة ، وما يجب من رعاية حقها ، وآدابُ مَن يلبسها ، ومَن يُؤهَّل للبسها .

---

(١) الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

فاستعظم الرجلُ حقوقَ الخرقة ، وجَبُن أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولى له ، فاستحضرنى ، وعاتبنى على قولى له ذلك ، وقال : بعثتُه إليك حتى تكلّمه بما يزيد رغبته فى الخرقة ، فكلّمتَه بما فترت عزيمته ! ! ثم الذى ذكرتَه كلّه صحيح ، وهو الذى يجب من حقوق الخرقة ، ولكن إذا ألزمنا المبتدىء بذلك نَفَر وعجز عن القيام به ، فنحن نلبسه الخرقةَ حتى يتشبَّه بالقوم ويتزيّى بزيّهم فيقرّبه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يحبّ أن يسلك مسلكهم ، ويصل بذلك إلى شىء من أحوالهم .

ويوافق هذا القولَ من الشيخ أحمد الغزالى ما أخبرنا به شيخنا ، قال : أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفّار ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف ، قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السُّلمى ، قال : سمعت الحسين بن يحيى يقول : سمعت جعفراً يقول : سمعت أبا القاسم الجنيد يقول : « إذا لقيتَ الفقيرَ فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق ؛ فإن العلم يُوحِشه والرفقَ يؤنسه » .
وبرفق الصوفية بالمتشبّهين بهم ينتفع المبتدىء الطالبُ ، وكل من كان منهم أكمل حالاً وأوفر علماً كان أكثر رفقاً بالمبتدىء الطالب .

حُكى عن بعضهم أنه صحبه طالب ، فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ، ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدىء إليه والتأدّبَ بأدبه ، والاقتداء به فى عمله ، وهذا هو الرفق الذى ما دخل فى شىء إلا زانه .

فالمتشبّه الحقيق له إيمانٌ بطريق القوم ، وعملٌ بمقتضاه ، وسلوك واجتهاد ، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفاً صاحب مراقبة ، ثم يصير صوفيا صاحب مشاهدة .

فأمّا من لم يتطلّع إلى حال المتصوف والصوفى بالتشبه ، ولا يَقصد أوائلَ مقاصدهم ، بل هو مجرد تشبّهٍ ظاهرٍ من ظاهر اللبسة ، والمشاركة فى الزى والصورة دون السيرة والصفة ، فليس بمتشبه بالصوفية ؛ لأنه غيرُ مُحاكٍ لهم بالدخول فى بداياتهم ، فهو إذن متشبه بالمتشبِّه ، يَعْــتَزى إلى القوم بمجرد لِبْسَتِهِ ، ومع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

وقد ورد : « من تشبّه بقوم فهو منهم »(1) .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سلْمان ، قال : أخبرنا أبو الفضل حمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال : حدثنا على بن أحمد بن على ، قال : أخبرنا عبد الله بن جعفر ، قال : حدثنا عمر بن أحمد بن أبى عاصم ، قال : حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعى ، قال : حدثنا على بن أحمد ، قال : حدثنا على بن على المقدمى ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر ، قال : حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال : حدثنا فضيل بن عياض ، عن سليمان الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ لله ملائكةً فضلاً عن كُتّاب الناس يطوفون فى الطرق ويتتبّعون مجالس الذكر ، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجاتكم ، فتحفهم بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله — وهو أعلم — : مايقول عبادى ؟ قالوا : يحمدونك ويسبحونك ويمجّدونك . فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ قالوا : لو رأوك كانوا أشدّ لك تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً . فيقول : ما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة . فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا .

---

(1) رواه أحمد وأبو داود والطبرانى فى الكبير ، عن ابن عمر مرفوعاً وفى الأوسط عن حذيفة ، وإسناده حسن ، وقد صححه ابن حبان .

فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشدّ لها طلباً وعليها أكثر حرصاً .

قالوا : ويتعوّذون من النار . فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا . فيقول: كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشدّ منها تعوّذاً وأشد فراراً .

فيقول : أشهدكم أني غفرت لهم .

فيقول الملَكُ : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة .

فيقول تبارك وتعالى : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم »[1] .

فلا يشقى جليس الصوفية ، والمتشبِّهُ بهم ، والمحبُّ لهم .

(١) متفق عليه ، وقد رواه هنا من حفظه .

الباب الثامن

فى ذكر الملامتى وشرح حاله

وقال بعضهم : الملامتى هو الذى لايظهر خيراً ، ولايضمر شراً .

وشرح هذا ، هو : أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل المقدسى إجازة قال : أخبرنا أبو بكر على بن خلف الشيرازى إجازة قال: أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى. قال سمعت على بن سعيد ، وسألته عن : الإخلاص ماهو ؟ قال : سمعت على ابن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف ، وسألته عن : الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أحمد بن على الجهمى[1] عن الإخلاص ماهو ؟ قال: سألت عبدالواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو ؟ قال : « سألت جبريل عن الإخلاص ماهو ؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال: هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

فالملامتية لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ، يرون كتم الأحوال

(١) وفى نسخة : الهجيمى .

والأعمال ، ويتلذذون بكتمها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهور معصيته .

فالملامتى عظم وقع الإخلاص وموضعه ، وتمسك به معتداً به . والصوفى غاب فى إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو يعقوب السوسى : متى شهدوا فى إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال فى الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل فى الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبدالرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : « الإخلاص مالا يكون للنفس فيه حظ بحال » .

وهـذا إخلاص العوام . وإخلاص الخواص : ما يجرى عليهم لابهم [١] . فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص . وهذا الذى فصله الشيخ أبو عثمان المغربى يفرق بين الصوفى والملامتى ؛ لأن الملامتى أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولـكن أثبت نفسه فهو مخلِص والصوفى أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره فهو مخلَص . وشتان ما بين المخلَص الخالص ، والمخلِص .

قال أبو بكر الزقاق : نقصان كل مخلص فى إخلاصه رؤيةُ إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه . فيـكون مخلَصاً لا مخلِصاً .

قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين » .

(١) أى لايجرى الإخلاص بسببهم .

ومعنى قوله : أن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزه عن الرياء الذى يبطل العمل ، ولـكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد ، أو معاناة [١] خلق من أخلاق النفس فى إظهار الحال والعمل ، وللعارفين فى ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء .

وإنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رويم : الإخلاص : أن لايرضى صاحبه عليه عوضاً فى الدارين ، ولاحظاً من الملـكين .

وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق . والملامتى يرى الخلق فيخفى عمله وحاله . وكل ماذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفى ، ولهذا قال الزقاق : لابد لـكل مخلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص . والإخلاص هو الذى يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتى به على التمام .

قال جعفر الخلدى : سألت أبا القاسم الجنيد ، رحمه الله ، قلت : أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال : بينهما فرق ، لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول فى العمل ثم قال إنما هو إخلاص ، ومخالصة الإخلاص ، وخالصة كائنة فى المخالصة ، فعلى هذا الإخلاص حال الملامتى ، ومخالصة الإخلاص حال الصوفى .

والخالصة الـكائنة فى المخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص . وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه بل غيبته عن رؤية قيامه وهو الاستغراق فى العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار ، وهو فقد حال الصوفى .

(١) مقاساة ، والمعاناة من العنت أى الشدة والتعب .

والملامتى مقيم فى أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه . وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفى .

ولم يزل فى «خراسان» منهم طائفة. ولهم مشايخ يمهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم .

وقد رأينا فى العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم . وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الإسم .

حكى أن بعض الملامتية استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأنى إن حضرت يظهر على وجد ولا أوثر أن يعلم أحد حالى .

وقيل إن أحمد بن أبى الحوارى قال لأبى سليمان الدارانى : إنى إذا كنت فى الخلوة أجد لمعاملتى لذة لا أجدها بين الناس .

فقال له : إنك إذن لضعيف

فالملامتى ، وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص ، مستفرشاً بساط الصدق ، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق . والصوفى صفا[1] من هذه البقية فى طرفى العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاين سر قوله تعالى : (كل شىء هالك إلا وجهه)[2] كما قال بعضهم فى بعض غلباته « ليس فى الدارين غير الله » .

وقد يكون إخفاء الملامتى الحال على وجهين ، أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر ، وهو الأتم لستر الحال عن غيره بنوع غيرة ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ فى صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد

(١) صفى عن هذه البقية . (٢) آية رقم ٨٨ من سورة القصص .

على حبه لمحبوبه . وهذا وإن علا فى طريق الصوفى علة ونقص ؛ فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى .

وقيل « إن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام: ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر ، وذكر بالروح » .

فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة .

وإذا صح ذكر السر سكت القلب عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبة .

وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء .

وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر ، وذلك ذكر « العادة » .

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة ، فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر إطلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه[1] ، أو ظن أنه يصل إلى شىء من المقامات به وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك .

وسر هذا الأصل الذى بنوا عليه : أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات وذكر النفس متعرض للعلات ؛ فمعنى قولهم: « اطلاع السر على الروح» يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات وذكر الهيبة فى ذلك الوقت ذكر الصفات [مشعر بنصب الهيبة][2] وهو وجود الهيبة ، ووجود الهيبة يستدعى وجوداً

(١) وفى نسخة : ثوب به .

(٢) مابين القوسين ساقط فى بعض النسخ

وبقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات يشعر بنصيب القرب ، وذكر القلب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما ، لأنه اشتغال بذكر النعمة وذهول[1] عن المنعم .

والاشتغال برؤية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة ، واطلاع النفس نظراً إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل ، وذلك عين الاعتلال حقيقة .

وهذه أقسام هذه الطائفة وبعضها أعلى من بعض ، والله أعلم .

(١) غفلة .

الباب التاسع

فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قومٌ يسمون أنفسهم « قلندرية » تارة ، و « ملامتية » تارة أخرى . وقد ذكرنا حال الملامتى ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسنن والآثار ، وتحقق بالإخلاص والصدق ، وليس مما يزعم المفتونون بشىء !!

فأما « القلندرىُّ » فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سُكر طيبة قلوبهم حتى خرّبوا العادات ، وطرحوا التقييد بآداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ؛ فقلّت أعمالُهم من الصوم والصلاة إلاّ الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من لذات الدنيا من كلّ ما كان مباحاً برخصة الشرع ، وربّما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا حقائق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك ، وليس عندهم تطلّع إلى طلب مزيدٍ سوى ما هم عليه من طيبة القلوب .

والفرق بين الملامتى والقلندرى : أنّ الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرىُ يعمل فى تخريب العادات ، والملامتى يتمسك بكل أبواب البرّ والخير ، ويرى الفضل فيه ، ولكن يُخفى الأعمالَ والأحوال ويوقف نفسه مواقف العوامّ فى هيئته وملبوسه ، وحركاته ، وأموره ستراً للحال لئلا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد ، باذلٌ مجهودَه فى كل ما يتقرّب به العبيد .

والقلندرى لا يتقيد بهيئةٍ ولا يبالى بما يُعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا ينعطف إلاّ على طيبة القلوب وهو رأس ماله .

والصوفيُّ يضع الأشياء مواضعها ويدبّر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلقَ مقامَهم ويقيم أمرَ الحق مقامَه ، ويستر ما ينبغى أن يُستر ، ويُظهر ما ينبغى أن يَظهر ، ويأتى بالأمور فى مواضعها بحضور عقلٍ ، وصحة توحيدٍ ، وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص .

فقوم من المفتونين سمّوا أنفسهم « ملامتية » ولَبِسوا لِبْسة الصوفية ؛ لينتسبوا بها إلى الصوفية ، وما هم من الصوفية بشىء !! بل فى غرور وغلط ، يتستّرون بلبسة الصوفية توقيا تارة ودعوى تارة أخرى ، وينتهجون مناهج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمائرهم خَلَصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد .

والارتسامُ بمراسم الشريعة رتبةُ العوام والقاصرين الأفهام ، المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليداً . وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد ! فكل حقيقة ردّتها الشريعة فهى زندقة . وجَهِل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حقُّ العبودية ، والحقيقةُ هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيّد بحقوق العبودية وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يُطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لا أنه يخلع من عنقه ربقة(١) التكليف ، ويخامر باطنَه الزيغ والتحريف .

أخبرنا أبو زرعة ، عن أبيه الحافظ المقدسى ، قال : أخبرنا أبو محمد الخطيب قال : حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال ، حدثنا أبو بكر بن أبى داود قال : حدثنا أحمد بن صالح قال : حدثنا عنبسة قال : حدثنا يونس بن يزيد ، قال : قال محمد ، يعنى الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عتبة ابن مسعود ، حدّثه قال : سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن أناساً

(١) ربقة : حبل .

كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقرّبناه ، وليس إلينا من سريرته شىء ، الله تعالى يحاسبه فى سريرته .

ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتى حسنة(١) .

وعنه أيضاً رضى الله تعالى عنه ، قال : « من عرّض نفسه للتهم فلا يلومنّ مَن أساء به الظن » ، فإذا رأينا متهاوناً بحدود الشرع مهملاً للصلوات المفروضات لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ، ويدخل فى المداخل المكروهة المحرّمة نردُّه ، ولا نقبله ، ولا نقبل دعواه : أنّ له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة عن عمر بن أحمد عن أبى خلف ، عن السلمى ، قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل : أهلُ المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى .

فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال . وهذه عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرّة ، إلا أن يُحال بى دونها ، وإنها لآكد فى معرفتى وأقوى لحالى .

ومن جُملة أولئك قوم يقولون بالحلول ، ويزعمون أن الله تعالى يَحُلّ فى أجسام يصطفيها ، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى فى اللاهوت والناسوت .

(١) رواه البخارى .

ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم ، ويتخايل له أن من قال كلمات فى بعض غلباته كان مضمراً لشىء مما زعموه ، مثل قول الحلاج « أنا الحق » . وما يحكى عن أبى يزيد من قوله « سبحانى » .

حاشا أن نعتقد فى أبى يزيد أنه يقول ذلك إلاّ على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغى أن يعتقد فى قول الحلاّج ذلك .

ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مُضمِراً لشىء من الحلول رددناه كما نردّهم .

وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كلُّ معوّج ، وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصفُ الله تعالى به ، وما لا يجوز ، والله سبحانه وتعالى منزّه أن يحلّ به شىء أو يحلّ بشىء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية ، ويكون قد سمع كلمات تعلّقت بباطنه فيتألف له فى فكره كلماتٌ ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكالمة الله إيّاه ، مثل أن يقول : قال لى ، وقلت له . وهذا رجل إمّا جاهل بنفسه وحديثها ، جاهل بربّه ، وبكيفية المكالمة والمحادثة ، وإمّا عالمٌ ببطلان ما يقول ، يحمله هواه على الدعوى بذلك ، ليوهم أنه ظفر بشىء . وكل هذا ضلال .

ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين من مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطباتٌ موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاماً يسمعونه ، بل كحديث فى النفس يجدونه موافقاً للكتاب والسنة ، مفهوماً عند أهله ، موافقاً للعلم ، ويكون ذلك مناجاةً لسرائرهم ومناجاةُ سرائرهم إيّاهم يُثبتون لنفوسهم مقام العبودية ، ولمولاهم الربوبية ،

فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلامَ الله ، وإنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم .

فطريق الأصحاء فى ذلك الفرارُ إلى الله تعالى من كل ما تُحدِّث نفوسهم به حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى أُلهموا فى بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبةَ الحادث إلى المحدِث لا نسبة الكلام إلى المتكلم ، لينصانوا عن الزيغ والتحريف .

ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون فى بحار التوحيد ولا يثبتون ويسقطون لنفوسهم حركةً وفعلا ، يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء ، وأن لا فعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون فى المعاصى وكلّ ما تدعو النفوس إليه ، ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة والاغترار بالله ، والخروج من الملّة ، وترك الحدود والأحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سهل بن عبد الله التسترى عن رجل يقول: أنا كالباب ، لا أتحرّك إلاّ إذا حُركت . قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إمّا صِدّيق ، أو زنديق ؛ لأن الصديق يقول هذا القول إشارةً إلى أن قيام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية . والزنديق يقول ذلك إحالةً للأشياء على الله ، وإسقاطاً للأئمةِ عن نفسه وانخلاعاً عن الدين ورسمه .

وأمّا من كان معتقداً للحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، معترفاً بالمعصية إذا صدرت منه ، معتقداً وجوب التوبة منها فهو سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ، ويسترَوح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد فى البلاد ، متوصّلاً إلى تناول اللذائذ والشهوات ، غير متمسك بشيخ يؤدّبه ويهذّبه ويبصّره بعيبِ ما هو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر

فى شرح رتبة المشيخة

ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفس محمد بيده لئن شئتم لأُقسمنّ لكم أنّ أحبّ عباد الله تعالى إلى الله الذين يُحَبِّبُون الله إلى عباده ، ويحبّبون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة » .

وهذا الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبةُ المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ؛ لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقةً ، ويحبب عباد الله إلى الله ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ، ونيابةِ النبوة فى الدعاء إلى الله .

فأما وجه كون الشيخ يُحبّب عباد الله إلى الله ؛ فلأن الشيخَ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صحّ اقتداؤه واتباعه أحبّه الله تعالى ، قال الله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[1] ، ووجه كونه يُحبّب الله تعالى إلى عباده ؛ لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكّت النفس انجلت مرآةُ القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ، ولاح فيه جمالُ التوحيد ، وانجذبت أحداق البصيرةُ إلى مطالعة أنوار جلال القِدم ورؤية الكمال الأزلىّ ، فأحبّ العبدُ ربّه لا محالة ، وذلك ميراث التزكية ، قال الله تعالى : (قد أفلح من زكّاها)[2] ، وفلاحُها بالظفر بمعرفة الله تعالى .

(١) من آية ٣١ من سورة آل عمران .
(٢) من آية ٩ من سورة الشمس .

وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة ونفاستها بكنهها وغايتها ، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلين ، فيحب العبد الباقى ويزهد فى الفانى ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدى به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى ، قال :أخبرنا أبو الفضل عبدالواحد ابن على بهمدان . قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن على بن أحمد الطوسى . قال : حدثنا أبوالعباس محمد بن يعقوب ، قال : حدثنا بقية ، قال : حدثنا صفوان بن عمرو ، قال : حدثنى الأزهر بن عبدالله . قال : قدسمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل فقد حضر الأمر » فعلى المشايخ وقار الله وبهم يتأدب المريدون ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[1] .

فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة المتقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه : (إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت همته ولذته فى ذكرى فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ورفعت الحجاب بينى وبينه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيها فصرفته بهم عنهم) .

والسر فى وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة النفس

(١) آية رقم ٩٠ من سورة الأنعام .

مبتلى بصفاتها ، لايزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه، وبطمأنينتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التى استصحبتها من أصل خلقتها ، وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصل إليها – وهذا اللين هو الذى ذكره الله تعالى فى قوله : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[1] – تجيب إلى العبادة ، وتلين للطاعة عند ذلك .

وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذو وجهين : أحد وجهيه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح .

يستمد من الروح بوجهه الذى يليه ، ويمد النفس بوجهه الذى يليها حتى تطمئن النفس . فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكن من سياسة النفس ، وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله،ثم القلب يشرئب[2] إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس فتقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجنسية فى عين النفسية من وجه ، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد من وجه بالتأليف الآلهى . قال الله تعالى : (لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)[3] فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل،ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن الله تعالى : « ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى وانى إلى لقائهم لأشد شوقاً » وبما هيأ الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب يصير المريد جزء الشيخ ، كما أن الولد جزء الوالد فى الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة آنفاً ولادة معنوية ، كما ورد عن عيسى عليه الصلاة والسلام : (لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين) .

(١) آية رقم ٢٣ من سورة الزمر . (٢) اشرأب = مد عنقه لينظر..
(٣) ٦٣ من سورة الأنفال .

فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم الملك ، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت ، قال تعالى « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »[1] وصرف اليقين على الكمال يحصل فى هذه الولادة ، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ومن لم يصله ميراث الأنبياء ماولد وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء ، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابساً من نور الشرع لايدخل الملكوت ولا يزال متردداً فى الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية ، لأنه تصرف فى الملك ولم يرتق إلى الملكوت .

والملك : ظاهر الكون . والملكوت: باطن الكون . والعقل : لسان الروح والبصيرة التى منها تنبعث أشعة الهداية : قلب الروح . واللسان : ترجمان القلب ، وكل ماينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ماعند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ، فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول العرية عن نور الهداية – الذى هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء واتباعهم – الصواب ،وأسبل دونهم الحجاب ، لوقوفهم مع الترجمان ، وحرمانهم غاية التبيان .

وكما أن فى الولادة الطبيعية ذرات الأولاد فى صلب الأب مودعة تنتقل إلى أصلاب الأولاد بعدد كل ولد ذرة ، وهى الذرات التى خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بـ « ألست بربكم ؟ حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى ببطن « نَعمان » بين مكة والطائف ، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فن الآباء من تنفذ الذرات فى صلبه ، ومنهم من لم يودع فى صلبه شىء فينقطع نسله ، وهكذا المشايخ : فمنهم من تكثر أولاده ويأخذون منه العلوم والأحوال ويودعونها غيرهم، كما وصلت إليهم من النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ، ومنهم من يقل أولاده ، ومنهم

(١) آية رقم ٧٥ من سورة الأنعام .

من ينقطع نسله ، وهذا هو النسل الذى رد الله على الكفار حيث قالوا : محمد أبتر لا نسل له ! !

قال تعالى : (إن شانئك هو الأبتر)[١] وإلا فنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم باقٍ إلى أن تقوم الساعة ، وبالنسبة المعنوية يصل ميراثُ العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن المـالينى ، قال : أخبرنا أبو الحسن الداودى قال : أخبرنا أبو محمد الحموى ، قال : أخبرنا أبو عمران السمرقندى ، قال : أبو محمد الدارمى قال: أخبرنا نصر بن على قال : حدثنا عبد الله بن داود ، عن عاصم ، عن رجاء بن حيوة ، عن داود بن جميل ، عن كثير بن قيس ، قال : كنت جالساً مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء ، إنى أتيتك من المدينة ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم لحديث بلغنى عنك أنك تُحدِّثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فما جاء بك تجارة ؟ قال: لا . قال: ولا جاء بك غيرها؟ قال : لا . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظه — أو — بحظ وافر)[٢] .

(١) من الآية ٣ من سورة الكوثر .

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والبيهقى وهو بهذا السياق عند ابن ماجة والحديث مقبول وقيل حسن .

فأول ما أودعت الحكمةُ والعلم عند آدم أبى البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعو إليه النفس والشيطان ، كما ورد : أن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضةً من أجزاء الأرض ، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التى كوّنها من الجوهرة التى خلقها أولاً فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب ، حيث خاطب السموات والأرضين بقوله : (ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين[١]) لحمل أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية السماع ، ثم انتُزعت هذه الخاصية منها بأخذ أجزائها لتركيب صورة آدم فركب جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية من هذه الخاصية فمن حيث نسبةُ أجزاء الأرض تركّب فيه الهوى ، حتى مدّ يده إلى شجرة الفناء ، وهى شجرة الحنطة . فى أكثر الأقاويل — فتطرق بها لقالبه الفناء ، وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذى أخبر عنه بقوله: (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى[٢]) قال العلم والحكمة فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة ، وبنفخ الروح صار ذا روح رُوحانىّ ، وشرح هذا يطول . . فصار قلبه معدن الحكمة ، وقالَبُه معدن الهوى ، فانتقل منه العلم والهوى وصارا ميراثه فى ولده ، فصار من طريق الولادة أباً بواسطة الطبائع التى هى محتد[٣] الهوى . ومن طريق الولادة المعنوية أباً بواسطة العلم ، فالولادة الظاهرةُ تطرقٌ إليها الفناء ، والولادة المعنوية محمية من الفناء ؛ لأنها وُجدت من شجرة الخلد وهى شجرة العلم لا شجرة الحنطة التى سماها إبليس شجرةَ الخلد ، فإبليس يرى الشىء بضده ، فتبيّن أن الشيخ هو الأب معنى ، وكثيراً كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله يقول : « ولدى من سلك طريقى واهتدى بهدى » .

(١) آية رقم ١١ من سورة فصلت (٢) من الآية ٢٩ من سورة الحجر.
(٣) مولودة . (٤) المحتد = الأصل.

فالشيخ الذى تُكتسب بطريقه الأحوالُ قد يكون مأخوذاً فى ابتدائه فى طريق المحبِّين ،وقد يكون مأخوذاً فى طريق المحبوبين ، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام : سالك مجرّد ، ومجذوب مجرّد ، وسالك متدارَكٌ بالجذبة ، ومجذوب متدارَك بالسلوك .

فالسالك المجرّد لا يُؤهّل للمشيخة ولا يَبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظّه من رحمة الله تعالى فى مقام المعاملة والرياضة ، ولا يرتقى إلى حال يُرَوّح بها عند وَهَج المكابدة .

والمجذوب المجرّد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ، ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب ، ولا يؤخذ فى طريق المعاملة .

وللمعاملة أثر تام سوف نشرحه فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضا لا يُؤهّل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مُرَوَّحا بحاله غير مأخوذ فى طريق أعماله ما عدا الفريضة .

والسالك الذى تُدرك بالجذبة هو الذى كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى رَوح الحال ، فوجد العسل بعد العلقم[1] ، وتَروّح بنسمات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفُتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه ، وفاض وعاؤه ، وصدرت منه كلمات الحكمة ، ومالت إليه القلوب، وتوالى عليه فُتوح الغيب ، وصار ظاهره مسدداً وباطنه مشاهِداً، وصَلح للجلوة[2] وصار له فى جلوته خلوة ، فَيغلِب ولا يُغلب ، ويَفترس ولا يُفترس ، يُؤهّل مثلُ هذا للمشيخة ، لأنه أخذ فى طريق المحبّين .

(١) العلقم = شجر مر . يقال الحنظل ولكل شجر مر : علقم (٢) الظهور

ومُنح حالاً من أحوال المقرّبين ، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ويكون له أتباعٌ ينتقل منه إليهم علومٌ ، ويظهر بطريقه بركة . ولكن قد يكون محبوسا فى حاله ، مُحَكَّمًا حاله فيه لا يُطاق من وَثاق الحال ، ولا يبلغ كمال النوال . يقف عند حظّه ، وهو حظٌ وافرٌ سَنِىٌّ ؛ والذين أوتوا العلم درجاتٍ ، ولكنّ المقامَ الأكملَ فى المشيخة القسمُ الرابع ، وهو : المجذوب المتدارَك بالسلوك يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ؛ ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح صدره وينفسح قلبه ، وَيتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ، ويرتوى من بحر الحال ، ويتخلص من الأغلال والأعلال[1] ، ويقول معلنا :لا أعبد ربًّا لم أره ، ثم يَفيض من باطنه على ظاهره ، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بلذاذة وهناء ، ويصير قالبه بصفة قلبه ؛ لامتلاء قلبه بحبّ ربّه ، ويلين جلده كما لان قلبه ، وعلامة لين جلده إجابة قالبه العمل كإجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ، ويرزقه محبةً خاصة من محبة المحبوبين المرادين : ينقطع فَيواصَل ، ويُعرِض عنه فيراسَل ، يذهب عنه جمود النفس ويصطلى بحرارة الروح ، وتنكمش عن قلبه عروق النفس .

قال الله تعالى : (اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللهِ)[2]

أخبر أن الجلود تلين كما أنّ القلوب تلين ، ولا يكون هذا إلاّ حال المحبوب المراد .

(١) جمع علّ ، وهو المرض وكل ما يشغل البال .

(٢) آية رقم ٢٣ من سورة الزمر .

وقد ورد فى الخبر : أن إبليس سأل السبيل إلى القلب ، فقيل له : يَحْرُمُ عليك ، ولكن السبيل لك فى مجارى العروق المشتبكة بالنفس إلى حدّ القلب ، فإذا دخلتَ العروقَ عَرِقْتَ فيها من ضيق مجاريها ، وامتزج عَرَقُك بماء الرحمة الترشح من جانب القلب فى مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جعلتُه نبياً أو وليًا قامتْ تلك العروقَ من قلبه فيصير القلب سليما ، فإذا دخلتَ العروقَ لم تصــل إلى المشتبكة بالقلب ، فلا يصل إلى القلب سلطانُك » .

فالمحبوبُ المراد الذى أهّل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده ، فصار قلبه بطبع الروح ، ونفسُه بطبع القلب ، ولانت النفس بعد أن كانت أمّارة بالسوء مستعصية ، ولان الجلد بِلِينِ النفس ، وردَ إلى صورة الأعمال بعد وجدان الحال ، ولا تزال روحه تنجذب إلى الحضرة الإلهية ، فيستتبع الروحُ القلبَ ، ويستتبع القلبُ النفسَ ، ويستتبع النفسُ القالبَ ؛ فامتزجت الأعمالُ القالبية والقلبية ، وانخرق الظاهرَ إلى الباطن ، والباطنُ إلى الظاهر ، والقدرةُ إلى الحكمة ، والحكمةُ إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة ، والآخرةُ إلى الدنيا ، ويصح له أن يقول : « لو كُشِف الغطاء ما ازددت يقيناً » فعند ذلك يُطْلَق من وَثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال ، لا الحال مسيطراً عليه ، ويصير حرًّا من كلّ وجه .

والشيخ الأول الذى أخذ فى طريق المحبين حرٌّ من رِقّ النفس ، ولكن ربما كان باقياً فى رقّ القلب .

وهذا الشيخ فى طريق المحبوبين حرٌّ من رِقّ القلب ، كما هو حرٌّ من رِقّ النفس .

وذلك أن : النفس حجاب ظُلمانىّ أرضىّ أعتق منه الأول ، والقلبُ حجاب نورانى سماوى أعتق منه الآخر ، فصار لربّه ، لا لقلبه ، ولمُوَقّتِه لا لوقته ، فعَبَدَ الله حقاً وآمن به صدقاً ، ويسجد لله سوادُه وخيالُه ، ويؤمن به فؤاده ، وَيُقِرُّ به لسانُه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرةٌ ، وتصير عبادته مشاركة لعبادة الملائكة : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال)[1] .

فالقوالب هى : الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح المقرّبة فى عالم الشهادة : الأصل كثيف ، والظل لطيف .

وفى عالم الغيب : الأصــل لطيف ، والظل كثيف ، فيسجد لطيفُ العبد وكثيفُه .

وليس هذا لمن أخذ فى طريق المحبين ؛ لأنه يستتبع صور الأعمال ، ويمتلىء بما أنيل من وجدان الحال .

وذلك قصور فى العلم ، وقلّة فى الحظ ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى فى عالم الشهادة عن القوالب .

فما دامت القوالب باقية فالعمل باق .

ومن صحّ فى المقام الذى وصفناه هو الشيخ المطلق ، والعارف المحقق ، والمحبوب المحقَّق ، نظره دواء ، وكلامه شفاء ، بالله ينطق ، وبالله يسكت ،

---

(١) آية رقم ١٥ من سورة الرعد .

كما ورد : « ولا يزال العبد يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيّداً ، بى ينطق ، وبى يبصر . . . »[١] الحديث

فالشيخ يُعطِى بالله ، ويمنع بالله ، فلا رغبةَ له فى عطاء ومنعٍ بعينه لعينه ، بل هو مع مراد الحق ، والحقُّ يُعرّفهُ مرادَه ؛ فيكون فى الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه .

فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخولَ فى صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى ، لا لكون الصورة محمودةً ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

(١) أخرجه البخارى فى باب التواضع من حديث طويل ، وفيه : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، وإن استعاذنى لأعيذنه » .

الباب الحادى عشر

فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، وقال : يا داود ، إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً ، الخادمُ يَدخل فى الخدمة راغباً فى الثواب وفيما أعدّ الله تعالى للعباد ، ويتصدّى لإيصال الراحة ويُفرِّغُ خاطرَ المقبلين على الله تعالى عن مهامّ معاشهم ، ويفعل ما يفعله لله تعالى بنيّةٍ صالحة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيّته ، فالخادم يفعل الشىء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشىء بالله ؛ فالشيخ فى مقام المقرّبين ، والخادم فى مقام الأبرار . فيختار الخادمُ البذلَ والإيثار . والارتفاق من الأغيار اللأغيار[١] ، ووظيفةُ وقته تَصَدِّيه[٢] لخدمة عباد الله ، وفيه يَعرف الفضل ويُرجّحُهُ على نوافله وأعماله ، وقد يقيم من لا يعرف الخادمَ من الشيخ الخادمَ مُقامَ الشيخ ، وربما جهِل الخادمُ أيضا حالَ نفسه ؛ فيحسبُ نفسه شيخاً لقلّة العلم واندراسِ علومِ القوم فى هذا الزمان ، وقناعةِ كثيرٍ من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال ، فكلٌّ من كان أكثر إطعاماً هو عندهم أحقُّ بالمشيخة ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادمُ فى مقام حَسن وحَظٍّ صالح من الله تعالى .

وقد ورد ما يدلُّ على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ ، عن أبيه . قال : أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله المقرى ، قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى ، قال : حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال : حدثنا العباس بن محمد الدُّورى وأبو الأزهر قالا :

(١) وفى نسخة : للأخيار

(٢) من التصدى وهو التعرض

حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أتِى بطعام وهو بـ « مرّ الظهران » فقال لأبى بكر وعمر : كُلا ، فقالا : إنّا صائمان . فقال : ارحلا لصاحبيكما اعملا لصاحبيكما ، أدنوا فكُلا ، يعنى : أنكما ضعّفتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدُمكما ، فكُلا واخدُما أنفسكما . فالخادمُ يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصَّل بالكسب تارة ، وبالاسترفاق والدَّروزة[١] تارة أخرى ، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة ؛ لعلمه أنّه قَيّمٌ بذلك ، صالحٌ لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، ولا يبالى أن يدخُل فى كلّ مدخلٍ لا يذمُّه الشرعُ لحيازة الفضل بالخدمة . ويرى الشيخُ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام ، ومعاناة[٢] تخليص النيّة عن شوائب النفس والشهوة الخفية ، ولو خلَصَت نيّتُه ما رغب فى ذلك ، لوجود مراده فيه ، وحالُه تركُ المراد وإقامةُ مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة، إجازة ، قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة ، قال : أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلمى ، قال : سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السرىّ يقول : « أعرِفُ طريقاً مختصراً قصداً[٣] إلى الجنة ، فقلت له : ما هو ؟ قال لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكن معك شىء تُعطى منه أحدٌ شيئاً » .

والخادمُ يرى أنّ من طريق الجنة : الخدمةَ ، والبذلَ ، والإيثارَ ، فيقدّم الخدمة على النوافل ويرى فضلها . وللخدمة فضلٌ على النافلة التى يأتى بها العبدُ طالباً بها الثواب غيرَ النافلة التى يتوخّى[٤] بها صحّة حاله مع الله تعالى لوجود نقْدٍ قبل وَعْد .

(١) درز الثوب درزاً = خاطه. وفى ب (والديرزه)
(٢) المعاناة = المقاساة والتعب (٣) قصداً = وسطا (٤) يتحرى ويقصد

ومما يدلّ على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا به أبو زرعة قال : أخبرنى والدى الحافظ المقدسى ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان قال : أخبرنا ابراهيم بن عبد الله بن خُرشيد ، قال : حدثنا الحسين بن اسماعيل المحاملى قال : حدثنا أبو السائب قال : حدثنا أبو معاوية قال : حدثنا عاصم ، عن مورق ، عن أنس ، قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنّا الصائم ، ومنّا المفطر ، فنزلنا منزلاً فى يوم حارّ شديد الحرّ ، فمنا من يتّقى الشمس بيده ، وأكثرُنا ظلاً صاحبُ الكساء يستظلُّ به ، فنام الصائمون ، وقام المفطرون فضربوا الأبنيةَ وسقوا الركاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة . والخادمُ له مقام عزيز يُرغَب فيه ؛ فأمّا من لم يَعرف تخليص النيّة من شوائب النفس ، ويتشبّه بالخدام ويتصدّى لخدمة الفقراء ويدخل فى مداخل الخدام بحسن الإرادة يطلب التأسّى بالخدّام فتكون خدمتُه مشوبةً ؛ منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه ، وحسنِ إرادته فى خدمة القوم ، ومنها مالا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشىءَ فى غير موضعه .

وقد يخدمُ بهواه فى بعض تصاريفه ، ويَخدُم مَن لا يستحق الخدمة فى بعض أوقاته ، ويُحبُّ المحمدةَ والثناء من الخلق مع ما يحبُّ من الثواب ورضا الله تعالى .

وربما خدم للثناء ، وربما امتنع من الخدمة لوجود هوىً يخامره فى حقّ من يلقاه بمكروه ، ولا يراعى واجبَ الخدمة فى طرفى الرضا والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، والخادم لا يتّبع الهوى فى الخدمة فى الرضا والغضب، ولا يأخذه فى الله لومةُ لائم، ويضع الشىء فى موضعه ؛ فإذن الشخص الذى وصفناه آنفاً متخادم وليس بخادم !!

ولا يُميزُ بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات وتخليصها من شوائب الهوى .

والمتخادمُ النجيبُ يبلغ ثواب الخادم فى كثير من تصاريفه ولا يبلغُ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مَزْجِ هواه وأمّا من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقْفٍ إليه أو توفير رفق عليه ، وهو يخدم لمنالٍ يُصيبه ، أو حظٍ عاجل يدركه فهو فى الخدمة لنفسه لا لغيره ، فلو انقطع رِفقه ما خَدَم ، وربما استخدم من يَخدم ، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه فى المحافل يتكثّر به ، ويُقيم به جاه نفسه بكثرة الأتباع والأشياع ، فهو خادم هواه وطالب دنياه ، يحرص نهارَه وليله فى تحصيل ما يقيم به جاهَهُ ويُرضى نفسه وأهله وولده ، فينغمس فى الدنيا ويتزيّا بغير زِيّ الخدام والفقراء ، وتنتشر نفسُه بطلب الحظوظ ، ويستولى عليه حبُّ الرياسة ، وكلما كثُر رفقه كثرت مواد هواه واستطال على الفقراء ، ويُحوجُ الفقراء إلى التملق المفرط له تطلباً لرضاه ، وتوقيا لضيمه وميلهِ عليهم بقطع ما ينوبُهم من الوقف فهذا أحسنُ حاله أن يُسمى « مُستخدماً » فليس بخادم ولا مُتخادم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتَهم على خدمة غيرهم ، وبانتمائه إليهم ، وقد أوردنا الخبر المسند الذى فى سياقه (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)[1] .
والله الموفق والمعين .

(١) صحيح مسلم فى فضل حلق الذكر

الباب الثانى عشر
فى ذكر خرقة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد ، وتحكيم[1] من المريد للشيخ فى نفسه ، والتحكيم سائغ فى الشرع لمصالح دنيوية ، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق فى طلبه يقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة ، يحكمه فى نفسه لمصالح دينه يرشده ، ويهديه ، ويعرفه طريق المواجيد ، ويبصره بآفات النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه فى جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة إظهاراً للتصرف فيه ؛ فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ودخوله فى حكم الشيخ دخوله فى حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرنى والدى الحافظ المقدسى قال: أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزاز، قال : أخبرنا أحمد ابن محمد بن أخى ميمى قال : حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا عمرو بن على ابن حنظلة قال : سمعت عبد الوهاب الثقفى يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثنى عبادة بن الوليد بن عبادة الصامت ، قال : أخبرنى أبى عن أبيه ، قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق حيث كنا ولا نخاف فى الله لومة لائم »[2].

فى الخرقة معنى المبايعة ، والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة ، والمقصود الكلى هو الصحبة . وبالصحبة يرجى للمريد كل خير .

(١) تحكيم المريد للشيخ يعنى جعله حكما لنفسه .
(٢) صحيح مسلم جـ ١٢ ص ١٢٨ بشرح النووى .

وروى عن أبى يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيرى ، عن شيخه أبى على الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر ، وهو كما قال : ويجوز أنها تثمر كالأشجار التى فى الأدوية والجبال ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه وقد اعتبر الشرع وجود التعليم فى الكلب المعلم وأحل مايقتله ، بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيراً من المشايخ يقولون : « من لم ير مفلحاً لا يفلح » : ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى عن بعض الصحابة : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء حتى الخزاءة[1] .

فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ ، وصحبه ، وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج وكلام الشيخ يلقن[2] باطن المريد ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال . وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال . ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ وانسلخ من إرادة نفسه ، وفنى فى الشيخ بترك اختيار نفسه .

فبالتأليف الإلهى يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج ، وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية ، ثم لايزال المريد مع الشيخ كذلك متأدبا بترك

(١) عن سلمان أنه قيل له : قد علمكم نبيكم كل شىء حتى الخزاءة قال أجل الخ مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ١٥٢ .
(٢) وفى نسخة : يلقح .

الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ .

ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ ، والخرقة مقدمة ذلك .

ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبى الفضل المقدسى ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الأديب النيسابورى قال : أخبرنا الحاكم أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ قال : أخبرنا محمد بن إسحق قال : أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبدالله المصرى ، قال : حدثنا أبوالوليد قال : حدثنا إسحق بن سعيد قال : حدثنا أبى قال : حدثتنى أم خالد بنت خالدة قالت: أتى النبى صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة[1] سوداء صغيرة، فقال : من ترون أكسو هذه ؟ فسكت القوم ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بأم خالد . قالت : فأتى بى ، فألبسنيها بيده فقال : أبلى وأخلقى ، يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم فى الخميصة أحمر وأصفر ، ويقول : يا أم خالد هذا سناه ـ والسناه ، هو الحسن بلسان الحبشة ـ[2] .

ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التى تعتمدها الشيوخ فى هذا الزمان لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهيئة والاجتماع لها ، والاعتداد بها من استحسان الشيوخ ، وأصله من الحديث ما رويناه .

والشاهد لذلك أيضاً التحكيم الذى ذكرناه وأى اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أتم وآكد من الاقتداء به فى دعاء الخلق إلى الحق . .

وقد ذكر الله تعالى فى كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الخميصة ــ كساء أسود مربع له علمان ، فإن لم يكن معلما فليس بخميصة .
(٢) الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبى .

وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم ، قال الله تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)[١] .

وسبب نزول هذه الآية : أن الزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه ، اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة[٢] .

والشراج : مسيل الماء ـ كانا يسقيان به النخل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للزبير : أسق يازبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الرجل وقال : قضى رسول الله لابن عمته[٣] . فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرط عليهم فى الآية التسليم ، وهو الانقياد ظاهراً ، ونفى الحرج ، وهو : الانقياد باطناً . وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم .

فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه فى جميع تصاريفه ، ويحذر الاعتراض على الشيوخ فإنه السم القاتل للمريدين .

وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفلح ، ويذكر المريد فى كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام ، كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى ، ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب فى ذلك .

فهكذا ينبغى للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ عند

---

(١) آية رقم ٦٥ من سورة النساء .

(٢) الحرة : أرض ذات حجارة كأنها أحرقت بالنار .

(٣) رواه مسلم وفيه : فغضب الأنصارى فقال : يا رسول الله إن كان ابن عمتك ، فتلون وجه النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال يازبير اسقه ثم احبس للماء حتى يرجع الى الجدر . فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك .. وذكر الآية السابقة

الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة ؛ ويد الشيخ فى لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله . قال الله تعالى : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه)[١] .

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة . ويعرفه حقوق الخرقة ، فالشيخ للمريد صورة يستشف[٢] المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضى النبوية .

ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه ، منه يدخل ، وإليه يرجع وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ماينزل المريد به ، ويرجع فى ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه .

وللشيخ باب مفتوح من المكالمة ، والمحادثة فى النوم واليقظة فلايتصرف الشيخ فى المريد بهواه ، فهو أمانة الله عنده ، ويستغيث إلى الله لحوائج المريد كما يستغيث لحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه . قال الله تعالى : (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا)[٣] .

بإرسال الرسول يختص بالأنبياء ، والوحى كذلك . والكلام من وراء حجاب بالإلهام ، والهواتف ، والمنام ، وغير ذلك للشيوخ والراسخين فى العلم .

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع ، وأوان فطام . وقد سبق شرح الولادة المعنوية .

---

(١) آية ١٠ من سورة الفتح

(٢) يستشف : ينظر .

(٣) آية رقم ٥١ من سورة الشورى .

فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة ، والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه ، قال الله تعالى تأديباً للأمة : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم »[1] .

وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ؛ فلا يأذن الشيخ للمريد فى المفارقة إلا بعد علمه بأنه[2] آن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن ينفتح له باب الفهم من الله تعالى .

فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله ، والفهم عن الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته ، سبحانه وتعالى ، لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الأعلال فى الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه فى الولادة الطبيعية ، وهذا الالتزام بصحبة المشايخ للمريد الحقيق ، والمريد الحقيق يلبس خرقة الإرادة .

واعلم أن الخرقة خرقتان : خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك .

والأصل الذى قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة . وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة ؛ لخرقة الإرادة للمريد الحقيق وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم .

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم نفسه ، وصار كالولد الصغير مع الوالد يرقيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار

(١) آية رقم ٦٢ من سورة النور

(٢) فى ا ، ب بأن له أوان الفطام .

وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن ، فقد يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله فى تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن فى نفسه ليرى بعين الزهادة ، فأشد ما عليه لبس الناعم وللنفس هوى واختيار فى هيئة مخصوصة من الملبوس فى قصر الكم والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها ، فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها .

وقد يكون على المريد ملبوس ناعم ، أو هيئة فى الملبوس تشربت النفس تلك الهيئة بالعادة ، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها .

فتصرف الشيخ فى الملبوس كتصرفه فى المطعوم ، وكتصرفه فى صوم المريد وإفطاره ، وكتصرفه فى أمر دينه ، إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر ، ودوام التنفل فى الصلاة ، ودوام التلاوة ، ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات . فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومعاده بما يصلح له ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة .

قال الله تعالى: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[1] فالحكمة رتبة فى الدعوة ، والموعظة كذلك والمجادلة كذلك ؛ فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة ومن يدعى بالموعظة لا يصلح دعوته بالحكمة.. فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ومن هو على وضع المقربين، ومن يصلح لدوام الذكر ، ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى فى التخشن أو فى التنعم فيخلع المريد من عادته ، ويخرجه من مضيق هوى نفسه ، ويطعمه باختياره ،

(١) آية رقم ١٢٥ من سورة النحل .

ويُلبسه باختياره ثوباً يصلح له وهيئةً تصلح له ، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخى بذلك تقرّبه إلى رضا مولاه .

فالمريدُ الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة فى بدء أمره وحِدَّةِ إرادته كالملسوع الحريص على يَرْقيه ويُداويه ، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدقُ العناية به لاطّلاعه عليه ، وينبعث من باطن المريد صدقُ المحبة بتألف القلوب وتَشامّ الأرواح ، وظهور سرّ السابقة فيهما باجتماعهما لله وفى الله وبالله ، فيكون القميص الذى يُلبِسُ المريدَ خرقةً تُبشِّر المريدَ بحسن عناية الشيخ به ، فيعمل عند المريد عَمل قميصُ يوسف عند يعقوب عليهما السلام .

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلقى فى النار جُرِّد من ثيابه وقُذِف فى النار عُرياناً ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنّة وألبسه إيّاه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ، فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميصَ فى تعويذ ، وجعله فى عُنق يوسف ، فكان لا يفارقه ، ولما أُلقى فى البئر عرياناً جاءه جبريل وكان عليه التعويذ ، فأخرج القميصَ منه وألبسه إيّاه .

أخبرنا الشيخ العالم رضيُّ الدين أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازةً قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس ، قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد قال : أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد ، قال : أخبرنى ابن فنجوية الحسين بن محمد ، قال : حدثنا مخلد بن جعفر قال : حدثنا الحسين بن علوية قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشر ، عن ابن السُّدى ، عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف عليه السلام أعلَم بالله تعالى من أن لا يعلمَ أن قميصه لا يَرُدُّ على يعقوب بصره ، ولكن ذلك كان قميصَ إبراهيم ، وذكر ما ذكرناه ، قال : فأمره جبرائيل أن أرسِل بقميصك ، فإنّ فيه ريحَ الجنّة لا يقع على مُبتلىً

أو سقيم إلاّ صَحّ وعُوفى ؛ فتكون الخرقةُ عند المريد الصادق متحملةً إليه عَرفَ الجنة ، لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لُبس الخرقة من عناية الله به وفضلٍ من الله عليه .

فأما خرقة التبرك فيطلبها مَن مقصودُه التبرك بزىّ القوم ، ومثلُ هذا لا يُطالَب بشرائط الصحبة بل يُوصَى بلزوم حدود الشرع ، ومخالطة هذه الطائفة لتعودَ عليه بركتُهم ويتأدَّبَ بآدابهم ، فسوف يُرقّيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة . فعلى هذا خرقةُ التبرك مبذولةٌ لكلّ طالب ، وخرقةُ الإرادة ممنوعةٌ إلاّ من الصادق الراغب .

ولُبسُ الأزرق من استحسان الشيوخ فى الخرقةِ ، فإن رأى الشيخ أن يُلبس مريداً غير الأزرق فليس لأحدٍ أن يعترض عليه ، لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت .

وكان شيخنا يقول : كان الفقير يلبس قصيرَ الأكمام ، ليكون أعون على الخدمة .

ويجوز للشيخ أن يُلبِس المريدَ خِرقاً فى دفعات على قدر ما يتلمّح من المصلحة للمريد فى ذلك على ما أسلفناه من مداواة هواه فى الملبوس والملوّن ، فيختار الأزرقَ لأنه أرفق(١) للفقير ، لكونه يحمل الوسخ ، ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب . وما عدا هذا من الوجوه التى يذكرها بعضُ المتصوفة فى ذلك كلام إقناعى(٢) من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشىء .

(١) فى ا و ب والملون مختار لأنه أرفق . أرفق انفع .
(٢) إقناعى : أى ظنى .

سمعت الشيخَ سديد الدين أبا الفخر الهمدانى ، رحمه الله قال : كنت ببغداد عند « أبى بكر الشروطى » فخرج إلينا فقيرٌ من زاويته عليه ثوبٌ وَسَخ ، فقال له بعض الفقراء : لِمَ لا تغسل ثوبك ؟ ! فقال : يا أخى ما أتفرّغ !! فقال الشيخ أبو الفخر : لا أزال أتذكر حلاوة قول الفقير : ما أتفرّغ ، لأنه كان صادقاً فى ذلك ، فأجد لذّة لقوله وبركةً بتذكارى ذلك ، فاختاروا الملوّنَ لهذا المعنى ، لأنهم من رعاية وقتهم فى شُغُل شاغل . وإلاّ فأىُّ ثوب ألبس الشيخُ المريدَ من أبيض وغير ذلك فللشيخ ولايةُ ذلك بحسن مقصده ، ووفور علمه ، وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ، ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة ، ويؤخذ منه العلومُ والآدابُ .

وقد كان طبقةٌ من السلف الصالحين لا يعرفون الخِرقة ولا يُلبسونها المريدين ، فمن يُلبسها فله مقصدٌ صحيح ، وأصلٌ من السنّة ، وشاهدٌ من الشرع ، ومن لا يُلبسها فله رأيه ، وله فى ذلك مقصد صحيح . وكلُّ تصاريف المشايخ محمولةٌ على السداد والصواب ، ولا تخلو عن نيّة صالحة فيه . والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر

فى فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »[1] قيل : إن هذه البيوت هى المساجد . وقيل : بيوت المدينة . وقيل : بيوت النبى عليه الصلاة والسلام . وقيل: لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضى الله عنه وقال : يارسول الله ، هذه البيوت منها بيت على وفاطمة ؟ قال : نعم أفضلها .

وقال الحسن : هى بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين ، لا بصور البقاع، وأى بقعة حوت رجالا بهذا الوصف هى البيوت التى أذن الله أن ترفع .

روى أنس بن مالك ، رضى الله عنه . قال : مامن صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضاً : هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك فمن قائلة : نعم ، ومن قائلة : لا ، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلا ، وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أو صلى لله عليها إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت ، وقيل فى قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته ؛ لأن الأرض تبكى عليهم ، ولا تبكى على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى . فسكان الرباط هم

---

(١) آية رقم ٣٦ من سورة : النور (٢) آية رقم ٢٩ من سورة الدخان .

الرجال ؛ لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله عز وجل ، وانقطعوا إلى الله فأقام الله لهم الدنيا خادمة .

وروى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من انقطع إلى الله كفاه مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها »[1] .

وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ؛ فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة . قال : أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليل قال : أخبرنا القاضى محمد بن سعيد الفرخذاذى قال : أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال : أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خرجه قال : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنا أبو حميد الحمصى قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطان قال : حدثنا حفص بن سليمان ، عن محمد بن سوقة ، عن دبره بن عبدالرحمن ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء »[2] .

---

(١) رواه أبو الشيخ بن حيان والبيهقى من رواية الحسن عن عمران واختلف فى سماعه منه وأوله : من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الخ . . . ووردت أحاديث مقبولة فى ذلك منها ما رواه الحاكم عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ قلبك غنى واملأ يدك رزقا ، يا ابن آدم لا تباعد منى أملأ قلبك فقراً واملأ يدك شغلا .. قال الحاكم صحيح الاسناد .

(٢) رواه الطبرانى عن ابن عمر بسند ضعيف وفيه : « عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو لا عباد لله ركع ، وصبية رضع ، وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض رضا »[1] .

وروى جابر بن عبدالله قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم » .

وروى داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة بن عبدالرحمن : يا ابن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية : « اصبروا وصابروا ورابطوا »[2] قلت : لا . قال : يا ابن أخى ، لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط لجهاد النفس . والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . قال الله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده »[3] . قال عبدالله بن المبارك ، هو : مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد . وهو الجهاد الأكبر ، على ما روى فى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »[4] .

وقيل : إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : يا أخى كل الثغور مجتمعة لى فى بيت واحد والباب على مردود . فكتب إليه أخوه

---

(١) رواه الطبرانى والبيهقى عن مسافع الديلى بسند حسن وفى آخره (ثم رص رصا) .

(٢) آيه ٢٠٠ آل عمران
رواه ابن مردويه والحاكم عن أبى سلمة من كلام أبى هريرة له وروى عن أبى سلمة كلامه كما هنا قال ابن كثير والله أعلم .

(٣) آية ٧٨ من سورة الحج .

(٤) البيهقى فى الزهد من حديث جابر وقال : هذا اسناد فيه ضعف ورواه الخطيب فى تاريخه عن جابر بلفظ : (قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الاكبر مجاهدة العبد هواه) . . . قال السيوطى فى جامعه ضعيف .

لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمه اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار ؛ فلابد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : يا أخي ، لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجاداتهم : « الله أكبر » لانهدم سور قسطنطينية[1] .

---

(١) إنهما ـ هما الاثنان ـ من الصالحين ، يستويان في الصلاح أحدهما يدعو إلى الجهاد والثاني يتمسك ذاكرا متعبداً . ولقد سبق أن تحدثنا في المقدمة عن الجهاد في عرف الصوفية وكتبنا عن مواقف الكثير منهم مجاهدين في سبيل الله يرون أنهم في جهادهم كأنهم في أفراح ويشعر الواحد منهم بالسرور الذي يشعر به العريس في ليلة عرسه .

لقد باعوا أنفسهم لله مجاهدين في سبيله .

ولكن قد يستولى على أحدهم « الحال » فيغمره الشعور الفياض الشامل بسلطان الألوهية النافذ الفعال الشامل العام ، ويغفل في فترة استيلاء هذا الحال عن القوانين التي رسمها الله سبحانه للنصر والجهاد فيقول ـ وهو تحت سيطرة الحال ـ لو قال الناس: « الله أكبر » وهم على سجاداتهم وفي زواياهم لانهدم سور قسطنطينيه ، ثم يفيء إلى نفسه فيرى أنه وإن كانت قدرة الله سبحانه لا يقف أمامها سور قسطنطينية ولا غيره إلا أن الله رسم منهجا إيمانيا هو منهج الجهاد الدائم ، وأن الناس لو لزموا ما التزمه : « اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار فلابد من الغزو والجهاد » . وهذا مبدأ كل الصوفية ، ومن أجل ذلك جاهدوا ورابطوا في الثغور وعلى الحدود وذلك أنهم يتابعون القرآن والسنة في الدعوة إلى الجهاد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب . . ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة : وجبت له الجنة » . « رواه الترمذي وقال حديث حسن ـ والفواق ما بين الحلبتين » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان بالله والجهاد في سبيله » رواه البخاري ومسلم .

=

وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات . فاجتماع أهل الربط إذا صح على الوجه الموضوع له الربط ، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقي ما يفسد الأعمال ، واعتماد ما يصحح الأحوال عادت البركة على العباد والبلاد .

وقال سري السقطي في قوله تعالى : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » : اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، ورابطوا أهواء النفس اللوامة ، واتقوا ما يعقب لكم الندامة ، لعلكم تفلحون[1] غداً على بساط الكرامة .

وقيل : اصبروا على بلائي ، وصابروا على نعمائي ، ورابطوا في دار أعدائي ، واتقوا محبة من سوائي ، لعلكم تفلحون غداً بلقائي .

وهذه شرائط ساكن الرباط :

قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات ، واجتناب التبعات[2] ، وعانق ليله ونهاره العبادة متعوضاً بها عن كل عادة . شغله : حفظ الأوقات

= وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يغز ولم تحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله أي الناس أفضل ؟ قال « مؤمن يجاهد بنفسه وماله » رواه البخاري .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في الجهاد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها » .

(١) آية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٢) التبعات = الشهوات .

وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ؛ ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى قال: أخبرنا ابن نبهان محمد الكاتب قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دعلج قال : أخبرنا البغوى ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال : حدثنا صفوان ، عن الحارث ، عن سعيد بن المسيب ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إسباغ الوضوء فى المكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة : يغسل الخطايا غسلا) وفى رواية : (ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يارسول الله. قال : (إسباغ الوضوء فى المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط)[1] .

---

(١) مسلم والنسائى

الباب الرابع عشر

فى مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين[1]) .

هذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء ؟ قالوا : كنا نُتْبِع الماء الحجر[2] .

وهذا ، وأشباه هذا من الآداب وظيفةُ صوفية الرُّبط ، يلازمونه ، ويتعاهدونه والرباط بيتُهم ومنزلهم ، ولكلّ قوم دارٌ والرباط دارُهم .

وقد شابهوا أهل الصفّة فى ذلك ، على ما أخبرنا به أبو زرعة ، عن أبيه الحافظ المقدسى قال : أخبرنا عيسى بن على الوزير ، قال حدثنا عبد الله البغوى قال: حدثنا وهبان بن بقيّة ، قال حدثنا خالد بن عبد الله ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى الحارث حرب بن أبى الأسود ، عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عَريف[3] ينزل على عَريفه ، فإن لم يكن له بها عريفٌ نزل الصفّه ، وكنتُ فيمن نزل الصفة فالقوم فى الرباط مرابطون ، متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة .

---

(١) آية رقم ١٠٨ من سورة التوبة .

(٢) أبو داود والترمذى وابن ماجه وسنده ضعيف .

(٣) العريف والعارف بمعنى ، كالعليم والعالم . والعريف أيضاً النقيب ، وهو دون الرئيس .

وضع الرُبط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى : (ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين).[1]

والمقابلة باستواء السرّ والعلانية. ومن أضمر لأخيه غِلاً فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه ، فأهل الصفة هكذا كانوا ، لأن مثار الغلّ والحقد وجودُ الدنيا . وحبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة ؛ فأهل الصفة رفضوا الدنيا ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضَرع ، فزالت الأحقادُ والغلّ عن بواطنهم . وهكذا أهل الربط متقابلون بظواهرهم وبواطنهم ، مجتمعون على الألفة والمودة يجتمعون للكلام . . ويجتمعون للطعام . ويَتعرَّفون بَركة الاجتماع .

روى وحشى بن حرب ، عن أبيه عن جدّه ، أنهم قالوا : يارسول الله ، إنّا نأكل ولا نشبع !! قال : (لعلكم تفترقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه)[2] .

وروى أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان[3] ، ولا فى سُكُرُّجة[4] ، ولا خُبز له مُرقّق ، فقيل : فعلى أىّ شىء كانوا يأكلون ؟ قال : على السُّفَر[5] .

فالعُبّاد ، والزهّاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون

(١) آية رقم ٤٧ من سورة الحجر .

(٢) رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم بسند صحيح عن وحشى ابن حرب . (٣) مايؤكل عليه .

(٤) إناء صغير ، السكرجة = الصفحة التى يوضع فيها الأكل .

(٥) رواه البخارى والسفر جمع سفرة وهى فى الأصل الطعام الذى يتخذه المسافر ثم اشتهرت لما يوضع عليه الطعام جلداً كان أو غيره

نفوسهم تشتاق[1] الألوهية والخوض فيما لا يعنى ، فرأوا السلامة فى الوحدة.

والصوفية ، لقوّة علمهم وصحة حالهم ، نُزِع عنهم ذلك فرأوا الاجتماعَ فى بيوت الجماعة على السَّجادة ، فسجادة كل واحد زاويته ، وَهَمُّ كلّ واحدٍ مُهِمُّه ، ولعلّ الواحدَ منهم لا يتخطّى هَمُّه سَجادَتَه .

ولهم فى اتخاذ السجادة وجهٌ من السنّة : روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيراً من الليف يصلّى عليه من الليل[2] .

وروت ميمونة ، زوجةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تُبسط له الخُمرة[3] فى المسجد حتى يُصلى عليها .

والرباطُ يحتوى على شبان ، وشيوخ ، وأصحاب خدمة ، وأرباب خلوة .

فالمشايخ بالزوايا أليق نظراً إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستبداد بالحركات والسكنات، فللنفس شوق[4] إلى التفرّد والاسترسال فى وجوه الرفق ، والشاب يُضَيَّق عليه مجالُ النفس بالقعود فى بيت الجماعة ،

(١) وفى أكثر من نسخة (ركون نفوسهم تتوق) والفيقة (بكسر الفاء) اسم اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين ، وأفاقت الناقة تفيق إفاقة أى : اجتمعت الدرة فى ضرعها .

(٢) وهذا الحديث مروى فى كتب السنة الصحيحة . روى البخارى عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حصير يبسطه بالنهار ويحتجره بالليل الخ . . أى يتخذه كالحجرة أو ساترا له عن الناس . »

(٣) سجادة صغيرة تعمل من سعف النخل وتقوى بالخيوط روى ابن ماجه عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على الخمرة وهى مقدار ما يضع الرجل عليه وجهه فى سجوده وحديث الصلاة على الخمرة مروى من عدة طرق بوجوه صحيحة .

(٤) وفى نسخة (تشوف) أى تطلع وفى ب « تشوق » .

والانكشاف لنظر الأغيار لتكثّر العيون عليه فيتقيد ويتأدّب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)[١] .

كان عندهم من همّ الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض ، وهكذا ، ينبغي لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غيرَ مضرّ بوقتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللغط ، فالأولى أن يلزم الشابُّ الطالبُ الوحدةَ والعزلةَ ، ويؤثر الشيخُ الشابَّ بزاويته وموضعَ خلوته ، ليحبس الشاب نفسَه عن دواعي الهوى والخوضِ فيما لا يعني ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس ، وتخلّصه من تبعات المخالطة ، وحضورِ وقاره بين الجمع فينضبط به الغير ولا يتكدّر هو .

وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئاً ولم يذق طعم المعاملة ، ولم يتنبه لنفائس الأحوال : أن يؤمر بالخدمة ، لتكون عبادتُه خدمةً ، ويجذب بحسن الخدمة قلوبَ أهل الله إليه ، فتشمله بركة ذلك ويُعين الأخوان المشتغلين بالعبادة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة» .

فيتحفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب .

والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهي طريق من طرق المواجيد ، تكسبهم الأوصافَ الجميلة والأحوالَ الحسنة ، ولا يرون استخدامَ من ليس من جنسهم ، ولا متطلعاً إلى الاهتداء بهديهم .

(١) آية رقم ٣٧ من سورة عبس .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال : أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال : حدثنا سليمان بن أحمد قال : حدثنا علي بن عبد العزيز قال : حدثنا أبو عبيد ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن شريك ، عن أبي هلال الطائي ، عن وثيق بن الرومي قال : كنت مملوكا لعمر ابن الخطاب ، رضي الله عنه ، فكان يقول لي : أسلم ؛ فإنك إن أسلمت استعنتُ بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم . قال : فأبيتُ ، فقال عمر : (لا إكراه في الدين)[١] ، فلما حضرته الوفاةُ أعتقني فقال : اذهب حيث شئت . فالقوم يكرهون خدمة الأغيار ، ويأبون مخالطتهم أيضاً ، فإنّ من لا يحب طريقهم ربّما استضرّ بالنظر إليهم أكثرَ مما ينتفع ، فإنهم بشر ، وتبدو منهم أمور بمقتضى طبع البشر ، وينكرها الغير ، لقلة علمه بمقاصدهم ، فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق ، لا من طريق التعززَ والترفّع على أحد من المسلمين .

والشابُّ الطالب إذا خَدَم أهلَ الله المشغولين بطاعته يشاركهم في الثواب ، وحيث لم يُؤَهَّل لأحوالهم السنيّة يَخدم مَن أُهِّل لها . فخدمته لأهل القرب علامة حُبُّ الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال : أخبرنا أبو الفضل حمد ابن أحمد ، قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال : حدثنا أبو بكر بن خلّاد ، قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا أبو إسحاق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما انصرف

(١) آية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة ــ ورواه ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم عن أبيه عن عمرو بن عوف الخ ، وذكر أسبق بدل وثيق في تفسير هذه الآية الكريمة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم من « تبوك » قال حين دنا من المدينة : « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : وهم فى المدينة ؟ ، قال : نعم حبسهم العُذْر »(١) .

فالقائم بخدمة القوم تَدَوَّق عن بلوغ درجتهم بعُذر القصور وعدم الأهلية ، فحام حول الحمى باذلاً مجهودَه فى الخدمة ، يتعلل بالأَثَر(٢) حيث مُنع النظرَ ، فجزاه الله على ذلك أحسن الجزاء وأناله من جزيل العطاء .

وهكذا كان أهل الصفّة يتعاونون على البرّ والتقوى ، ويجتمعون على المصالح الدينية ، ومواساة الإخوان بالمال والبدن .

(١) البخارى ومسلم ومعناهما متقارب .
(٢) الأثر بالتحريك ، ما بقى من رسم الشىء ، وسنن النبى صلى الله عليه وسلم .

الباب الخامس عشر

فى خصائص أهل الربط والصوفية

فيما يتعاهدونه بينهم ويختصونه به

إعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية .

ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم قال الله تعالى : « أولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده »(١) .

وما يرى من التقصير فى حق البعض من أهل زماننا ، والتخلف عن طريق سلفهم لا يقدح فى أصل أمرهم وصحة طريقهم وهذا القدر الباقى من الأثر واجتماع المتصوفة فى الربط ، وما هيأ الله تعالى لهم من الرفق : بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين ، وأثر من آثار منح الحق فى حقهم .

وصورة الاجتماع فى الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب : عكس نور الجمعية من بواطن الماضين وسلوك الخلف فى مناهج(٢) السلف ، فهم فى الربط كجسد واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ، ولا يوجد هذا فى غيرهم من الطوائف. قال الله تعالى : « كأنهم بنيان مرصوص »(٣) . وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى »(٤) .

وروى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) آية رقم ٩٠ من سورة الأنعام .
(٢) وفى نسخة : منهج، وفى أخرى « فى نباح (ا) السلف » والتناوح : التقابل فى (ب) فى ذكر نباح السلف منهم فى الربط .
(٣) آية رقم ٤ من سورة الصف . (٤) آية رقم ١٤ من سورة الحشر .

إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون)[١] .

فالصوفية من وظيفتهم اللازمة حفظُ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن ؛ لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا وبرابطة التأليف الإلهى اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطئوا ، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب فى الرباط رابطوا ، فلا بدّ لهم من التألف والتودد والنصح ؛ روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)[٢] .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسى ، عن أبيه ، قال : حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبى حرب ، قال : أخبرنا أحمد بن الحسين الحيرى ، قال : أخبرنا أبو سهل بن زياد القطان ، قال : حدثنا الحسين بن مكرم ، قال : حدثنا يزيد بن هارون الواسطى ، قال : حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[٣] .

فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم وتتقيّد نفوسهم ؛ لأن بعضهم عَيْن على البعض ، على ما ورد : (المؤمن مرآة المؤمن)[٤] فأى وقت ظهر من أحدهم أثرُ التفرقة ناقروه[٥] ؛ لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من تضييع حق الوقت ؛ فأى وقت

(١) أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير ولفظه : مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

(٢) الدار قطنى فى الأفراد والضياء عن جابر بسند صحيح ورواه أحمد عن سهل ابن سعد بنحوه بسند صحيح .

(٣) البخارى عن عائشة وأحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة والطبرانى عن ابن مسعود .

(٤) الطبرانى فى الأوسط والضياء عن أنس بسند حسن .

(٥) ناقروه : عابوه .

ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه من دائرة الجمعية ، وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيُعادُ بالمناقرة[١] إلى دائرة الجمعية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردى إجازة ، قال : أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى ، قال : سمعت محمد ابن عبد الله يقول : سمعت رويماً يقول : « لايزال الصوفية بخير ما تنافروا ؛ فإذا اصطلحوا هلكوا » وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس ، يقول : إذا اصطلحوا ورفعوا المناقرة من بينهم يُخاف أن تُخامر البواطنَ المساهلةُ والمراءاةُ ومسامحةُ البعض للبعض فى إهمالِ دقيق آدابهم ، وبذلك تظهرُ النفوس وتستولى .

وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يقول : رحم الله امرأً أهدى إلىّ عيوبى .

وأخبرنا أبو زرعة ، عن أبيه الحافظ المقدسى ، قال : أخبرنا عبد الرحمن بن أبى شريح ، قال : أخبرنا أبو القاسم البغوى ، قال : حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيرى ، قال : حدثنى إبراهيم بن سعد ، عن صالح ، عن ابن شهاب ، أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر ، قال : فى مجلس فيه المهاجرون والأنصار : أرأيتم لو ترخصتُ فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً : أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قوّمناك تقويم القِدْح ، فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفسُ الصوفى بغضب وخصومة مع بعض الإخوان فشرْط أخيه

(١) المناقرة : أى المعايبة ، ويقال : بينهما نقار ومناقرة أى مراجعة فى الكلام .

أن يقابل نفسه بالقلب ؛ فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر . وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت العصمة . قال الله تعالى : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلاّ الذين صبروا)[1] .

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقيرٌ من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء ، فيقول للمتدى : لِمَ تعدّيت ؟ وللمتعدّى عليه : ما الذى أذنبتَ حتى تعدى عليك وسُلِّط عليك ؟ وهلاّ قابلت نفسه بالقلب رفقاً بأخيك ، وإعطاء للفتوة والصحبة حقها .

فكلٌّ منهما جانٍ ، وخارجٌ عن دائرة الجمعية فيردّ إلى الدائرة بالنقار فيعود إلى الاستغفار ، ولا يسلك طريق الإصرار .

روت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساءوا استغفروا)[2] فيكون الاستغفار ظاهراً مع الإخوان ، وباطناً مع الله تعالى ، ويرون الله فى استغفارهم ؛ فلهذا المعنى يقفون فى صفّ النعال على أقدامهم تواضعاً وانكساراً .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشةٌ : قُم واستغفر . فيقول الفقير : ما أرى باطنى صافياً ، ولا أوثر القيامَ للاستغفار ظاهراً من غير صفاء القلب !! فيقول : أنت قم ؛ فببركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء . فكان يجد ذلك ويرى أثره عند الفقير ، وتروق القلوب ، وترتفع الوحشة .

---

(١) آية رقم ٣٤ من سورة : فصلت

(٢) ابن ماجه و البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

وهذا من خاصّية هذه الطائفة لا يبيتون والبواطنُ منطويةٌ على وحشة ، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة ، ولا يرون الاجتماع ظاهراً فى شىء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والتّشعث ، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رَدُّ استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم)[1] .

وللصوفية فى تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصلٌ من السنّة ، روى عبدالله ابن عمر ، قال : كنت فى سَرِيّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاص[2] الناس حيصةً فكنت فيمن حاص ، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبُؤْنا بالغضب ؟ ! . . ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فتبنا فيها !! . . ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان لنا توبةٌ وإلاّ ذهبنا فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج ، فقال : مَن القوم ؟ قلنا : نحن الفرّارون !! قال : لا ، بل أنتم العكّارون ، أنا فئتكم ، أنا فئة المسلمين[3] .

يقال : عكر الرجل : إذا تولّى ، ثم كرّ راجعاً . والعكّار : العطّاف والرجّاع . قال : فأتيناه حتى قبّلنا يده .

وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قبّل يد عمر عند قدومه .

وروى عن أبى مرثد الغنوى أنه قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلتُ إليه ، وقبّلتُ يده .

---

(١) أحمد والبيهقى فى الشعب والبخارى فى الأدب عن ابن عمرو بسند صحيح وفى آخره .. (ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون)

(٢) حاص : فر .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن .

فهذا رُخصةٌ فى جواز تقبيل اليد .

ولـكن أدب الصوفى أنه متى رأى نفسه تَتعزّز بذلك ، أو تَظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك . فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ومعانقتهم للإخوان عقيب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة ، وقدومهم من سَفَر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية ، فبظهور النفس تفرقوا وبعدوا ، وبغيبة النفس وبالاستغفار قَدِموا ورجعوا ، ومن استغفر واعتذر إلى أخيه[1] ولم يقبله [فقد أخطأ] . فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وعيد : روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس[2]) .

وروى جابر أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَن تُنُصِّل إليه فلم يَقبل لم يرد على الحوض) .

ومن السنة أن يقدّم للإخوان شيئا بعد الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنّ من توبتى أن أنخلع من مالى كله وأهجر دار قومى التى أتيتُ فيها الذنب . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (يجزيك من ذلك الثلث)[3] .

---

(١) فى نسخة (ب) ومن استغفر إليه أخوه واعتذر ولم يقبله فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وعيد

(٢) المكس : ماياخذه العشار الذى يجمع العشر من الأموال (الضرائب) والحديث رواه ابن ماجه والضياء عن جودان بسند صحيح .

(٣) متفق عليه وفى الروايات : قلت يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير

فصارت سنّةُ الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمناقرة، وكل قصدهم رعاية التألف حتى تـكون بواطنهم على الاجتماع كما أن ظواهرهم على الاجتماع . وهذا أمر تفرّدوا به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه ، أو مما يُطلب لسكانه بالدروزة : أن يكون عنده من الشغل بالله مالا يسعه الكسبُ ، وإلا — إذا كان للبطالة والخاوض فيما لا يعنى عنده مجال ، ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجد والاجتهاد — فلا ينبغى له أن يأكل من مال الرباط ، بل يكتسب ويأكل من كسبه ؛ لأن طعام الرباط لأقوام كل شغلهم بالله ، فخدّمتهم الدنيا لشُغلهم بخدمة مولاهم ؛ إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويهتدى بهديه ، فيرى الشيخُ أن يطعمه من مال الرباط فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة وبصيرة .

ومن جملة ما يكون للشيخ فى ذلك من النية : أن يَشغله بخدمة الفقراء ، فيكون ما يأكله فى مقابلة خدمته .

روى عن أبى عمرو الزجاجى ، قال : أقمت عند الجنيد مدّة ، فما رآنى قط إلا وأنا مُشتغل بنوعٍ من العبادة ، فما كلّمنى ، حتى كان يومٌ من الأيام خلا الموضع من الجماعة ، فقمت ونزعت ثيابى ، وكنست الموضع ، ونظفته ، ورششته ، وغسلت موضع الطهارة . فرجع الشيخ ورأى علىّ أثر الغبار ، فدعا لى ، ورحّب بى ، وقال : أحسنتَ ، عليك بها ، ثلاث مرات .

ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة .

روى أبو مَحذُورة ، قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الأذانَ ، والسقايةَ لبنى هاشم ، والحجابة لبنى عبد الدار .

وبهذا يقتدى مشايخ الصوفية فى تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يُعذر فى ترك نوع من الخدمة إلا كاملُ الشغل بوقته ، ولا نعنى بكامل الشغل شُغل الجوارح ولكن نعنى به دوام الرعاية والمحاسبة ، والشغلَ بالقلب والقالب وقتاً ، وبالقلب دون القالب وقتاً ، وَتفَقّدَ الزيادة من النقصان ؛ فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغلٌ تامٌّ ، وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمةِ الكفاية . وفى البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة ، قال : أخبرنا عمر ابن أحمد بن منصور ، قال : أخبرنا أحمد بن خلف ، قال : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ، قال : سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول : سمعت على بن عبد الحميد الغضائرى يقول : سمعت السرى يقول : من لا يعرف قدر النعم سُلِبها من حيث لا يعلم .

وقد يُعذَر الشيخُ العاجز عن الكسب فى تناول طعام الرباط ، ولا يُعذر الشاب.

هذا فى شرط طريق القوم على الإطلاق . فأمّا من حيثُ فتوى الشرع : فإن كان شرط الواقف على المتصوفة وعلى من تزيّا بزىّ المتصوفة ولبس خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق ، فتوىً .

وفى ذلك القناعةُ بالرخصة دون العزيمة التى هى شغل أهل الإرادة .

وإن كان شرط الواقف على من يسلك طريقَ الصوفية عملاً وحالاً ، فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات . وطرقُ أهل الإرادة عند مشايخ الصوفية مشهورةٌ .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتوح ، قال : أخبرنا أبو الفضل حمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال : حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف ، قال : حدثنا

جعفر الفريابى ، قال : حدثنا محمد بن الحسن البلخى ، قال : حدثنا عبد الله بن المبارك ، قال : حدثنا سعيد بن أبى أيوب الخزاعى ، قال : حدثنا عبد الله بن الوليد ، عن أبى سليمان الليثى ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن كمثل الفرس فى آخيته[1] ، يجول ويرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم للمؤمنين » .

(١) الآخية ـ بالمد والتشديد ـ : واحدة الأواخى ، وهى عروة تشد إليها الدابة.

الباب السادس عشر

فى ذكر اختلاف أحوال مشايخهم

فى السفر والمقام والحضر

اختلفت أحوالُ مشايخ الصوفية ؛ فنهم من سافر فى بدايته وأقام فى نهايته ، ومنهم من أقام فى بدايته وسافر فى نهايته ، ومنهم من أقام ولم يسافر ، ومنهم من استدام السفر ولم يُؤثر الإقامة .

ونشرح حال كلّ واحد منهم ومقصده فيما رام :

فأمّا الذى سافر فى بدايته وأقام فى نهايته فقصدُه بالسفر لمعانٍ ، منها :

تعلُّم شىء من العلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين »[1] .

وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدلُّه على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً .

ونُقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر فى شهر لحديث بلغه أن عبد الله بن أنيس يحدّث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »[2] .

(١) ابن عدى والبيهقى فى الشعب ، والعقيلى فى الضعفاء ، وابن عبد البر فى العلم عن أنس ، وفى العلم أحاديث كثيرة صحيحة فى غاية الروعة والنفاسة .

(٢) الترمذى والضياء عن أنس « صحيح » .

وقيل فى تفسير قوله تعالى (السائحون) : إنهم طلاّب العلم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال : أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الهروى ، قال : أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال : أخبرنا الجراحى ، قال : أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال : أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال : حدثنا وكيع ، قال : حدثنا أبو داود ، عن سفيان ، عن أبى هارون ، قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ؛ فإذا أتَوْكم فاستوصوا بهم خيراً »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[2] .

وروت عائشة ، رضى الله تعالى عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله تعالى أوحى إلىّ أنه من سلك مسلكاً فى طلب العلم سَهَّلْتُ له طريقاً إلى الجنة »[3] .

ومن جملة مقاصدهم فى البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين ؛ فللمريدِ بلقاء كلّ صادقٍ مزيدٌ ، وقد ينفعك لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال .

وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعه لفظه . وهذا القول فيه وجهان :

أحدهما : أن الرجل الصِّدِّيق يُكالِّم الصادقين بلسان فعله أكثر مما يكلّمهم

(١) الترمذى وابن ماجه ، عن أبى سعيد « ضعيف » .

(٢) ابن عدى والبيهقى فى الشعب ، والطبرانى فى الأوسط ، وغيرهم ، عن أنس والحسين بن على ، وابن عمر ، وأبى سعيد بسند صحيح .

(٣) من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة : الترمذى عن أبى هريرة حسن .

بلسان قوله ؛ فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه فى مورده ومصدره ، وخلوته وجلوته ، وكلامه وسكوته ، يَنْتفع بالنظر إليه ؛ فهو نَفعُ اللَّحظ .

ومَن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتكلّم بهواه ، ونورانيةُ القول على قدر نورانية القلب ، ونورانيةُ القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حقّ العبودية وحقيقتها .

والوجه الثانى : أن نظر العلماء الراسخين فى العلم والرجال البالغين ترياقٌ نافعٌ ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستشف بنور بصيرته حسنَ استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة : فيقع فى قلبه محبة الصادق من المريدين وينظر إليه نظر محبّة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنيةً وَيَهَبُون آثاراً مَرضية ، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله تعالى ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل فى بعض الأفاعى من الخاصية ، أنه إذا نظر إلى إنسان يُهلكه بنظره ، جعل فى نظر بعض خواصّ عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يُكسبه حالاً وحياةً .

وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف فى مسجد « الخيف » بمنى ، ويتصفّح وجوه الناس ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لله عباد إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة ، فأنا أتطلّب ذلك .

ومن جملة المقاصد فى السفر ابتداء قطعُ المألوفات ، والانسلاخُ من ركون النفس إلى معهودٍ ومعلوم ، والتحاملُ على النفس بتجرّع مرارة فرقة الألّاف والخلّان والأهل والأوطان ، فمن صَبَر على تلك المألوفات محتسباً عند الله أجراً فقد حاز فضلاً عظيماً .

أخبرنا أبو زُرعة بن أبى الفضل الحافظ المقدسىّ عن أبيه ، قال : أخبرنا

القاضى أبو منصور محمد بن أحمد الفقيه الأصفهانى ، قال : أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد ، قال : حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابورى قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال حدثنى يحيى ابن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : مات رجل بالمدينة ممن وُلد بها ، فصلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : «ليته مات بغير مولده » قالوا : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال : « إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى مُنْقَطَع أثره من الجنة » (١) .

ومن جملة المقاصد فى السفر اكتشافُ دقائق النفوس ، واستخراج رعوناتها ودعاويها ؛ لأنها لا تكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر .

وسُمّى السفرُ سفراً ؛ لأنه يُسفر عن الأخلاق وإذا وقف على دائه يتشمّر لدوائه ، وقد يكون أثر السفر فى نفس المبتدىء كأثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجّد وغير ذلك ؛ وذلك أنّ المُتَنفّل سائحٌ سائر إلى الله تعالى من أوطان الغفلات إلى محالّ القربات ، والمسافر يقطع المسافات ، ويتقلّب فى المفاوز (٢) والفَلوات (٣) بحسن النيّة لله تعالى سائر إلى الله تعالى بمراغمة الهوى ، ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة ، قال : أخبرنا عمر بن أحمد ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى ، قال : سمعت عبد الواحد ابن بكر يقول : سمعت على بن عبد الرحيم يقول : سمعت النورىّ يقول : « التصوّف تركُ كلّ حظٍّ للنفس » .

---

(١) النسائى وابن ماجه عن ابن عمرو بسند صحيح من أول : إن الرجل إذا مات الخ

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الفلاة التى لاماء فيها

(٣) والفلوات : جمع فلاة وهى الصحراء الواسعة .

فإذا سافر المبتدى تاركاً حظّ النفس تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة ويكون لها بالسفر دِبَاغٌ يُذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية ، والعفونة الطبيعية كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد فى السفر : رؤية الآثار والعِبَر ، وتسريحُ النظر فى مسارح الفِكَر ، ومطالعةُ أجزاء الأرض والجبال ومواطىء أقدام الرجال ، واستماع التسبيح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القِطَع المتجاورات ، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العِبَر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهدُ والدلالاتُ ، قال الله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[1] . وقد كان السرىّ يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ، ودخل آزار ، وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إيثارُ الخمولِ ، واطّراحُ حظّ القبول ، فصدق الصادق ينمّ على حسن الحال ، ويُرزَق صاحبه من الخلق حُسن الإقبال ، وقلّما يكون صادق متمسك بعُروة الإخلاص ذو قلب عامر إلاّ ويرزق إقبال الخلق ، حتى سمعت بعض المشايخ يحكى عن بعضهم أنه قال : « أريد إقبال الخلق علىّ ، لا أنى أبلّغ نفسى حظها من الهوى ، فإنّى لا أبالى أقبلوا أو أدبروا ولكن لكون إقبال الخلق علامةً تدل على صحة الحال » فإذا ابتلى المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق ، وربما يُفتح عليه بابٌ من « الرفق » وتدخل النفس عليه من طريق البر والدخولِ فى الأسباب المحمودة ، وتُريه وجه المصلحة والفضيلة فى خدمة عبادِ الله وبذلِ الموجود ، ولا تزال النفس

(١) آية : ٥٣ من سورة فصلت .

به والشيطانُ حتى يَجُرّاه إلى السكون إلى الأسباب واستحلاء قبول الخلق ، وربما قويا عليه فجرّاه إلى التصنّع والتعمّل ، ويتسع الخرقُ على الرّاقع .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له : أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير . وهذا مزلّةٌ عظيمة الأقدام ؛ فالله تعالى يُدرك الصادق إذا ابتلى بشىء من ذلك ويُزعجه بالعناية السابقة والمعونة اللاحقة إلى السفر ، فيفارق المعارف والموضع الذى فُتح عليه هذا البابُ فيه ويتجرّد لله تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد فى الأسفار للصادقين .

فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ فى بداياتهم ، ماعدا : الحجّ ، والغزو ، وزيارة بيت المقدس .

وقد نُقل أن ابن عمر خرج من المدينة قاصداً « إلى بيت المقدس » وصلّى فيه الصلوات الخمس ، ثم أسرع راجعاً إلى المدينة من الغد .

ثم إذا منّ الله على الصادق بإحكام أمور بدايته وقلّبه فى الأسفار ، ومنحه الحظّ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتقش فى قلبه من فوائد النظر إلى حال المتّقين ، وتعطّر باطنه باستنشاق عَرْف[1] معارف المقرّبين ، وتحصّن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسبر أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دفائن أخلاقها وشهواتها الخفيّة ، وسقط عن باطنه نظرُ الخلق ، وصار يَغلب ولا يغلب ، كما قال الله تعالى إخباراً عن موسى (ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لى ربّى حكماً وجعلنى من المرسلين)[2] فعند

(١) العرف (بفتح العين) : الرائحة الطيبة .
(١) آية رقم ٢١ من سورة الشعراء .

ذلك يردّه الحقّ إلى مقامه ، ويمدّه بجزيل إنعامه ، ويجعله إماماً للمتقين به يُقتدى وعَلَماً للمؤمنين به يُهتدى .

وأما الذى أقام فى بدايته وسافر فى نهايته : يكون ذلك شخصاً يَسّر الله له فى بداية أمره صحبةً صحيحةً ، وقيّض له شيخاً عالما يسلك به الطريق ، ويُدَرِّجُهُ إلى منازل التحقيق ، فيلازم موضعَ إرادته ، ويلتزم بصحبة من يَردُّه عن عادته . وقد كان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : « إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غيرُ الله لحرام عليك أن تحضُرنى » . فمن رُزق مثلَ هذه الصحبة يحرم عليه السفر ؛ فالصحبة خيرٌ له من كل سفرٍ وفضيلةٍ يقصدها .

أخبرنا رضىّ الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى ، إجازة ، قال : أخبرنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، عن والده الأستاذ أبى القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول : سمعت عياش بن أبى الصخر يقول : سمعت أبا بكر الزقاق يقول : « لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا عشرين سنة » ؛ فمن رزق صحبةً من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنيّة ، والعزائم القويّة يَحرُم عليه المفارقةُ واختيارُ السفر .

ثم إذا أحكم أمره فى الابتداء ، بلزوم الصحبة ، وحُسنِ الاقتداء ، وارتوى من بحر الأحوال وبلغ مبلغ الرجال ، وانبَجَسَ من قلبه عيون ماء الحياة ،وصارت نفسه مكسبة للسعادات ، يستنشق نَفَس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان فى أقطار الأرض وشاسع البلدان يشرئبّ إلى التلاق وينبعث إلى التطواف فى الآفاق ، يسيّره الله تعالى فى البلاد لفائدة العباد ، ويَستخرج بمغناطيس حاله خَبْء أهل الصدق ، والمتطلعين إلى من يُخبر عن الحق ، ويَبذُر فى أراضى القلوب بَذْر الفلاح ، ويكثر ببركته ونفسه وصحبته أهلُ الصلاح . وهذا مَثَلُ هذه الأمة

المادية فى الإنجيل (كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه)[١] يَعود بركةُ البعض على البعض وتسرى الأحوال من البعض إلى البعض ويكون طريق الوراثة معموراً ، وعَلَمُ الإفادة منشوراً .

أخبرنا شيخنا قال : أخبرنا الإمام عبد الجبار البيهقى فى كتابه ، قال : أخبرنا أبو بكر البيهقى ، قال : أخبرنا أبو على الروذبارى ، قال : حدثنا أبو بكر ابن واسة ، قال : حدثنا أبو داود قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر قال : أخبرنى العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتّبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا»[٢]

فأمّا من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً ربّاه الحقُّ سبحانه وتعالى ، وتولاّه ، وفتح عليه أبواب الخير ، وجذبه بعنايته وقد ورد : « جَذْبةٌ من جذبات الحق توازى عمل الثقلين » .

ثم لما عَلِم منه الصدقَ ورأى حاجته إلى من ينتفع به ساق إليه بعضَ الصدّيقين ، حتى أيده بلطفه ولفظه ، وتداركه بلحظه ، واقحه بقوّة حاله ، وكفاه يَسيرُ الصحبةِ لكمال الأهلية فى الصاحب والمصحوب ، وإجراء سنّة الله تعالى فى إعطاء الأسباب حقها لإقامة رسم الحكمة يُحوجُ إلى يَسير الصحبة ،فيقنّبه بالقليل الكثير ، ويغنيه اليسير من الصحبة عند اللحظ الكثير[٣] ، ويكتفى بوافر

---

(١) آية رقم ٢٩ من سورة الفتح

(٢) أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة (صحيح) .

(٣) وفى نسخة : ويغنيه اليسير من الصحبة لحظ الكبير .

حظّ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعوّض بأشعة الأنوار عن مطالعة الغير والآثار ، كما قال بعضهم : « الناس يقولون افتحوا أعينكم وأبصروا ، وأنا أقول : غمّضوا أعينكم وأبصروا » .

وسمعت بعض الصالحين يقول : « لله عباد طُور سيناهم رُكَبُهم تسكون رؤوسهم على رُكَبهم وهم فى محالّ القرب ، فمن نَبع له معينُ الحياة فى ظلمة خلوته ماذا يصنع بدخول الظلمات ؟ ! .. ومن اندرجت له أطباق السموات فى طىّ شهوده ماذا يصنع بتقلّب طرفه فى السموات ؟ ومن تجمعت أحداق بصيرته متفرقاتِ الكائنات ماذا يستفيد من طىّ الفَلَوات ؟ ومن خلص بخاصيةِ فطرته فى مجمع الأرواح ماذا تفيده زيادةُ الأشباح ؟

قيل : أرسل ذو النون المصرى إلى أبى يزيد رجلاً وقال : قل له إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة ؟ فقال للرسول : قل لأخى : الرجل من ينام الليل كلّه ثم يصبح فى المنزل قبل القافلة . فقال ذو النون : هنيئاً له ، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا . وكان بشر يقول : يا معشر القُرّاء سيحوا تطيبوا ، فإن الماء إذا كثر مكثُه فى موضع تغيّر .

وقيل : قال بعضهم عن هذا الكلام : صِرْ بحراً حتى لا تتغيّر .

فإذا أدام المريد سير الباطن بقطع مسافة النفس الأمّارة بالسوء ، حتى قطع منازل آفاتها ، وبدّل أخلاقها المذمومةَ بالمحمودة ، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص ، اجتمع له المتفرقات ، واستفاد فى حَضَره أكثر من سفره ، لكون السفر لا يخلو من متاعب ، وكُلَف ، وشوّشات ، وطوارقَ ، ونوازل

(١) وفى نسخة العبر

تتجدد يضعف عن سياستها بالعلم الضعفاء ، ولا يقدر على تسليط العلم على متجدّدات السفر وطوارقه إلاّ الأقوياء .

قال عمر بن الخطاب للرجل الذى زكّى عنده رجلاً : هل صحبته فى السفر الذى يُستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ؛ قال : ما أراك تعرفه !!

فإذا حفظ الله عبده فى بداية أمره من تشويش السفر ، ومتّعه بجمع الهمّ وحُسنِ الإقبال فى الحضَر ، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ؛ فقد أحسن إليه .

قيل فى تفسير قوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)[1] : هو الرجل المنقطع إلى الله يُشكِل عليه شىء من أمر الدين ، فيبعث الله إليه مَن يَحُلُّ إشكالَه .

فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رُزق ، وهو فى المقام من غير سفرٍ ، ثمراتِ النهاية فيستقر فى الحضر ابتداء وانتهاء وأُقيم فى هذا المقام جمعٌ من الصالحين .

وأما الذى أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله فى ذلك ، يقول بعضهم : اجتهد أن تسكون كلّ ليلة ضيف مسجد ، ولا تموت إلاّ بين منزلين[2] .

وكان من هذه الطبقة « إبراهيم الخواص » ما كان يقيم فى بلد أكثر من أربعين يوماً ، وكان يرى أنه إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله ، فكان علمُ الناس ومعرفتهم إيّاه يراه سبباً ومعلوماً .

وحُكى عنه أنه قال : مكثتُ فى البادية أحد عشر يوماً لم آكل ، وتطلعت

(١) آية رقم ٣ من سورة الطلاق
(٢) وفى نسخة : منزلتين

نفسى أن آكل من حشيش البرّ ، فرأيت الخضر مقبلاً نحوى ، فهربت منه ، ثم التفت فإذا هو رجع عنّى ، فقيل له : لِمَ هربتَ منه ؟ قال : تشوفت نفسى أن يغيثنى ، فهؤلاء الفرّارون بدينهم .

أخبرنا أبو زُرعة طاهر بن الحافظ أبى الفضل المقدسىّ عن أبيه ، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن على ، قال : أخبرنا عبد الله بن يوسف بن قاموية قال : حدثنا أبو محمد الزهرى القاضى ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن أسباط قال : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا محمد يعنى ابن مسلم — عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن سلمان بن هُرمز ، عن عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : (أحبّ شىء إلى الله الغرباء ، قيل وَمَن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة) .

وهذه كلّها أحوال اختلفت ، واتّبع أربابُها الصحةَ وَحسن النية مع الله وحسنُ النيّة يقتضى الصدق ، والصدقُ محمود لعينه كيف تقلّبت الأحوال . فمن سافر ينبغى أن يتفقّد حاله ، ويُصحح نيته .

ولا يقدر على تخليص النيّة من شوائب النفس إلا كثيرُ العلم تامُّ التقوى ، وافرُ الحظّ من الزهد فى الدنيا .

ومن انطوى على هوى كامن ، ولم يستقص فى الزهد لا يقدر على تصحيح النية ؛ فقد يدعوه إلى السفر نشاط جِبِلّى نفسانىّ ، وهو يظن أن ذلك داعيةُ الحق وداعية النفس .

ويحتاج الشخص فى علم صحة النية إلى العِلم بمعرفة الخواطر ، وشرحُ الخواطر وعلمها يحتاج إلى بابٍ مُفرد لنفسه ، ونومىء الآن إلى ذلك برمز يدركه مَن نازله

شىء من ذلك ؛ فأكثر الفقراء ، مِن عِلم ذلك ومعرفته ، على بُعد !! اعلم أنّ ما ذكرناه من نشاط النفس واقعٌ للفقير فى كثير من الأمور ؛ فقد يجد الفقيرُ الروْحَ بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين ، ويكون ذلك الروْحُ مقترناً به فى ثانى الحال ، وإن كان يتراءى له طيبةُ القلب فى الوقت ، وسببُ طيبة القلب فى الوقت أن النفس تنفسح وتتسع ببلوغ غرضها ، وتيسير يسير[1] هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزّه ، وإذا اتسعت تعدت عن القلب وتنحّت عنه متشوّقة إلى متعلق هواها ، فيتروّح القلب لا بالصحراء ، بل ببعد النفس عنه ، كشخص تباعد عنه قرينٌ يستثقله .

ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته ، واستفتح ديوانَ معاملته ، وَتميّز دستور حاله ، يجد النفس مقارنةً للقلب بمزيد ثِقَلٍ مُوجب لتبرّمه بها ، وكلما ازداد ثقلها تكدّر القلب . وسببُ زيادة ثقلها استرسالها فى تناول هواها ، فيصير الخروجُ إلى الصحراء عينَ الداء . ويظنّ الفقيرُ أنه ترويحٌ ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباناً ، وخفّت ، ولَطُفت وصارت قريناً صالحاً للقلب لا يستثقلها .

وعلى هذا يقاس التروّح بالأسفار ، فللنفس وثبات إلى توهّم التروّحات ؛ فمن فَطِن لهذه الدقيقة لا يغترُّ بالتروّحات المستعارة التى لا تُحمد عاقبتها ولا تُؤمن غائلتُها ، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر . ولا يكترث بالخاطر ، بل يطرحه بعدم الالتفات مسيئاً ظنّه بالنفس وتسويلاتها .

ومن هـذا القبيل ، والله أعلم — قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الشمس تطلع من بين قرنى الشيطان)[2] فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثباتٌ تستمد تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع ، ويطول.

---

(١) وفى نسخة : تيسير يسير من هواها .

(٢) رواه مسلم .

شرح ذلك ويعمق ومن ذلك القبيل خفةُ مرض المريض غُدوةً ، بخلاف العشيّات فيتشكل اهتزازُ النفس بنهضات القلب ، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفاتٌ كثيرة ويَدخل فى مَداخل باهتزاز نفسه ظناً منه أن ذلك حُـكمُ نهوض قلبه ، وربما يتراءى له أنه بالله يصول ، وبالله يقول ، وبالله يتحرك ، فقد ابتلى بنهضة النفس ووثوبها .

ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القـلوب ، وأربابِ الأحوال ، وغيرُ أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل ، وهذه مَزِلّة قدمٍ مختصةٌ بالخواص دون العوام . فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه .

وأقلُّ مراتب الفقراء فى مبادىء الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يُقدّموا صلاة « الاستخارة » وصلاة الاستخارة لا تُهْمل .

وإن تبيّن للفقير صحةُ خاطره ، أو تبيّن له وجهُ المصلحة فى السفر ببيانٍ أوضَحَ من الخاطر ، فللقوم مراتبُ فى التبيان من العلم بصحّة الخاطر ، وبما فوق ذلك .

ففى ذلك كلّه لا تُهمَل صلاةُ الاستخارة اتباعاً للسنّة ؛ ففى ذلك البركةُ . وهى من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إملاء ، قال : أخبرنا أبو القـاسم بن عبد الرحمن فى كتابه ، أن أبا سعيد الكنجرودى أخبرهم ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال : حدثنا أحمد بن الحسن الصوفى ، قال : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن أبى الموالى ، عن محمد بن المنـكدر ، عن جابر رضى الله تعالى عنـه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعلّمنا الاستخارةَ ، كما يعلّمنا السورةَ من القرآن ، قال : « إذا همّ أحدكم

بالأمر — أو أراد الأمر — فليصل ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهمّ إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علاّم الغيوب ، اللهمّ إن كنت تعلم أن هـذا الأمر — ويسميه بعينه — خيرٌ لى فى دينى ، ومعاشى ، ومعادى ، وعاقبة أمرى — أو قال : عاجل أمرى وآجله — فاقْدُره لى ، ثم بارك لى فيه .

وإن كنت تعلمه شرًّا لى — مثل ذلك — فاصرفه عنى ، واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان »[1] .

(١) البخارى باب الدعوات بنحوه .

الباب السابع عشر

فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره

من الفرائض والفضائل

فأمّا من الفقه — وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه، وهذا الكتاب غير موضوع لذلك، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمناً بذكر الأحكام الشرعية التي هي الأساس الذي ينبني عليه — لابدّ للصوفي المسافر من علم «التيمم» و«المسح على الخفّين» والقصر، والجمع في الصلاة.

أما التيمُّمَ فجائز للمريض، والمسافرِ في الجنابة، والحدثِ عند عدم الماء أو الخوف من استعماله تلفاً في النفس أو المال أو زيادةً في المرض على القول الصحيح من المذهب، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه أو عطش دابته أو رفيقه..

ففي هذه الأحوال كلّها يصلّي بالتيمم ولا إعادة عليه.

والخائف من البرد يصلّي بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح.

ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب، ومواضعُ الطلب مواضع تردد المسافر في منزله للاحتطاب والاحتشاش، ويكون الطلبُ بعد دخول الوقت، والسفر القصير في ذلك كالطويل.

وإن صلى بالتيمم مع تيقّن الماء في آخر الوقت جاز على الأصح. ولا يعيد مهما صلّى بالتيمم وإن كان الوقت باقياً.

ومهما توهّم وجودَ الماء بطل تيممه، كما إذا طلع ركْبٌ أو غير ذلك.

وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة، ويستحب له الخروجُ منها واستئنافها بالوضوء على الأصح.

ولا يتيمم للفرض قبل دخول الوقت، ويتيمم لكل فريضة. ويصلي مهما شاء من نوافل بتيمم واحدٍ. ولا يجوز أداء الفرض بتيمم النافلة.

ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصلي ويعيد عند وجود أحدهما، ولكن إذا كان محدِثاً لا يمسُّ المصحف، وكان جُنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة، بل يذكر الله تعالى عِوَض القراءة.

ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والحصى، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب، ويسمّي الله تعالى عند التيمم.

وينوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب، ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح جميعَ وجهه، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم. ويضرب ضربةً لليدين مَبسوطَ الأصابع، ويعم بالتراب محل الفرض، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعداً كيف أمكنه لابد أن يعم التراب محل الفرض.

ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين، ويُمِرُّ اليدَ على ما نزل من غير إيصال التراب إلى المنابت.

وأما المسح: فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر، والمقيم يوماً وليلة. وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخفّ، لا من حين لبس الخفّ.

ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف، بل يحتاج إلى كمال الطهارة، حتى لو لبس أحد الخفّين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف.

ويشترط في الخفّ إمكانُ متابعة المشي عليه وسترُ محل الفرض، ويكفي مسحٌ يسيرٌ من أعلى الخفّ، والأولى مسحُ أعلاه وأسفلِه من غير تكرار.

ومتى ارتفع حكم المسح — بانقضاء المدّة، أو ظهورِ شيء من محل الفرض وإن

كان عليه لفافة وهو على الطهارة ، يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح .

والماسح في السفر إذا أقام يمسح كالمقيم ، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر

والأولى إذا ركب جورباً ونعل يجوز المسح عليه ، ويجوز على المشرّج[1] إذا ستر محل الفرض ، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستتر بعض القدم به والباقي باللفافة .

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما ، ويقيم لكلّ واحدة ، ولا يفصل بينهما بكلام وغيره .

وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء ، ولا قصر في المغرب والصبح بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع .

والسنن والرواتب يصليها بالجمع بين السنتين ، قبل الفريضتين الظهر والعصر ، وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً . وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الراتبة لهما ويوتر بعدها .

ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحالٍ إلا عند التحام القتال الغازي . ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل . ويكفيه الصلاة على ظهر الدابة ، في الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع ، إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون كجاوة[2] وغير ذلك ، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، فيصلي كيف توجه في الطريق فأما أن يكون

(١) شرجت اللبن شرجاً نضدته ، والتشريج الخياطة المتباعدة . وشرج اللحم بالشحم أي داخلا ، وشرج الثوب خاطه خياطة متباعدة .

(٢) مكان متسع .

لا مستقبل القبلة ولا متوجهاً إلى الطريق فلا ، حتى لو حرّف دابته عن الصوب المتوجّه إليه ، لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته .

والماشي يتنفّل في السفر ، ويُقنِعه[1] استقبال القبلة عند الإحرام ، ولا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال ، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود . وراكبُ الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً .

وإذا أصبح المسافر مقيماً ، ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم ، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام .

والصوم في السفر أفضل من الفطر ، وفي الصلاة القصرُ أفضلُ من الإتمام ، فهذا القدر كافٍ للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهامّ سفره .

فأما المندوب والمستحب ، فينبغي أن يطلب لنفسه رفيقاً في الطريق يُعينه على أمر الدين ، وقد قيل : الرفيق ثم الطريق ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده[2] ، إلا أن يكون صوفياً عالماً بآفة نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة . وإذا كانوا جماعة ينبغي أن يكون فيهم متقدّم أميرٌ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمّروا أحدكم)[3] .

والذي يسميه الصوفية « يشرو » وهو الأمير ينبغي أن يكون أزهد الجماعة في الدنيا ، وأوفرهم حظّاً من التقوى .

(١) يقنعه : يكفيه .

(٢) رواه أحمد بسند صحيح من حديث ابن عمرو والبخاري عن ابن عمر بلفظ لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده .

(٣) حديث حسن رواه أبو داود ولفظه : إذا خرج ثلاثة في سفر .

وأتمهم مروءة وسخاوة ، وأكثرهم شفقة ، روى عبد الله بن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه)[١]

نُقل عن عبد الله المروزى : أى أبا علىّ الرباطىّ صحبه ، فقال : عَلَى أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ؛ فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبى علىّ على ظهره ، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يغطّيه بكسائه من المطر ، وكلما قال له لا تفعل ، يقول : ألستُ الأميرَ وعليك الانقيادُ والطاعةُ .

فأمّا إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة ، والتعزز ليتسلّط على الخدّام فى الرُّبط ويُبلّغ نفسه هواها فهذا طريق أرباب الهوى الجهّال المباينين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا .

فيتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا يجتمعون لتحصيل أغراض النفس والدخولِ على أبناء الدنيا والظلمةِ للتوصّل إلى تحصيل مآرب النفس ، ولا يخلو اجتماعهم هذا عن الخوض فى الغيبة والدخول فى المداخل المكروهة ، والتنقّل فى الرُّبط ، والاستمتاع ، والنزهة وكلّما كثر المعلوم فى الرباط أطالوا المقام وإن تعذرت أسباب الدين ، وكلما قلّ المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يُوَدِّع إخوانه إذا أراد السفر ، ويدعو لهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عُمر من مكةَ إلى المدينة . فلما أردتُ مفارقته شيّعنى ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[٢] : (قال لقمان لابنه : يابنىّ إن الله تعالى إذا استُودِعَ شيئاً حفظه ،

(١) أحمد والترمذى بسند حسن .

(٢) روى أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم عن ابن عمر بسند صحيح كان إذا ودع رجلا أخذه بيده فلا يدع حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده وتقول : استودع الله الخ .

وإنى أستودع الله دينَك وأمانتَك وخواتيمَ عملك) .

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[١] : (إذا أراد أحدكم سفراً فليودّع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له فى دعائهم البركة) .

وروى عنه عليه الصلاة والصلام أنه كان إذا ودّع رجلاً قال : (زوّدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجّهك للخير حيثما توجّهت)[٢] .

وينبغى أن يعتقد أخوانهُ أنه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه ؟ فقد روى أن عمر رضى الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاء رجل معه ابن له ، فقال له عمر : ما رأيتُ أحداً أشبه بأحدٍ من هذا بك . فقال الرجل: أحدّثك عنه يا أمير المؤمنين ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمّه حاملٌ به ، فقالت : تخرج وتدَعُنى على هذه الحالة ؟ ! فقلت : أستودع الله ما فى بطنك . فخرجت ، ثم قدمت ، فإذا هى قد ماتت ؛ فجلسنا نتحدث فإذا نارٌ تلوح على قبرها ، فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة نراها كلّ ليلة ، فقلت : والله إنها كانت صوّامة قوّامة . فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر ، فحفرنا ، وإذا سراج ، وإذا هذا الغلام يدبّ ، فقيل : إنّ هذا وديعتك ، ولو كنتَ استودعتنا أمّه لوجدتها ، فقال عمر : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب .

وينبغى أن يودّع كلّ منزل يرحل عنه بركعتين ، ويقول : اللهم زودنى التقوى ، واغفرلى ذنوبى ، ووجهنى للخير أينما توجهتُ .

وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينزل منزلاً

(١) الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن أبى هريرة ولفظه ، إذا أراد أحدكم سفرا فليسلم على أخوانه فإنهم يزيدونه بدعائهم إلى دعائه خيرا .

(٢) الترمذى عن أنس بلفظ . جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله إنى أريد سفرا فزودنى الخ ـ وقال حسن ورواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق

وقال الجنيد : وقد سئل عن التصوّف ، فقال : أن تكون مع الله بلاعلاقة[1] .

وقال معروف الكرخي : التصوّف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوّف .

وسئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألاّ يستغنى بشىء دون الحق .

وقال أبو الحسين النورى : نَعتُ الفقير السكونُ عند العدَم ، والبذلُ والإيثارُ عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترزُ من الغِنَى حَذَراً أن يدخُل عليه الغنى فيفسدَ عليه فقره . كما أنّ الغَنِيَّ يحترز من الفقر حَذَراً أن يدخُل عليه الفقرُ فيفسد عليه غناه .

وبالإسناد الذى سبق إلى أبى عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت مظفَراً القرمسينى يقول : الفقيرَ : الذى لا يكون له إلى الله حاجة ، قال : سمعته يقول : سألت أبا بكر المصرى عن الفقير فقال : الذى لا يملك ولا يُملك .

قوله : (لا يكون له إلى الله حاجة) معناه : أنه مشغولٌ بوظائف عبوديته تامُّ الثقة بربّه ، عالِمٌ بحسن كلاءته به ، لا يُحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال فى البيْن زيادة .

وأقوال المشايخ تتنوّع معانيها ؛ لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال فى أوقاتٍ دون أوقات ، ويُحتاج فى تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط ؛ فقد تُذكر

(١) أى بلا علاقة القلب بما سواه . والعلاقة [بالفتح] الارتباط .

أشيـاء فى معنى التصوف ذُكِرَ مثلُها فى معنى الفقر ، وتذكر أشيـاء فى معنى الفقر ذكر مثلهـا فى معنى التصـوف ، وحيثُ وقع الاشتباه فلا بُدَّ من بيان فاصل ؛ فقد تشتبه الإشارات فى الفقر بمعانى الزهد تارةً وبمعانى التصوف تارة ولا يتبين للمسترشد بعضُها من بعض ؛ فنقول : التصوّف غيرُ الفقر ، والزهدُ غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ؛ فالتصوف اسمٌ جامعٌ لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مَزِيدِ أوصافٍ وإضافاتٍ لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً .

قال أبو حفص : التصوّف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ؛ فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيّع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردودٌ من حيث يرجو القبول .

وقال أيضاً : حُسْنُ أدب الظاهر عُنوانُ حُسن أدب الباطن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضىّ الدين أحمد بن إسماعيل إجازة ، قال : أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم قال : أخبرنى والدى أبو القاسم القشيرى قال : سمعت محمد ابن أحمد بن يحيى الصوفى يقول : سمعت عبد الله بن على يقول : سئل أبو محمد الجريرى عن التصوّف فقال : « الدخول فى كل خلق سَنِيّ ، والخروجُ عن كل خلق دنىّ » .

فإذا عرف هذا المعنى فى التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها ، واعتُبر حقيقتها ، يُعلم أن التصوّف فوق الزهد وفوق الفقر .

وقيل : « نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف » .

وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى :

والأصل فيه : البكاء ، كالصبي يلوذ بالأم ويسرع إليها عند البكاء ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما لكم ؟ قالوا : يارسول الله ، ما نجد ماء نشرب ونتوضأ به إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فنظرت ، وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون ، قال : فتوضأ القوم منه) قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة فى غزوة الحديبية)[1] .

ومن سنة الصوفية « شد الوسط » وهو من السنة : روى أبو سعيد ، قال : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة ، فقال : (اربطوا على أوساطكم بأزركم) فربطنا ومشينا خلفه « الهرولة » .

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلى ركعتين فى أول النهار يوم السفر بكرة ، كما ذكرنا ، يودع البقعة بالركعتين ، ويقدم الخف ، وينفضه ، ويشمر الكم اليمنى ، ثم اليسرى ، ثم يأخذ « الميانبند » الذى يشد به وسطه ، ويأخذ خريطة[2] المداس وينفضها ، ويأتى الموضع الذى يريد أن يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين ويحك نعل أحد المداسين بالآخر ، ويأخذ المداس باليسار ، والخريطة باليمين . ويضع المداس فى الخريطة أعقابها إلى أسفل ويشد رأس الخريطة ، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر ، ويضعه خلف ظهره ، ثم يقعد على السجادة ، ويقدم الخف بيساره وينفضه ، ويبتدئ باليمنى فيلبس ، ولايدع شيئاً من الران[3] أو المنطقة[4] يقع على الأرض ، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذى يخرج منه ، ويودع الحاضرين ، فإذا

(١) البخارى عن جابر (باب علامات النبوة فى الإسلام) بنحوه .

(٢) وعاء من جلد .

(٣) الران : الخف .

(٤) المنطقة (بكسر الميم) : الحزام الذى يلف على الوسط ويتمنطق به .

أخذ بعض الإخوان راويته[1] إلى خارج الرباط لا يمنعه ، وهكذا العصا ، والإبريق ، ويودع من شيعه ، ثم يشد الراوية ، برفع يده اليمنى ، ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن ، ويشد الراوية على الجانب الأيسر ، ويكون كتفه الأيمن خالياً ، وعقدة الراوية من الجانب الأيمن .

فإذا وصل فى طريقه إلى موضع شريف ، أو استقبله جمع من الإخوان ، أو شيخ من الطائفة يحل الراوية ويحملها ويستقبلهم ، ويسلم عليهم .

ثم إذا جاوزه يشد الراوية ، وإذا دنا من منزل - رباطاً كان أو غيره - يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر .

وهكذا العصا ، والإبريق ، يمسكه بيساره .

وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل ، ولا يتعهدها أكثر فقراء العراق والشام والمغرب .

ويجرى بين الفقراء مشاحة[2] فى رعايتها ، فمن لا يتعهدها يقول : هذه رسوم لا تلزم ، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق .

ومن يتعهدها يقول : هذه آداب وضعها المتقدمون .

وإذا رأوا من يخل بها أو بشىء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ، ويقال : هذا ليس بصوفى !!

(١) الراوية فى الأصل الدابة التى يحمل عليها الماء . والمراد بالراوية هنا = الإناء الذى يوضع فيه الماء للشرب منه فى السفر

(٢) المشاحة ـــ الجدال .

وكلا الطائفتين فى الإنكار يتعدّون الواجب .

والصحيح فى ذلك أن من يتعاهدها لا يُنكَر عليه ، فليس بمنكر فى الشرع ، وهو أدب حسن .

ومن لم يلتزم بذلك ، فلا ينكر عليه ؛ فليس بواجب فى الشرع ، ولا مندوب إليه .

وكثير من فقراء خراسان ، والجبل ، يبالغ فى رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط .

وكثيراً ما يُخلّ بها فقراء العراق ، والشام ، والمغاربة إلى حدّ يخرج إلى التفريط !!

والأليق أنّ ما ينكره الشرع ينكر ، ومالا ينكره لا ينكر ، ويحمل لتصاريف الإخوان أعذارٌ ما لم يكن فيها منكر ، أو إخلال بمندوب إليه ، والله الموفق .

الباب الثامن عشر

فى القدوم من السفر ، ودخول الرباط

والأدب فيه

ينبغى للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام ، كما يستعيذ به من وعثاء[1] السفر .

ومن الدعاء المأثور : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد »[2] .

وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها يُشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات ، ويقرأ من القرآن ماتيسّر ، ويجعله هدية للأحياء والأموات ، وَيُكبّر ؛ فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل[3] من غزو ، أو حج ، يكبّر على كلّ شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير آيبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[4] .

ويقول إذا رأى البلد : « اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً » .

ولو اغتسل كان أحسن ؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اغتسل لدخول مكّة .

---

(١) وعثاء : مشقة .
(٢) مسلم بنحوه .
(٣) قفل : رجع .
(٤) متفق عليه بنحوه .

وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا رجع من طلب الأحزاب ، ونزل المدينة ، نزع لامته[1] ، واغتسل ، واستحم ، وإلاّ فليجدد الوضوء ، وينظف ، ويتطيب ، ويستعد لقاء الإخوان بذلك وينوى التبرّك بمن هنالك من الأحياء والأموات ويزورهم .

روى أبو هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خرج رجل يزور أخاً له فى الله ، فأرصد[2] الله بمدرجته[3] ملكاً وقال : أين تريد ؟ قال أزور فلاناً . قال : لقرابة ؟ قال : لا ، قال : لنعمة له عندك تشكرها ؟ قال : لا ، قال : فيم تزوره ؟ قال : إنى أحبه فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه)[4] .

وروى أبو هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا عاد الرجل أخاه ، أو زاره فى الله قال الله له : طبتَ ، وطاب ممشاك وتبوأتَ من الجنة منزلا)[5] .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ؛ فإنها تذكّر الآخرة)[6] فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك .

فإذا دخل البلد يبتدىء بمسجد من المساجد يصلّى فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع[7] كان أكمل وأفضل .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً ، وصلّى

(١) اللامة : الدرع . (٢) وأرصد : أرسل . (٣) بمدرجته : بطريقه .
(٤) مسلم بنحوه (٥) الترمذى وقال حسن وفيه ، وتبوأت من الجنة منزلا
(٦) ابن ماجه عن ابن مسعود بسند صحيح .
(٧) أى للمسجد الرئيسى للمدينة التى يحل بها .

ركعتين[1] ، ثم دخل البيتَ ، والرباطُ للفقير بمنزلة البيت ، ثم يقصد الرباط ؛ فقصدُه الرباطَ من السُّنَّة ، على ما رويناه عن طلحة ، رضى الله تعالى عنه ، قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، وإن لم يكن له بها عريف نزل الصُّفّة ، فكنتُ ممن نَزَل الصفّة[2] .

فإذا دخل الرباط يمضى إلى الموضع الذى يريد نزع الخفّ فيه ، فيحلّ وسطه وهو قائم ، ثم يُخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار ، ويحلّ رأس الخريطة باليمين ويخرج المِداس باليسار ، ثم يضع المِداس على الأرض ويأخذ « اللياپند » ويلفها فى وسط الخريطة ، ثم ينزع خفه اليسار[3] ، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق ، وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما انطوى ، ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين ، ثم يسلم ، ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة .

وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسنها بعض الصوفية لا يُنكَر على من يتقيد بها ؛ لأنه من استحسان الشيوخ .

ونيّتهم الظاهرة فى ذلك : تقييد المريد فى كلّ شىء بهيئة مخصوصة ليكون أبداً متفقداً لحركاته ، غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب .

ومن أخلّ من الفقراء بشىء من ذلك لا يُنكَر عليه ، ما لم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقيّدوا بكثير من رسوم المتصوفة : وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية فى الأشياء غلطٌ .

(١) متفق عليه من رواية كعب بن مالك .
(٢) الحاكم وقال صحيح وأقره الذهبى .
(٣) فى (ب) أولا ويضع قدمه على ظهر للداس ثم يخرج خفه الأيمن وليس هذا فى (أ)

فلعلّ الفقيرَ يَدخل الرباط غيرَ مُشَمِّر أكمامه وقد كان فى السفر لم يُشمّر الأكمام فَنيتُه أن لا يتعاطى ذلك ، لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعاً .

وكونُ ، الآخر يشمّر الأكمام يقيس ذلك على شدّ الوسط ، وشدُّ الوسط من السنّة ، كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوساطهم فى سفرهم بين المدينة ومكة .

فتشميرُ الأكمام فى معناه من الخفة ، والارتفاق به فى المشى ، فمن كان مشدود الوسط ، مشمّراً يدخل الرباط كذلك . ومن لم يكن فى السفر مشدود الوسط ، أو كان راكباً لم يَشُدَّ وسطَه فمن الصدق أن يدخل الرباط كذلك ولا يتعمد شدّ الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق ؛ فإنه تكلّف ونظرٌ إلى الخلق ؛ ومبنى التصوّف على الصدق وسقوطِ نظر الخلق .

ومما يُنكَر على المتصوّفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدئون بالسلام ، ويقول المنكرِ هذا : خلاف المندوب .

ولا ينبغى للمنكرِ أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه وتركهم السلام يحتمل وجوها :

أحدها : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وقد رُوى عن عبد الله بن عمر قال : مرّ رجل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلّم عليه ، فلم يردّ عليه ، حتى كاد الرجل أن يتوارى ، فضرب بيده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ، ثم ردّ على الرجل السلام ، وقال : (إنه لم يمنعنى أن أردّ عليك السلام إلاّ أنى لم أكن على طهر) .

وروى أنه لم يردّ عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه ، وقال : (إنى كرهت أن

أذكر الله تعالى إلاّ على طُهر)[1] .

وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين فى السفر ، وقد يتفق لأحدهم حَدَثٌ ، فلو سلم المتوضىء وأمسك المحدث ظهر حاله فيترك السلامَ حتى يتوضأ ، ويغسل قدميه من يغسل ستراً للحال على من أحدث ؛ حتى يكون سلامهم على الطهارة وقد يكون بعض المقيمين أيضا على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضاً بالطهارة ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى . وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه فى ذلك .

ومنها : أنه إذا قَدِمَ يعانقه الإخوان ، وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يُكره فيستعد بالوضوء ، والنظافة ثم يسلم ويعانقهم .

ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبةٍ وأحوالٍ ؛ فلو هجم عليهم بالسلام قد يزعج منه مراقبٌ ويتشوّش محافِظٌ ، والسلامُ يتقدّمه استئناسٌ بدخوله واشتغالِه بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد سابقة الاستئناس ، وقال الله تعالى : (حتى تستأنسوا) واستئناسُ كلٍّ قوم على ما يليق بحالهم .

ومنها : أنه لم يدخل على غير بيته ، ولا هو بغريب منهم ، بل هم إخوانه ، والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم فى طريق واحد ، والمنزلُ منزلُه ، والموضعُ موضعُه فيرى البركةَ فى استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما يُمَهِّدُ عُذْرهم فى ترك السلام ينبغى لهم ألا ينكروا على من يدخل ويبتدىء بالسلام ، فكما أن من ترك له نيتُه فالذى ابتدأ به له أيضاً نيته .

وللقوم آداب ورد بها الشرع ، ومنها آداب استحسنها شيوخهم .

---

(١) رواه الترمذى بلفظ : أن رجلا سلم على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبول فلم يرد عليه السلام . وقال حسن صحيح.

فمما ورد به الشرع : ما ذكرنا من : شد الوسط ، والعصا ، والركوة ، والابتداء باليمين فى لبس الخف ، وفى نزعه باليسار .

وروى أبو هريرة ، رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا انتعلتم فابدءوا باليمين ، وإذا خلعتم فابدأوا باليسار ، أو اخلعهما جميعاً أو انعلهما جميعاً) (١).

روى جابر رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلع اليسرى قبل اليمنى ، ويلبس اليمنى قبل اليسرى .

وبَسْطُ السجّادة وردت به السنة ، وقد ذكرناه ، وكونُ أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر (*) مشروع ومسنون وقد ورد فى حديث طويل : (لا يُؤَمُّ الرجلُ فى سلطانه ولا فى أهله ، ولا يُجلس على تكرمته إلاّ بإذنه) (٢) .

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه ، فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : « لمّا قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبى صلى الله عليه وسلم » . وإن قبلهم فلا بأس بذلك. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا قدم جعفر قَبّل بين عينيه ، وقال : (ما أنا بفتح خيبَر أسَرُّ منّى بقدوم جعفر) (٣) . ويصافح إخوانَه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (قُبلة المسلم أخاهُ : المصافحةُ) (٤) .

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى وإذا خلع فليبدأ باليسرى لتكن اليمنى أولهما تنعل وآخرهما تنزع . رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وروى البخارى نحوه .

(*) وفى نسخة : لا يجلس على سجادة الآخر إلا بإذنه فمشروع . . الخ .

(٢) رواه مسلم وفيه : لا يؤمن الرجل الرجل فى سلطانه ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه إلخ .. والتكرمة . ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما

(٣) رواه الطبرانى فى الثلاثة (المعجم الكبير والأوسط والصغير) وفى رجال الكبير أنس بن سلم غير معروف وبقية رجاله ثقات

(٤) الحاملى فى أماليه ومسند الفردوس عن أنس بسند صحيح

وروى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأخاه أينحنى له ؟ قال : لا . قيل : يلزمه ويقبّله ؟ قال : لا . قيل : فيصافحه؟ قال: نعم (١).

ويستحبّ للفقراء المقيمين فى الرباط أن يتلقّوا الفقراء بالترحيب ، روى عكرمة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جئته : (مرحباً بالراكب المهاجر) (٢) مرّتين ، وإن قاموا إليه فلا بأس ، وهو مسنون ، روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قام لجعفر [الطيار] يوم قدومه .

ويستحب للخادم أن يُقدّم له الطعامَ ، روى لقيطُ بنُ صَبْرة قال : « وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نصادفه فى منزله ، وصادفنا عائشة رضى الله تعالى عنها ، فأمرت لنا بالخزيرة (٣) فصنعت لنا ، وأوتينا بقناع فيه تمر ـ والقناع الطبق ـ فأكلنا ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أصبتم شيئاً ؟) قلنا : نعم يا رسول الله .

ويستحبُّ للقادم أن يُقدِّم للفقراء شيئاً لحق القدوم ؛ ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة نحر جَزُوراً (٤). وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر وجهُه من السنة . منع النبى صلى الله عليه وسلم عن طروق الليل (٥) .

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة ، والانكباب على الأذكار والاستغفار ؛ روى جابر عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الترمذى وقال حسن وفيه : فيلتزمه ويقبله .. فيأخذ بيده ويصافحه

(٢) ورواه الطبرانى مرسلا ورجاله رجال الصحيح

(٣) حساء من دقيق ودسم (٤) مايذبح من الغنم أو النوق

(٥) روى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يطرق الرجل أهله ليلا متفق عليه

(إذا قدم أحدكم من سفر فلا يَطْرُقَنّ[*] أهلَه ليلاً) وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يَقْدُم من السفر إلاّ نهاراً فى الضحى ؛ فيستحبون القدوم فى أول النهار ؛ فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويقٌ من ضعف بعضهم فى المشى أو غير ذلك ، فيعذَر الفقيرُ بقيةَ النهار إلى العصر لاحتمال التعويق ؛ فإذا صار العصر يُنْسَبُ إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدوم أوّل النهار ؛ فلذلك يكرهون الدخول بعد العصر . والله أعلم .

فإذا صار العصر يؤخِّر القدومَ إلى الغد ؛ ليكون عاملاً بالنسبة فى القدوم ضحوةً ، وأيضاً فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب أن يصلى القادم ركعتين ؛ فلذلك يكرهون القدومَ بعد صلاة العصر ، وقد يكون من الفقراء القادمين من يكون قليل الدراية[١] بدخول الرباط وبناله دهشة : فمن السنّة التقرّبُ إليه ، والتوددُ ، وطلاقةُ الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة ؛ ففى ذلك فضل كثير .

روى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه ؟ . قال : فأقبل النبى صلى الله عليه وسلم علىّ وترك خُطبته ، ثم أتى بكرسى قوائمه من حديد ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جعل يُعلمنى ما علّمه الله ، ثم أتى خطبته وأتمّ آخرها[٢] .

فأحسن أخلاق الفقراء الرفقُ بالمسلمين ، واحتمال المكروه من المسموع والمرئى وقد يدخل فقيرٌ بعضَ الرُّبُط ويخل بشىء من مراسم المتصوفة فيُنْهَر

(*) أى لا يأتين

(١) وفى نسخة : قليل الدرية (٢) رواه مسلم

ويُخْرَج ، وهذا خطأ كبير !! فقد يكون خَلْق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الترسّم الظاهر ويقصدون الرباط بنيّة خالصة صالحة ، فإذا استُقبِلوا بالمكروه يُخشى أن تتشوّش بواطنُهم من الأذى ، ويَدخل على المنكر عليه ضررٌ فى دينه ودنياه ، فَليُحذَر ذلك ويُنْظر إلى أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق .

وقد صحّ أن أعرابياً دخل المسجد وبال ؛ فأمر النبى صلى الله عليه وسلم حتى أُتى بذنوبٍ[١] من ماء فَصبّ على ذلك الموضع ولم ينهر الأعرابى ، بل رفق به ، وعَرّفه الواجب بالرفق واللين .

والفظاظة ، والتغليظُ ، والتسلّطُ على المسلمين بالقول والفعل من النفس الخبيثة ، وهو ضد حال المتصوّفة ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأساً يُصرف من الموضع على ألطف وجهٍ ، بعد أن يُقدم له طعاماً ويُحسن له الكلام فهذا الذى يليق بسكان الرباط .

وما يعتمده الفقراء من تغميز[٢] القادم خُلُقٌ حسن ، ومعاملة صالحة . وردت به السنة ، روى عمر رضى الله تعالى عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلام له حبشى يُغَمِّزُ ظهره ، فقلت : يا رسول الله ، ما شأنك ؟ قال : (إن الناقة اقتحمت بى) فقد يحسن الرضا بذلك ممن يُغَمِّز فى وقت تعبه وقدومه من السفر ، فأما مَن يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته فلا يليق بحال الفقراء — وإن كان ذلك مباحاً فى الشرع .

(١) الذنوب : (بفتح الذال) الدلو والحديث رواه البخارى .

(٢) غمزه غمزا وتغميزا : جسه وكبسه باليد والحديث رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار ورجاله رجال الصحيح ما عدا عبد الله بن زيد بن أسلم فقد وثقه البعض كأبى حاتم .

وكان بعض الفقراء إذا استرسل فى التغميز واستلذه واستدعاه يحتلم ؛ فيرى ذلك الاحتلامَ عقوبةَ استرساله فى التغميز ، ولأرباب العزائم أمورٌ لا يسعهم فيها الركونُ إلى الرُّخَص .

ومن آداب الفقير إذا استقرَّ وقعد بعد قدومه أن لا يبتدىء بالكلام دون أن يُسأل ، ويُستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يَقْصد زيارةً أو مشهداً أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعثاء السفر ويعود باطنه إلى هيئته ؛ فقد يكون ـ بالسفر وعوارضه ـ تَغَيَّر باطنه وتكدَّر حتى تجتمع فى الثلاثة أيام همته وينصلح باطنه ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير الباطن ، فإن باطنه إذا كان متنوِّراً يستوفى حظَّه من الخير من كلِّ شيخ وأخٍ يزوره ، وقد كنت أسمع شيخنا يوصى الأصحاب ، ويقول : لا تكلَّموا أهل هذا الطريق إلا فى أصفى أوقاتكم . وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونورَ السمع على قدر نور القلب ، فإذا دخل على شيخ ، أو أخٍ ، وزاره ينبغى أن يستأذنه إذا أراد الانصراف .

فقد روى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقومنَّ حتى يستأذنه)(١) وإن نوى أن يقيم أياما وفى وقته سَعَةٌ ولنفسه إلى البطالةِ وتركِ العمل تشوّفٌ(٢) أن يطالب خدمةً يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه فيكتفى بالعبادة شُغلاً ، لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة .

ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المتقدِّم فيه ، ولا يفعل شيئاً دون أن يأخذ رأيه فيه . هذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الرُّبُط ، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقاً وتأديباً .

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عمر بسند ضعيف .
(٢) شفت الشيء : جلوته . وتشوفت إلى الشيء أى : تطلعت .

الباب التاسع عشر
فى حال الصوفى المتسبب

اختلف أحوال الصوفية فى الوقوف مع الأسباب ، والإعراض عن الأسباب فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ، ومنهم من كان يسأل فى وقت فاقته .

ولهم فى كلِّ ذلك أدب أو حَدّ يراعونه ولا يتعدَّونه ، وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى فى الذى يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا ينبغى للفقير أن يسأل مهما أمكن ، فقد حثَّ النبى عليه الصلاة والسلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب فأما الترغيب فما روى ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من يضمن لى واحدة أتكفّل له بالجنة . قال ثوبان : قلت : أنا . قال : (لا تسأل الناس شيئاً) فكان ثوبان تسقط عِلاقة(١) سوطه فلا يأمر أحداً يناوله وينزل هو ويأخذها .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خيرٌ له من يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى)(٢) .

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل الحافظ المقدسى ، قال :

(١) العلاقة (بكسر العين) ما يعلق فيه السوط والحديث روى أحمد مثله بسند حسن عن أبى ذر وفى مسلم أن سبعة بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أشياء منها عدم السؤال فكان بعضهم يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه وأبو داود عن ثوبان
(٢) متفق عليه .

أخبرنى والدى ، قال : أخبرنا أبو محمد الصيرفى ببغداد ، قال : أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا على بن الجعد ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبى حمزة ، قال : سمعت هلال بن حصين ، قال : أتيتُ المدينة فنزلت دار أبى سعيد فضمنى وإياه المجلسُ ، فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصّب على بطنه حجراً من الجوع ، فقالت لى امرأتى : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أتاه فلان فأعطاه ، وأتاه فلان فأعطاه ، قال : فأتيته وقلت : التمس شيئاً . فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يخطب ويقول : (من يستعف يُعِفَّهُ الله ، ومن يستغن يُغنه الله ، ومن سألنا شيئاً فوجدناه أعطيناه وواسيناه ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا) .

قال : فرجعت وما سألتُه . فرزقنى الله تعالى : حتى ما أعلمُ أهلَ بيتٍ من الأنصار أكثر أموالاً منه[1] .

وأما من حيث الترهيب والتحذير ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ، قال : (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم)[2]

وروى أبو هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس المسكين الذى تردّه الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان ، ولكن الذى لا يسأل الناس ولا يفطن بمكانه فيعطى)[3] .

هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصوف المحقق لا يسأل الناس شيئاً ، ومنهم

(١) الحديث أصله فى الصحيح وله شواهد كثيرة .
(٢) متفق عليه والمزعة القطعة
(٣) متفق عليه بنحوه .

من يلزم الأدب يؤدّيه إلى حال يستحى من الله تعالى أن يسأله شيئاً من أمر الدنيا حتى إذا همّت النفس بالسؤال تردّه الهيبة ، ويرى الإقدام على السؤال جراءة فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال ؛ كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاءه جبريل ، وهو فى الهواء ، قبل أن يصل إلى النار فقال : هل لك من حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا فقال له : فسل ربّك . فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبوديةً ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القِسْم من غير سؤال مخلوق .

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول: إذا وجد الفقيرُ نفسَه مطالبةً بشىء ، لا تخلو تلك المطالبة ، إما أن تكون لرزقٍ يريد الله أن يسوقه إليه ، فتنبه النفس له ، فقد تتطلع نفوسُ بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث ، وكأنها تُخبر مما يكون ، وإما أن يكون ذلك عقوبةً لذنب وُجد منه .

فإذا وجد الفقير ذلك وألحت النفس بالمطالبة فليتم ويسبغُ الوضوء ، ويصلى ركعتين ، ويقول « يا رب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فأستغفرك وأتوب ، وإن كانت لرزق قدّرته لى فعجل وصوله إلىّ » فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقَه ، وإلاَّ فيذْهبِ المطالبة عن باطنه .

فشأن الفقير أن يُنزِل حوائجه بالحق ؛ فإمّا أن يرزقه الشىء أو الصبرَ عليه أو يذهب ذلك عن قلبه .

فلله ، سبحانه وتعالى ، أبواب من طريق الحكمة ، وأبواب عن طريق القدرة ، فإن فتح باباً من طريق الحكمة وإلاَّ فيفتح باباً من طريق القدرة ويأتيه الشىء بخرق العادة كما يأتى مريم عليها السلام : (كلما دخل عليها زكريا المحراب

وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله »(١)

حكى عن بعض الفقراء ، قال : جعت ذات يوم وكان حالى أن لا أسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازاً متعرضاً لعل الله يفتح لى على يد بعض عباده شيئاً فلم يقدّر ، فنمت جائعاً فأتانى آتٍ فى منامى ، فقال لى : إذهب إلى موضع كذا ـ وعيّن الموضع ـ فثمّ خرقة زرقاء فيها قطيعات(٢) أخرجها فى مصالحك

فمن تجرّد عن المخلوقين وتفرّد بالله فقد تفرّد بغنىّ قادر لا يعجزه شىء ، يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء ، وأولى من أسأل نفسه أن يسألها الصبرَ الجميل ، فإنّ الصادق تجيبه نفسه .

وحكى شيخنا ، رحمه الله تعالى ، أن ولده جاء إليه ذات يوم ، وقال له : أريد حبّة . قال : فقلت له : ما تفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشتهيها بالحبة فقلت له : ما تحضرنى الحبة ، ثم قال ، فقال : عن إذنك أذهب وأستقرض الحبة ، قال : قلت : نعم استقرضها من نفسك فهى أولى مَن أقرض(٣) ، وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إذا شئتَ أن تستقرض من المالَ منفقاً
على شهوات النفس فى زمن العسر
فسل نفسك الإنفاقَ من كنز صبرها
عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر
فإن فعلتْ كنتَ الغنىَّ وإن أبتْ
فكل منوع(٤) بعدها واسع العذر

(١) آية رقم ٣٧ من سورة آل عمران .

(٢) جمع قطيعة ، والقطيعة اسم لما يقطع ويعطى مال وغيره .

(٣) وفى نسخة : من أقرضت . (٤) أى : مانع مبالغ فى المنع .

فإذا استنفذ الفقير الجهد من نفسه ، وأشرف على الضعف ، وتحققت الضرورة ، وسأل مولاه ولم يُقدّر له بشىء ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله ، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل ، فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم ؛ نقل عن أبى سعيد الخرّاز أنه كان يمدّ يده عند الفاقة ويقول : ثَمّ شىء لله .

ونقل عن أبى جعفر الحداد ، وكان أستاذاً للجنيد ، أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن أدهم(١) أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدّة وكان يُفطر فى كلّ ثلاث ليال ليلةً ، وليلةَ إفطاره يطلب من الأبواب . ونقل عن سفيان الثورى(٢) أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل فى الطريق . وقال : كنت أذكر لهم حديثاً فى الضيافة فيقدّم لى الطعام فأتناول حاجتى وأترك ما يبقى .

(١) هو : ابراهيم بن أدهم بن منصور التميمى : زاهد مشهور ، أخباره كثيرة ، وفيها اضطراب فى نسبه ومسكنه ووفاته ، ولعل الراجح أنه مات ببلاد الروم سنة : ١٦١ هـ ، ٧٨٨ م وكان من أكثر دعائه : (اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك) وقيل له : إن اللحم قد غلا ! ! فقال : أرخصوه أى : لا تشتروه . وأنشد فى ذلك : وإذا غلا شىء على تركته : فيكون أرخص ما يكون إذا غلا [انظر ترجمته فى الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥١] .

(٢) هو . أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى . أمير المؤمنين فى الحديث . وكان عالماً عابداً زاهداً ولد بالكوفة سنة ٩٧ هـ [٧١٦ م] عرض عليه المنصور العباسى أن يتولى الحكم فأبى . خرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ، ثم مات بالبصرة سنة ١٦١ هـ [٧٧٨ م] . له من الكتب : الجامع الكبير ، والجامع الصغير وكلاهما فى الحديث . ولابن جوزى كتاب فى مناقبه وانظر ابن النديم ج ١ ص ٢٢٥ والأعلام للزركلى ج١ ص ٣٧٤ . والرسالة القشيرية ج١ هامش ص٥١] وكان قد=

وقد ورد : (من جاع ولم يسأل فمات دخل النار) .

ومَن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا ، بل يسأل بالعلم ، ويُمسك من السؤال بالعلم .

وحكى عن بعض مشايخنا عن شخص كان مصراً على المعاصى ، ثم انتبه ، وتاب ، وحسنت توبته ، وصار له حال مع الله تعالى قال : عزمت أن أحجَّ مع القافلة ونويت أن لا أسأل أحداً شيئا وأكتفى بعلم الله بحالى ، قال : فبقيت أياماً فى الطريق فتح الله علىَّ بالماء والزاد فى وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله علىَّ بشىء ، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة ، فضعفت عن المشى وبقيت أتأخر عن القافلة قليلاً قليلاً حتى مرّت القافلة ، فقلت فى نفسى : هذا الآن منّى إلقاء النفس إلى التهلكة وقد منع الله من ذلك ، وهذه مسألة الاضطرار : أسأل ؛ فلما هممتُ بالسؤال انبعث من باطنى إنكار لهذه الحال وقلت : عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها . وهان علىَّ الموت دون نقض عزيمتى ، فقصدتُ شجرة وقعدت فى ظلّها وطرحت رأسى استطراحاً للموت ، وذهبت القافلة ، فبينا أنا كذلك إذ جاءنى شاب متقلد بسيف وحرّكنى ، فقمت وفى يده إداوة[1] فيها ماء فقال لى : اشرب ، فشربت ، ثم قدّم لى طعاماً ، وقال : كل ، فأكلت . ثم قال لى : أتريد القافلة ؟ فقلت : مَن لى بالقافلة وقد عَبَرت ! ! فقال لى : قم ، وأخذ بيدى ومشى معى خطوات ، ثم قال لى : اجلس ، فالقافلة تجىء إليك الساعة ، فجلست ساعة ، فإذا أنا بالقافلة ورائى متوجهة إلىّ . هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق .

= امتنع من الجلوس للعلم فقيل له فى ذلك ، فقال : والله لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه الله لأتيتهم فى بيوتهم وعلمتهم ، ولـكن إنما يريدون به للمباهاة وقولهم حدثنا سفيان) . وكان يقول : إذا فسد العلماء فمن بقى فى الدنيا يصلحهم ؟ ثم ينشد :

يا معشر العلماء يا ملح البلد ... من يصلح الملح إذا الملح فسد

(١) قربة

وذكر الشيخ أبو طالب المكىّ ، رحمه الله ، أن بعض الصوفية أوَّلَ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أحلّ ما أكل المرء المؤمن من كسب يده)[1] بأنه المسألة عند الفاقة ! !

وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفى . وذكر أن جعفر الخُلدى كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لى ـ والله أعلم ـ أن الشيخ الصوفىّ لم يُرِد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعَها إلى الله تعالى عند الحاجة ؛ فهو مِن أحلّ ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله وساق إليه رزقه . وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : (ربّ إنّى لما أنزلت إلىّ من خير فقير)[2] قال عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : قال ذلك وإن خُضْرة البقل تتراءى فى بطنه من الهزال ! !

وقال محمد الباقر ، رحمه الله ، قالها ، وإنه محتاج إلى شِق تمرة .

وروى عن مُطَرِّف أنه قال : أما والله لو كان عند نبىّ الله[3] شىء ما اتّبع المرأة ، ولـكن حمله على ذلك الجُهد .

وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى عن النصراباذى[4] أنه قال فى قوله تعالى :

(١) معناه صحيح رواه البخارى وغيره (٢) آية ٢٤ من سورة القصص

(٣) أى موسى (٤) هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد ، نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . والنصراباذى : نسبة إلى « نصراباذ » محلة من محال نيسابور ، ومن كلامه : أنت بين نسبتين : نسبة إلى الحق ونسبة إلى آدم ، وإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ، وقال (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل قال الله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا) ومن كلامه أيضا : « الاشياء أدلة منه ، ولا دليل عليه سواه » [انظر فى ترجمته ص ١٨١ ج ١ من الرسالة القشيرية]

(إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) لم يسأل الكليمُ الخلقَ ، وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل غذاء النفس ، وإنما أراد سكون القلب .

وقال أبو سعيد الخرّاز : « الخلق مترددون بين ما لهم وبين ما إليهم : من نظر إلى ماله تكلّم بلسان الفقر ، ومن شاهد ما إليه تكلّم بلسان الخُيلاء والفخر ، ألاَ ترى حال الكليم عليه السلام لمّا شاهد خواصّ ما خاطبه به الحقّ كيف قال : أرنى أنظر إليك . ولمّا نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إنّى لما أنزلت إلىّ من خير فقير .

وقال ابن عطاء : نظر من العبودية إلى الربوبية فخشع وخضع ، وتكلّم بلسان الافتقار بما ورد على سرّه من الأنوار ، وافتقارُه افتقارُ العبد إلى مولاه فى جميع أحواله ، لا افتقار سؤال وطلب .

وقال الحسين : « فقيرٌ » : لما خصصتنى به من علم اليقين أن تُرقّينى إلى عين اليقين وحقّه .

ووقع لى - والله أعلم - فى قوله : (لما أنزلت إلىّ من خير فقير) أنّ الإنزال مُشعرٌ ببُعد الرتبة عن حقيقة القرب ، فيكون الإنزال عين الفقر ، فما قَنِع بالمُنزَل ، وأراد قرب المُنزِل .

ومن صح فقره ، ففقره فى أمر آخرته كفقره فى أمر دنياه ، ورجوعُه إليه فى الدارين ، وإيّاه يسأل حوائج المنزِلين ، وتتساوى عنده الحاجتان ، فماله مع غير الله شُغل فى الدارين .

الباب العشرون

فى ذكر ما يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفىّ بالله ، وكَمُل زهدُه لكمال تقواه ، يَحكم الوقت عليه بترك التسبب ، وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فينزل عن باطنه الاهتمامُ بالأقسام[1] .

وقد يكون مُقدمةُ هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كلّ فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسيرٌ من ذنب بحسب حاله ، أو الذنب مطلقاً ، ممّا هو منهى عنه فى الشرع ، يجد غِبَّ ذلك فى وقته أو يومه ، كان يقول بعضهم : « إنّى لأعرف ذنبى فى سوء خلق غلامى » . وقيل إن بعض الصوفية قرض الفأر خُفّه ، فلما رآه تألم وقال :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بَنُو اللقيطة من ذهل بن شيبانا[*]

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مُقابلةٌ له على شىء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنةً للتعريفات الإلٓهية حتى يَتَمَحّصَ بصدق المحاسبة

---

(١) الأقسام : الأرزاق .

(*) قال هذا البيت الشاعر الجاهلى « لقيط بن يعمر الإيادى » قال يذم قومه عندما أغارت بنو شيبان على إبله . فاستنجد قومه فلم ينجدوه - وكان فيهم ضعف ، فقال فى هجائهم قصيدة مطلعها ذلك البيت السابق ، ثم قال بعده :

إذن لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

(انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٣٢١) .

وصفاء الإرادة من تضييع حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت ، وبتجرد له فعل الله ، وتنمحى عنده أفعال غير الله ، فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقاً ، وحالاً ، لا علماً وإيماناً .

ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة ، وبوقفه على صريح التوحيد ، وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكى عن بعضهم : أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق ، فخرج إلى بعض الصحارى ، فرأى « قنبرة[1] » عمياء عرجاء ضعيفة ، فوقف متعجباً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض ، وخرجت « سكرجتان[2] » فى أحدهما سمسم نقى ، وفى الأخرى ماء صاف ، فأكلت من السمسم وشربت من الماء ، ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان قال : فلما رأيت ذلك سقط عن قلبى الاهتمام بالرزق .

فإذا أوقف الحقُّ عبدَه فى هذا المقام يزيل من باطنه الاهتمام بالأقسام ، ويرى الدخول فى التسبب . والتكسُّب بالسؤال وغيره رتبة العوام ، ويصير مسلوب الاختيار غير متطلّع إلى الأغيار ، ناظراً إلى فعل الله تعالى ، منتظراً لأمر الله ، فتساق إليه الأقسام ويُفتح عليه باب الإنعام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وتَرصُّده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشَفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال[3] ، ومن ذلك يترقى إلى تجلّى الذات .

والإشارةُ فى هذه التجليات إلى رتب فى اليقين ومقامات فى التوحيد شىء فوق شىء ، وشىء أصفى من شىء .

---

(١) القنبرة : نوع من العصافير (٢) السكرجة : التى يوضع فيها الأكل .

(٣) وفى بعض النسخ زيادة بعد قوله « بطريق الأفعال » : (والتجلى بطريق الأفعال أول رتبة فى القرب ومنه يرقى إلى التجلى بطريق الصفات ومن ذلك يرقى إلى تجلى الذات) .

فالتجلى بطريق الأفعال يُحدث صفو الرضا والتسليم ،
والتجلى بطريق الصفات يُكسب الهيبة والأنس ،
والتجلىّ بالذات يُكسب الفناء والبقاء .

وقد يُسمى تركُ الاختيار والوقوفُ مع فعل الله فناء يعلون به فناء الإرادة والهوى . والإرادةُ ألطفُ أقسام الهوى وهذا الفناء هو الفناء الظاهر . فأما الفناء الباطن ، وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور المشاهدة الشهود ، يكون فى تجلى الذات وهو أكمل أقسام اليقين فى الدنيا . فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا فى الآخرة وهو المقام الذى حظى به رسول صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ، ومنع منه موسى بـ « لن ترانى » .

فليعلم أن قولنا فى « التجلى » إشارةٌ إلى رتب الحظّ من اليقين ورؤية البصيرة ؛ فإذا وصل العبد إلى مبادىء أقسام التجلى ، وهو مطالعة الفعل الإلهى مجرداً عن فعل سوى الله - يكون تناوله الأقسام من الفتوح .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من وجّه إليه شىء من هذا الرزق من غير مسألة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به فى رزقه ، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه)[1] .

وفى هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إذا أخذ ؛ فمنهم من يخرجه إلى المحتاج ، ومنهم من يقف فى الإخراج أيضاً حتى يرد عليه من الله علمٌ خاصٌ ؛ ليكون أخذه بالحق ، وإخراجُه بالحق .

---

(١) أحمد بإسناد جيد قوى والطبرانى والبيهقى

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر، قال: أخبرنا والدى الحافظ أبو الفضل المقدسى قال: أخبرنا أبو اسحق بن سعيد الحبال ، قال: أخبرنا محمد بن عبدالرحمن بن سعيد ، قال: أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو ، قال : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى ، قال: حدثنا ابن وهب ، قال: حدثنا عمرو بن الحارث ، عن ابن شهاب ، عن السائب بن يزيد ، عن حويطب بن عبدالعزّى ، عن عبيدالله السعدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول له : أعطه يا رسول الله من هو أفقر إليه منى ، فقال رسول صلى الله عليه وسلم : (خذه فتموله ، أو تصدق به ، وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشرف ولا سائل فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك)(1) قال سالم : فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يردُّ شيئاً أعطيه .

درّج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج من تدبير النفس إلى حُسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبدالله التسترى عن عِلم الحال فقال : هو ترك التدبير ، ولو كان هذا فى واحدٍ لكان من أوتاد الأرض .

وروى زيد بن خالد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شىء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه) .

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى فى قبول ماساق الحق إليه آمنٌ مايُخشى عليه إنما يخشى على من يَرُدّ لأن من ردّ لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد ، ففى أخذه إسقاطُ نظر الخلق تحققاً بالصدق والإخلاص، وفى إخراجه إلى

(1) البخارى .

الغير إثبات حقيقة الزهد عليه ، فلا يزال فى كلا الحالين زاهداً يراه الغير بعين الرغبة ؛ لقلة العلم بحاله . وفى هذا المقام يتحقق بالزهد فى الزهد .

ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ، ومنهم من لايعلم دخول الفتوح عليه ؛ فمنهم من لايتناول من الفتوح إلا إذا تقدّمه علمٌ بتعريف من الله إياه . ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدّم العلم حيث تجرد له الفعل . ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم ؛ لتمام صحبته مع الله ، وانسلاخه من إرادته وعلم حاله فى ترك الاختيار(1) .

ومنهم من يدخل الفتوحُ عليه لا بتقدمة العلم ولا برؤية تجرد الفعل من الله ولكن يرزق شِرباً من المحبة بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شِربُه هذا بتغيرِ معهود النعمة ، وهذا حالٌ ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين ، لأنه علة فى المحبة ووليجة(2) فى الصدق عند الصديقين .

وقد ينتظر صاحبُ الفتوح العلمَ فى الإخراج أيضا ، كما ينتظر فى الأخذ ؛ لأن النفس تظهر فى الإخراج كما تظهر فى الأخذ وأتمُّ من هذا مَن يكون فى إخراجه مختاراً، وفى أخذه مختاراً، بعد تحققه بصحة التصرف؛ فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس ببقية هوى موجودٍ ، فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج إلى علم متجددٍ ويُخرج كذلك وهذه حال من تحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه : (فإذا أحببته كنت له سمعا وبصراً ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى ينطق . . الحديث)(3) .

(1) أحمد بإسناد صحيح وابن حبان والحاكم .
(2) وليجه الرجل = خاصته وبطانته .
(3) رواه البخارى بنحوه فى حديث طويل أوله : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . .

فلما صحّ تمرّفه صحّ تصرّفه ، وهذا أعز فى الأحوال من الكبريت الأحمر.

وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى ، رحمه الله ، يحكى عن الشيخ حماد الدباس ، أنه كان يقول : أنا لا آكل إلاّ من طعام الفَضْل ؛ فكان يرى الشخص فى المنام أنْ أحمل إليه شيئاً وقد كان يعين للرائى فى المنام أن احمل إلى حماد . . كذا ، وكذا .

وقيل : إنه بقى زمانا يرى هو فى واقعته ، أو منامه أنك قد أُحِلْتَ على فلان بكذا وكذا . .

وحُكى عنه : أنه كان يقول : كل جسم تربّى بطعام الفضل لا يتسلّط عليه البلاء . ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق . ومن كانت هذه حالته فهو غَنِىّ بالله

قال الواسطى : الافتقارُ إلى الله أعلى درجة المريدين والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين

وقال أبو سعيد الخرّاز : العارف تدبيرُه فَنِى فى تدبير الحق ؛ فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظرٌ إلى الله .

وأحسنُ ما حكى فى هذا : أن بعضهم رأى النورىّ يمد يده ويسألُ الناس ، قال : فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له ! ! فأتيت الجنيد ، وأخبرته ، فقال لى : لا يعظم هذا عليك ؛ فإن النورى لم يسأل الناسَ إلاّ ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرّه .

وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم : اليد العليا يد الآخذ ؛ لأنه يعطى الثواب ، قال : ثم قال الجنيد : هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال : أحملها إليه ، فقلت فى نفسى : إنما يزن[١] ليعرف

(١) وفى نسخة (إنما يوزن شىء ليعرف مقداره فكيف خلط ... الخ).

مقدارها فكيف خلط المجهول بالموزون ، وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله ، فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان . فوزن مائة درهم وقال : ردّها ، وقل له أنا لا أقبل منك شيئاً ، وأخذ مازاد على المائة ، قال : فزاد تعجبى فسألته عن ذلك ، فقال : الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ! وزن المائة لنفسه طلباً للثواب ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله فأخذتُ ما كان لله ورددت ماجعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد ، فبكى وقال : أخذ ماله وردّ مالنا » .

ومن لطائف ماسمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون إلى شىء من المعلوم ، فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى ، ومايفتح الله تعالى لكم ائتونى به . ففعلوا ، ثم جاءه من بينهم شخص يعرف بـ « إسماعيل البطائحى » ومعه كاغد[١] عليه ثلاثون دائرة ، وقال : هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى . فأخذ الشيخُ الكاغد فلم يسكن إلا ساعة ، فإذا بشخص دخل ومعه ذهب ، فقدّمه بين يدى الشيخ ، ففتح القرطاس ، فإذا هو ثلاثون صحيحة ، فترك الشيخ كل صحيح على دائرة وقال : هذا فتوح الشيخ إسماعيل ، أو كلاماً هذا معناه .

وسمعت أن الشيخ عبدالقادر ـ رحمه الله تعالى ـ بعث إلى شخص وقال : لفلان عندك طعامٌ وذهبٌ ، ائتنى من ذلك بكذا ذهبا وكذا طعاماً ، فقال الرجل : كيف أتصرف فى وديعة عندى ! ! ولو استفتيتك ما أفتيتنى بالتصرف ! ! فألزمه الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب فى بعض

(١) الكاغد : القرطاس .

نواحى العراق : أن احمل إلى الشيخ عبدالقادر كذا، وكذا .. ، وهو القدر الذى عينه الشيخ عبدالقادر ، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال : ظننتَ بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم ؛ فالعبد إذا صحّ مع الله تعالى ، وأفنى فعله وهواه متطلبا رضا الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ، ويجعل الغنى فى قلبه ، ويفتح عليه أبواب الرفق .

وكلُّ الهموم المتسلطة على بعض الفقراء ؛ لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمامَ برعاية حقائق العبودية فعلى قدر ما خلت من الهم بالله تعالى ابتليت بهم الدنيا ، ولو امتلأت من همّ الله تعالى ما عُذِّبت بهموم الدنيا ، وقنعت ووفقت وأرفقت ، روى أن عون بن عبدالله المسعودى كان له ثلاثمائة وستون صديقاً ، وكان يكون عند كل واحد يوماً .

وآخر كان له ثلاثون صديقاً يكون عند كل واحد يوماً ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد ؛ فكان إخوانُهم معلومهم ، والمعلومُ إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامِل توحيدُه يكون نعمةً هنيئة .

جاء رجل إلى الشيخ أبى السعود، رحمه الله تعالى ، وكان من أرباب الأحوال السنية ، والواقفين فى الأشياء مع فعل الله تعالى متمكناً من حاله تاركاً لاختياره ولعله سبق كثيراً من المتقدمين فى تحقيق « ترك الاختيار » ، رأينا منه وشاهدنا أحوالا صحيحة عن قوة وتمكين ، فقال له الرجل : أريد أن أعيّن لك كلّ يوم شيئاً من الخبز أحمله إليك ، ولكنى قلت : الصوفية يقولون المعلوم شؤم . قال الشيخ نحن مانقول المعلوم شؤم ، فإن الحقّ يُصَفِّى لنا وفعله نرى، فكل مايقسم[1] لنا نراه مباركا ، ولا نراه شؤماً .

---

(١) وفى نسخة : يقيم

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أنبأنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى إجازة قال : أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمى ، قال : سمعت أبا بكر بن شاذان ، قال : سمعت أبا بكر الكتانى ، قال : كنت أنا وعمرو المكىّ ، وعياش بن المهدى . نصطحب ثلاثين سنة ، نصلىّ الغداة على طهر العصر ، وكنا قعوداً بمكة على التجريد مالنا على الأرض مايساوى فلسا ، وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعةً وخمسةً ، ولا نسأل أحداً فإن ظهر لنا شىء ، وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكلناه ، وإلاّ طوينا ، فإذا اشتدّ بنا الأمر وخفنا على أنفسنا النقصانُ فى الفرائض قصدنا أبا سعيد الخرّاز ، فاتخذ لنا ألوانا من الطعام ، ولا نقصد غيره ، ولا ننبسط إلاّ إليه ، لما نعرف من تقواه وورعه .

وقيل لأبى يزيد : مانراك تشتغل بكسب فمن أين معاشك ؟

فقال : مولاى يرزق الكلب والخنزير ، تراه لايرزق أبا يزيد ! !

قال السلمى : سمعت أبا عبدالله الرازى يقول : سمعت مظفراً القرميسينى يقول : « الفقير : الذى لا يكون له إلى الله حاجةٌ » .

وقيل لبعضهم : ما الفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ، ومحوها من كل أحد سوى الربّ .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه ، لا ممن تصل إليه على يده .

ومَن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته .

أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى ، قال : أخبرنا عصام أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال : أخبرنا أبوبكر أحمد بن خلف ابن الشيرازى ، قال : أخبرنا أبو عبدالرحمن السلمى ، قال : سمعت أحمد بن على

ابن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الدارانى كان يقول : « آخر أقدام الزاهدين أوّل أقدام المتوكلين » .

روى أن بعض العارفين زَهد ، فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار ، وقال : لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتينى رزقى . فأخذ يسبح فأقام فى سفح جبل سبعاً ،لم يأته شىء حتى كاد أن يتلف . فقال : يارب إن أحييتنى فأتنى برزقى الذى قسمت لى ، وإلاّ فاقبضنى إليك ، فألهمه الله تعالى فى قلبه : (وعزتى، وجلالى ، لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس) ، فدخل المدينة وأقام بين ظهرانى الناس ، فجاءه هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فأكل وشرب فأوجس فى نفسه من ذلك ، فسمع هاتفا : أردتَ أن تُبطل حكمته بزهدك فى الدنيا ، أما علمت أنه أن يرزق العبادَ بأيدى العباد أحبُّ إليه من أن يرزقهم بأيدى القدرة ، فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدى الآدميين وأيدى الملائكة ، واستوى عنده يدّ القدرة والحكمة ، وطلب القفار[1] ، والتوصل إلى قطع الأسباب : والإرتهان برؤية الأسباب، وإذا صحّ التوحيد تلاشت الأسباب فى عين الإنسان .

أخبرنا شيخنا قال : أخبرنا أبو حفص عمر ، قال : أخبرنا أحمد بن خلف ، قال : أخبرنا أبو عبدالرحمن ، قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبرى ، قال : سمعت أحمد بن محمد بن اليسرى يقول : سمعت محمداً الإسكاف ، يقول : سمعت يحيى بن معاذ الرازى يقول: « من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين » ، قال بعض المنقطعين : كنت ذا صنعة جليلة ، فأريد منّى تركها ، فحاك فى صدرى : من أين المعاش ؟! فهتف بى هاتف لا أراك تنقطع إلىّ، وتتهمنى فى رزقك على أن أخدمك وليًا من أوليائى أو أسخر لك منافقا من أعدائى.

(1) القفر مفازة وصحراء لاماء فيها ولا نبات والجمع قفار .

فلما صحّ حال الصوفى ، وانقطعت أطماعه ، وسكنت عن كلّ تشوّف وتطلع نفسه خدمته الدنيا ، وصَلُحت له الدنيا خادمة ومارضيها مخدومة ، فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنبا .

روى أن أحمد بن حنبل رحمه الله : « خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ، ولم يكن فى ذلك الموضع من يحمله ، فوافى أيوب الحمال لحمله ، ودفع إليه أحمد أجرته ، فلما دخل الدار بعد إذنه له ، اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق ، وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب ، وكان يصوم الدهر ، فقال أحمد لابنه صالح : ادفع إلى أيوب من الخبز ، فدفع له رغيفين فردها ، قال أحمد : ضعهما . ثم صبر قليلا ، ثم قال : خذهما ، فالحقه بهما ، فلحقه فأخذهما ، فرجع صالح متعجبا ، فقال له أحمد : عجبتَ من ردّه وأخذه ؟ قال : نعم . قال : هذا رجل صالح ، فرأى الخبز ، فاستشرفت نفسه إليه ، فلما أعطيناه مع الاستشراف ردّه ، ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل .

هذا حال أرباب الصدق إن سألوا سألوا بعلم ، وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بعلم ، فمن لم يُرزق حالَ الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم .

فأما السائل مستكثراً فوق الحاجة ولا فى وقت الضرورة ، فليس من الصوفية بشىء ، سمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل ، فقال لمن عنده : ألم أقل لك عَشِّ السائل ؟! فقال : قد عشيته ، فنظر عمر ، فإذا تحت إبطه مِخلاةٌ مملوءة خبزاً فقال : عمر : ألك عيال ؟ فقال : لا . فقال عمر : لست بسائل ولكنك تاجر ، ثم نثر مخلاته بين يدى أهل الصدقة وضربه بالدرة .

وروى عن على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه ، قال : إن لله تعالى فى

خلقه مَثُوباتِ فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خُلقه ، ويطيع ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره .

ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ، ويعصى ربه ، ويكثر الشكاية ، ويتسخّط القضاء .

فحالُ الصوفية حسنُ الأدب فى السؤال ، والفتوح ، والصدقُ مع الله على كل حال كيف تقلّد .

الباب الحادى والعشرون

فى شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفىّ يتزوّج لله ، كما يتجرّد لله ؛ فلتجرّده مقصد وأوان ، ولتأهُّله مقصد وأوان . والصادقُ يعلم أوانَ التجرد والتأهّل ؛ لأن الطبع الجموح[1] للصوفىّ مُلجم بلجام العلم . مهما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبعُ إلى التزوج ، ولا يُقدِم على التزوج إلاّ إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرِّفق عليها ، وذلك إذا صارت منقادةً ، مِطواعةً ، مُجيبةً إلى ما يراد منها ، بمثابة الطفل الذى يُتَعاهَد بما يروق له ، ويُمنع عما يضرّه .

فإذا صارت النفسُ محكومةً[2] مطواعةً فقد قادت إلى أمر الله ، وتنصّلت من مُشَاحة[3] القلب فيُصْلَح بينهما بالعدل ويُنْظَر فى أمرهما بالقسط .

ومن صَبَر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجلَه تُنتَخب له الزوجة انتخاباً ، ويهيء الله له أعواناً وأسباباً ، ويُتَمّم برفيق[4] يُدْخَل عليه ، ورزق يساق إليه .

ومتى استعجل المريد ، واستفزّه الطبع، وخامره الجهل بثوران دُخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم ، وانحطّ من أوج[5] العزيمة الذى هو قضية حاله وموجب إرادته ، وشريطةُ صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هى رحمة من الله تعالى لعامة خلقه يُحْكَم عليه بالنقصان ويُشهد له بالخسران ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال .

---

(١) الجموح : الرجل يركب هواه فلا يمكن رده .

(٢) وفى نسخة ، محكوما عليها . (٣) عداوة .

(٤) وفى نسخة (برفق) . (٥) يعنى من همة عالية إلى شىء دنى .

قال سهل بن عبد الله التسترى : « إذا كان المريد حالٌ يتوقع به زيادة ، فدخل عليه الابتلاء ، فرجوعه فى الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصانٌ وَحَدث » .

وسمعت بعض الفقراء ، وقد قيل له : لِمَ لا تتزوج ؟ فقال : المرأة لا تصلح إلاّ للرجال ، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال ، فكيف أتزوج ؟ ! فالصادقون لهم أوانُ بلوغ عنده يتزوجون .

وقد تعارضت الأخبار وتماثلت الآثار ، فى فضيلة التجريد والتزويج ، وتنوع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ؛ لتنوع الأحوال ، فمنهم مَن فضيلتُه فى التجريد ، ومنهم من فضيلته فى التأهل ، وكل هذا التعارض فى حق مَن نارُ تَوقانه بَرْدٌ وسلام لكمال تقواه وقهره هواه ، وإلاّ ففى غير هذا الرجل الذى يخاف عليه الفتنة يجب النكاح فى حال التوقان المفرط ، ويكون الخلاف بين الأئمة فى غير التائق .

فالصوفى إذا صار متأهلا يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار ، ومسامحتُه فى الاستكثار إذا رؤى ضعيف الحال ، قاصراً عن رتبة الرجال ، كما وصفنا ـ من قبل ـ مَن صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله .

أخبرنا أبو زرعة ، عن والده أبى الفضل المقدسى الحافظ قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب ، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أخى ميمى قال : أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدثنا محمد بن هارون قال : أنبأنا أبو المغيرة ، قال : حدثنا صفوان بن عمرو قال : حدثنا عبد الرحمن ابن جبير ، عن أبيه ، عن عوف بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه فيء قسمه فى يومه ؛ فأعطى المتأهّل حظين ، والعزب حظاً واحداً ، فدعينا ، وكنتُ أدعى قبل عمار بن ياسر فأعطانى حظين ، وأعطاه حظاً واحداً ، فسخط ، حتى عَرَف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه ومَن حضره ، فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعها

بطرف عصاه وتسقط وهو يقول : (كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا ؟) فلم يجبه أحد . فقال عمار : وَدِدنا يا رسول الله لو قد أكثر لنا من هذا[1] .

فالتجرد عن الأزواج والأولاد أعونُ على الوقت للفقير ، وأجمعُ لهمّه ، وأهنأ لعيشه ، ويصلح للفقير فى ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق ، والتنقل فى الأسفار ، وركوب الأخطار ، والتجرد عن الأسباب ، والخروجُ عن كل مايكونُ حجاباً ، والتزوجُ انحطاطٌ من العزيمة إلى الرخص ، ورجوعٌ من الترَوح إلى النَّقص ، وتقيّد بالأولاد والأزواج ، ودوران حول مظانّ الإعوجاج ، والتفاتٌ إلى الدنيا بعد الزهادة ، وانعطافٌ على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة ، قال أبو سليمان الدارانى(*) : « ثلاث من طلبهن فقد رَكَن إلى الدنيا : من طلب معاشاً ، أو تزوج امرأة ، أو كتب الحديث » .

وقال : ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته .

أخبرنا الشيخ طاهر ، قال : أخبرنا والدى أبو الفضل ، قال : أخبرنا محمد ابن إسماعيل المقرى ، قال : أخبرنا أحمد بن الحسن قال : أخبرنا حاجب الطوسى قال : حدثنا عبد الرحيم قال : حدثنا الفزارى عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان النهدى ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء)[2] .

وروى رجاء بن حيوة ، عن معاذ بن جبل قال : « ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنةُ النساء إذا تسورن

---

(١) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(*) هو : أبو سليمان عبد الرحمن بن عطيه الدارانى : والدارانى نسبة إلى داران وهى قرية من قرى دمشق . مات سنة : خمس عشرة ومائتين من الهجرة (انظر الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٦) .

(٢) أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه وسنده صحيح

بالقلب، وبحسن رِيطَ[1] الشام وعصب اليمن، وأتبعن الغنيَّ وكلفن الفقير ما لا يجد). وقال بعض الحكماء: «معالجة العزوبة خير من معالجة النساء».

وسئل سهل بن عبد الله عن النساء، فقال: الصبر عنهن خيرٌ من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار».

وقيل في تفسير قوله تعالى: (وخلق الإنسان ضعيفاً)[2] لأنه لا يصبر عن النساء. وقيل في قوله تعالى: (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقةَ لنا به)[3]: الغُلْمَةَ[4]، وهي ثوران الطبع.

فإن قدر الفقير على مقاومة النفس، ورُزق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة النفس وصبر عنهن، فقد حاز الفضل واستعمل العقل واهتدى إلى الأمر[5] السهل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم بعد المائتين رجلٌ خفيف الحاذ، قيل: يا رسول الله: وما خفيف الحاذ؟ قال: الذي لا أهل له ولا ولد له»[6].

وقال بعض الفقراء — لما قيل له تزوج —: أنا إلى أن أُطلِّقَ نفسي أحوجَ مني إلى التزوج.

وقيل لبشر بن الحارث: إن الناس يتكلمون فيك. فقال: ما يقولون؟ قيل: يقولون: إنك تارك السنة!! — يعني النكاح — فقال: قولوا لهم: إني

---

(١) جمع ريطة وهي الملاءة. (٢) سورة النساء آية ٢٨.
(٣) سورة البقرة آية ٢٨٦.
(٤) الانقياد للشهوة واشتداد سورتها. وهيجان الطبع.
(٥) وفي نسخة: واهتدى إلى الرفه. والرفه السعة والرفاهية.
(٦) أبو يعلى في مسنده بسند صحيح ولفظه «خيركم في المائتين كل خفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد» ذكر ذلك السيوطي في جامعه، وقال العراقي في تخريج الإحياء إن سنده ضعيف وهو ما نرجحه.

مشغول بالفرض عن السنة. وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلاداً على الجسر.

والصوفي مبتلًى بالنفس ومطالبها، وهو في شغل شاغل عن نفسه، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالباتُ زوجته يضعف قلبه، وتنحلّ إرادته، وتفتر عزيمته.

والنفس إذا أُطمِعت طَمِعت، وإذا أُقنعت قنعت، فيستعين الشابُّ الطالب على حسم موادّ خاطر النكاح بإدامة الصوم: فإن للصوم أثراً ظاهراً في قمع النفس وقهرها، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بجماعة من الشبان وهم يرفعون[1] الحجارة فقال: «يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[2] أصل الوجاء: رضُّ الخصيتين. كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن. ومنه الحديث «ضحّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين موجوءين»[3]، وقد قيل: «هي النفس إن لم تَشْغَلها شغلتك».

فإذا أدام الشابُّ المريدُ العملَ، وأدأب نفسه في العبادة قلّ عليه خواطر النفس، وأيضاً شغله بالعبادة يشعر له حلاوة المعاملة، ويحثّه الإكثار منها، ويَفتح عليه باب الشهوة والفتور في العمل فيتغير عن حاله وربما يتكدر بهمّ الزوجة!! ومن حسن أدب المريد في عزوبته: أن لا يُسكِّن خواطر النساء من نفسه، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة فزع إلى الله تعالى بحسن الإنابة فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ويؤيده بمراغمة النفس، ثم ينعكس على نفسه نورُ قلبه ثواباً

---

(١) وفي نسخة يربعون، وفي أخرى يرمون أي يلعبون بوضع الحجر فوق رءوسهم.
(٢) متفق على لفظه من حديث ابن مسعود.
(٣) البخاري بدون موجوءين وروى أبو داود عن جابر قال: ذبح النبي صلى الله عليه وسلم يوم الذبح كبشين أقرنين أملحين موجوءين الخ

لحسن إنابته ، فتسكنُ النفس عن المطالبة ، ثم يَعْرِض على نفسه ما يَدْخُل عليه بالنكاح من الدخول فى المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان ، وأخذِ الشىء من غير وجهه ، وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخاطر إلى ضَبْط المرأة ، وحراستها ، والكُلَف التى لا تنحصر .

وقد سئل عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه عن جَهْد البلاء ، فقال : كثرةُ العيال ، وقلّةُ المال .

وقد قيل : كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلّة العيال أحد اليسارين .

وكان إبراهيم بن أدهم يقول : مَن تَعَوّد أفخاذ النساء لا يُفلح .

ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة ، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ، ويتسلّط على الباطن خوفُ الفقر ، ومحبّة الادخار . وكلّ هذا بعيد عن المتجرّد .

وقد ورد : « إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمّتى » .

فإن توالت على الفقير خواطر النكاح وزاحمت باطنه ، سيّما فى الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولاً ، ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشرح الحال لهم ويسألهم مساءلة الله له فى حُسن الاختيار ، ويطوف على الأحياء والأموات ، والمساجد والمشاهد ، ويستعظم الأمر ، ولا يدخل فيه بقِلّة الاكتراث ؛ فإنه باب فتنة كبيرة ، وخطر عظيم ، وقد قال الله تعالى : (إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكمْ فاحذروهم)(١) ، ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ، ويكثر البكاء بين يديه فى الخلوات ، ويكرر الاستخارة ، وإن رُزِق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة فى ذلك ، فهو الكمال والتمام ؛ فقد يكشف الله تعالى للصادق

(١) آية رقم ١٤ من سورة التغابن .

ذلك منعاً أو إطلاقاً فى منامه ، أو يقظته ، أو على لسان من يثق إليه دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق ، فعند ذلك يكون تزوّجه مُدَبَّراً مُعاناً فيه .

وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلى رضى الله تعالى عنه قال له بعض الصالحين : لِمَ تزوجت ؟ فقال : ما تزوّجت حتى قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوّج . فقال له ذلك الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة ، وطريقُ القوم التلزّم بالعزيمة . فلا أعلم ما قال الشيخ فى جوابه ، ولكنى أقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة وأمر بها على لسان الشرع .

فأمّا من التجأ إلى الله تعالى ، وافتقر إليه ، واستخاره ، فيكاشفه الله بتنبيهه إيّاه فى منامه وأمره هذا لا يكون أمر رخصة ، بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة ؛ لأنه من علم الحال لا من علم الحُكْم .

ويدلّ على صحة ما وقع لى ـ ما نُقل عنه ـ أنه قال : كنت أريد الزوجة مدّة من الزمان ، ولا أجترىء على التزوج خوفاً من تكدير الوقت ، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لى أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق علىّ إرادةً ورغبةً ، فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل .

فإذا صبر الفقير وطلب الفرجَ من الله بأنه الفرج والمخرج (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)(١) .

فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء ، وورد عليه وارد من الله تعالى بإذنٍ فيه فهو الغاية والنهاية .

(١) آية رقم ٣ من سورة الطلاق .

وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستنفدَ جهده فى الدعاء والضراعة ، فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويُمان عليه لحسن نيّته وصدق مقصده ، وحُسْنِ رجائه واعتماده على ربِّه .

وقد نقل عن عبد الله بن عباس أنه قال : « لا يتم نُسك الشاب حتى يتزوج ».

ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث ، فعوتب فى ذلك ، فقال : هل يعرف أحدٌ منكم أنه جلس بين يدى الله جلسة ، أو وقف وقفة فى معاملاته ، فخطر على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قد يصيبنا ذلك . فقال : لو رضيتُ فى عمرى كلّه بمثل حالكم فى وقت واحد ما تزوجت قط ، ولكنى ما خطر على قلبى خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا نفّذته لأستريح منه وأرجع إلى شغلى ، ثم قال : منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية » .

فالصادقون مادخلوا فى النكاح إلا على بصيرة ، وقصدوا حسم مواد النفس . وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين فى العلم أحوال فى دخولهم فى النكاح تختص بهم ، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم وتُقبِل قلوبهم ، وللقلوب إقبال وإدبار .

يقول بعضهم : إن للقلوب إقبالاً وإدباراً ، فإذا أدبرت رُوِّحت بالإرفاق . وإذا أقبلت رُدَّت إلى الميثاق . فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس ، وكفِّها عن المنازعة ، وتركِ التشبث بالقلوب ، فإذا اطمأنت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها توفّرت عليها حقوقها ، وربما يصير من حقوقها حظوظُها ؛ لأن فى أداء الحق إفناءً ، وفى أخذ الحق اتساعاً .

وهذا من دقيق علم الصوفية فافهم ؛ فإنهم يتسمون بالنكاح المباح إيصالاً إلى النفس حظوظها ؛ لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤُها دواءها ، وصارت الشهواتُ المباحة ، واللذات المشروعة لا تضرُّها ، ولا تُفتِّرُ عليها عزائمها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً ، ويصير بين القلب والنفس موافقةٌ ينعطف أحدهما على الآخر ، ويزداد كلٌّ واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خِلَع الطمأنينة ، فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد الطمأنينة للنفس ، وينشد :

إنّ السماء إذا اكتست كست الثرى
حُلَلاً يدبّجها الغمام الراهم(1)

وكلما أخذت النفس حظّها تروّح القلب تروُّح الجار المشفق براحة الجار .

سمعت بعض الفقراء يقول : النفسُ تقول للقلب : كن معى فى الطعام أكن معك فى الصلاة .

وهذا من الأحوال العزيزة ، لا يصلح إلا لعالم ربانىّ ، وكم من مدّع يهلك بتوهمه هذا فى نفسه . ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص .

والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ، ولا تأخذ الأشياء منه .

وقد كان الجنيد ، رضى الله تعالى عنه ، يقول : « أنا أحتاج إلى الزوجة ، كما أحتاج إلى الطعام » .

---

(1) الرهمة — بالكسر — : المطرة الضعيفة .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن فى الصوفية ، فقال : يا هذا ما الذى يُنقصهم عندك ؟ فقال يأكلون كثيراً ، فقال : وأنت أيضاً لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوّجون كثيراً ! ! قال : وأنت أيضا ، لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوّجت كما يتزوّجون ، قال : وأىّ شىء أيضا ؟ قال : يسمعون القول ! ! قال : وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون.

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سُرِّيَّة[1]. وكان ابن عباس يقول : خير هذه الأمة أكثرها نساء[2].

وقد ذكر فى أخبار الأنبياء أن عابداً تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه ، فذُكر لنبىّ ذلك الزمان فقال : نعم الرجل ، لولا أنه تاركٌ لشىء من السنة ، فنُمى ذلك إلى العابد ، فأهمّه ، فقال : ما تنفعنى عبادتى وأنا تاركٌ السنة ! ! فجاء إلى النبى فسأله فقال : نعم ، إنك تارك التزوّج ! ! فقال : ما تركته لأنى أحرّمه ، وما منعنى منه إلا أنى فقير لا شىء لى ، وأنا عيالٌ على الناس ؛ يطعمنى هذا مرة ، وهذا مرة . فأكره أن أتزوج بامرأة أعضُلها[4] أو أرهقها جَهْداً ، فقال له النبى : ما يمنعك إلا هذا ؟ قال : نعم . فقال : أنا أزوجك ابنتى . فزوجه النبى ابنتَه .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزبا .

وما ذكر الله تعالى فى القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين .

وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوّج لأجل السنة ، ولم يكن يقربها .

---

(١) جارية (٢) رواه البخارى : يعنى بذلك النبى صلى الله عليه وسلم
(٣) عالة (٤) أجهدها وفى (ب) أعظمها

وقيل : إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له .

وقيل : إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عَزَب .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبى الفضل قال : أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين ابن أحمد بن الهيثم المقدّمىُّ القزوينى قال : أخبرنا أبو طلحة القاسم بن أبى المنذر الخطيب ، قال : حدثنا أبو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القطان قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة ، قال : حدثنا أحمد بن الأزهر قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا عيسى بن ميمون ، عن القاسم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (النكاح سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى ، وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ، ومن كان ذا طَوْل[1] فلينكح ، ومن لم يجد فعليه بالصيام ، فإن الصيام له وجاء) .

ومما ينبغى للمتأهل أن يحذر منه الإفراط فى المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حدّ ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته ؛ فإن الإفراط فى ذلك يقوى النفس وجنودها ، ويُفَتِّر ناهض الهمة .

وللمتأهّل بسبب الزوجة فتنتان : فتنة لعموم حاله ، وفتنة لخصوص حاله ؛ ففتنة عموم حاله : الإفراط فى الاهتمام بأسباب المعيشة ، كان الحسن يقول : والله ، ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبّه الله على وجهه فى النار ، وفى الخبر : (يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيّرونه بالفقر ويكلّفونه مالا يطيق فيدخل فى المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك)[2] .

---

(١) غنى والحديث روى أوله أبو يعلى بإسناد حسن (النكاح سنتى) وقوله : وتزوجوا فإنى مكاثر بكم الامم ضعيف وباقيه صحيح والحديث رواه ابن ماجه

(٢) الخطابى فى العزلة من حديث ابن مسعود نحوه ، والبيهقى فى الزهد نحوه من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف .

وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم ، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته ، وتستطيل عليه وهو ساكت ، فعجبوا من ذلك ، وهابوه أن يسألوه ، فقال : لا تعجبوا من هذا ؛ فإنى سألت الله فقلت : يارب ، ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال : إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها ، فتزوجت بها ، وأنا صابر على ما ترون .

فإذا أفرط الفقير فى المداراة ربما تعدى حد الاعتدال فى وجوه المعيشة متطلباً رضا الزوجة . فهذا فتنة عموم حاله . وفتنة خصوص حاله : الإفراط فى المجالسة والمخالطة فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال ، وتسترق الغرض بطول الاسترسال . فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس[1] مقار المهلة فيقل الوارد لقلة الأوراد ويتكدر الحال ؛ لإهمال شروط الأعمال .

وألطف من هاتين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور ، وذلك أن للنفوس امتزاجاً ، وبرابطة الامتزاج تتعضد وتشتد ، وتتقاوى طبيعتها الجامدة ، وتلتهب نارها الخامدة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عونان باطنتان يفتقر بهما إلى مولاه ، وعونان ظاهرتان يستعملهما فى طريق هواه . وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظاما .

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

---

(١) يلازم ويقيم .

(٢) ترجم لها صاحب كتاب الاعلام فى ج ١ ص ٣١٤ ، فقال : هى أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية ، مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة لها فى العبادة والنسك أخبار كثيرة ، مولدها بالبصرة ، ورحلت إلى القدس فتوفيت بها سنة ١٣٥ هـ ٧٥٢ م وقد كتب عنها كثيرون ، ومن خير الكتب عنها كتاب الاستاذ محمد عطية خميس ، وكتاب المرحوم طه عبد الباقى سرور

وألطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك الاسترواح موقوفاً على الروح ، ويصير ذلك وليجة[1] فى حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية ، فتتبلد الروح ، وينسد باب المزيد من الفتوح ، وهذه الولادة فى الروح يعز الشعور بها فلتحذر .

ومن هذا القبيل دخلت الفتنة على طائفة قالوا بـ « المشاهدة » .

وإذا كان الاسترواح فى باب الحلال[2] وليجة فى الحب يتولد منها بلادة الروح فى القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية فما ظنك فيمن يدعى ذلك فى باب غير مشروع ثم يغره سكون النفس فيظن أنه لو كان من قبيل الهوى ما سكنت النفس ! ! والنفس لا تسكن فى ذلك دائماً ، بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه أيضا إليها .

على أنى استبحثت عما يحتج به المفتونون بالمشاهدة ، فوجدت أن المحمى عنه[3] من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة ! إذ لو ذهب الشراب ما بقيت الرغوة ، فليحذر ذلك جداً ، ولا يسمع ممن يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدع ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق ، وإن كان من غير المعشوق ، فليعلم أن مستنده الشهوة ، ويكذب من يدعى فيه حالاً . وهذه فتن المتأهل .

---

(١) ولج = دخل ، ووليجة الرجل خاصته وبطانته ومعنى وليجة أى مدخلا .

(٢) أى : النظر إلى جمال الزوجة

(٣) المصان ، والرغوة = زبد اللبن ، أى مع أنه محمى من صورة الفسق التى هى استيفاء قضاء الشهوة ، وغير محمى من معنى الفسق الذى هو النظر المجرد إلى الوجه الجميل إذ ليس خاليا من شهوة النفس بل عنده رغوة شراب الشهوة ولا يلتفت إلى قول من يقول نحن نطالع صنع الله .

« من تعليق فى احدى النسخ المخطوطة »

وفتنةُ المقرَّب مرور النساء بخاطره وتصوّرهن فى مُتخيّله ، ومن أعطى الطهارة فى باطنه لا يُدَنّس باطنَه بخواطر الشهوة .

وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة ، والِلياذ بالهرب .

ومتى سامر باطنه الفكر كثُفَ الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك يحذَر إحساس العضو بالخاطر ، فيصير ذلك عملاً خفياً .

وما أقبح مثلَ هذا بالصادق المتطلّع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال .

وقد قيل : مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين لها . والله أعلم .

انتهى الجزء الأول من كتاب « عوارف المعارف »

ويليه بعون الله تعالى الجزء الثانى ، وأوله

الباب الثانى والعشرون فى القول فى السماع

محتويات الكتاب

من مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود

١ ـ اللمع ـ الطوسى	دار الكتب الحديثة
٢ ـ الطريق إلى الله ـ الخراز	» » »
٣ ـ الرسالة القشيرية ـ القشيرى	» » »
٤ ـ المنقذ من الضلال ـ الغزالى	» » »
٥ ـ محمد رسول الله ـ اتيين دينيه	دار المعارف
٦ ـ فلسفة ابن طفيل ورسالته	مكتبة الأنجلو المصرية
٧ ـ التفكير الفلسفى فى الإسلام	» » »
٨ ـ الإسلام والعقل	دار الكتب الحديثة
٩ ـ القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم	» » »
١٠ ـ الإسلام والإيمان	» » »
١١ ـ العبادة أحكام وأسرار جـ ١، جـ ٢	» » »
١٢ ـ المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى	» » »
١٣ ـ غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية	» » »
١٤ ـ أبو العباس المرسى	دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
١٥ سفيان الثورى	دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
١٦ ـ السيد أحمد البدوى	دار الشعب
١٧ ـ فاذكرونى أذكركم	دار الشعب
١٨ ـ وازن الأرواح عن أندرية موروا	دار الشعب

رقم الإيداع ١٧٦٠ / ١٩٧١

تصويبات

ص	س	خطأ	صواب
٧٥	١	الفضـ	الفضل
٩٣	١٩	مباىء	مبادىء
٩٧	٦	لما	لا
١٠٦	هامش	هامش	محذوف
١٠٩	١٣	وعلانة	وعلامة
١٢٤	٣	يسببه	بسببه
١٢٨	٤	فنوق	فنون
١٣٥	الأخير	القطرة	المطرة
١٣٦	هـ: ع	فعل مايرضى	والعبادة فعل مايرضى
١٣٧	١٢	سواء	سواد
١٣٩	٢٢	والثلاثون	والأربعون
١٤٣	هـ: الأخير	الاحتياج	الاجتياح
١٥٥	١٢	بغناء	بفناء
١٥٩	٨	التفريد	التفريد
١٦٥	هـ: ٢	زيد العابدين	زين العابدين
١٨٢	الأخير	الفم	الفهم
١٨٣	١٣	يفنيه	يغنيه
١٨٣	١٧	خلقت	خلصت
٢٠٣	٦	القدم	العدم
٢٠٤	١٢	اغتنائه	اغتنامه
٢٣٤	٥	يعقد	يعتقد
٢٤٠	الأخير	بحظه ـ بحظ	بحظه ـ بحظ
٢٤٢	١٣	تدرك	تدركه
٢٤٨	٤	أوتوا	أتيا

ص	س	خطأ	صواب
٢٥٢	١١	بالحزاءة	بالحزاءة
٢٥٧	٣	تبس	لبس
٢٥٨	٤	على يرقيه	على من يرقيه
٢٦٢	١٤	دبره	وبره
٢٧٣	٣	يختصونه	يختصون
٢٨٩	الأخير	عند	عن
٢٩٧	٦	وكان جنبا	وإن كان جنبا
٣٠٣	١٠، هـ : ٢	التوكؤ – الرأى	بالتوكؤ – الرى
٣١٣	١٦	عن عبد الله	بن عبد الله
٣١٧	٢	المسيب	المتسبب
٣١٩	١	الأدب يؤديه	الأدب حتى يؤديه
٣١٩	الأخير	كما يأتى	كما كان يأتى
٣٢٠	٧ ، ١٤	أسأل – تستقرض من المال	سأل – تستقرض المال
٣٢٠	١٠	يشديها بالجنة	يشبهها بالحبة
٣٢٠	١١	الجنة ، ثم قال ، فقال	الحبة ، فقال
٣٢٣	٨	سراه	سواه
٣٢٥	الأخير	يتمصن	يتمحض
٣٢٧	٦	نوز المشاهدة الشهود	نور الشهود
٣٢٩	٧	هامش : (١)	هامش ص ٣٢٨ س ١٧

مكتبة المجلد العربى
القاهرة - الأزهر
ت ٥٩١٢٥٢٤

